« من يأخذ عنّي هذه الكلمات فيعمل بهنّ
أو يُعلّم من يعمل بهنّ » حديث شريف

الأربعون المنبرية

شرح أربعين حديثاً من جوامع الكلم

تأليف
عبد العظيم بن بدوي الخلفي

قدم له فضيلة الشيخ
محمد صفوت نور الدين

الناشر
دار ابن رجب
٠٥٧ / ٤٤١٥٥٠



الأَرْبَعُونَ المِنْبَرِيَّة

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع : ٨٧٤٩

دار ابن رجب طبع. نشر. توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٣٨٣٠٣٥٦
المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

مقدمة كتاب الأربعين المنبرية

تقديم: فضيلة الشيخ/ محمد صفوت نور الدين
الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام على نبيه وعبده محمد وعلى آله وصحبه وبعد:

قال حاجى خليفة فى «كشف الظنون»: ورد من طرق كثيرة بروايات متنوعة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**مَنْ حَفظَ عَلَى أُمَّتى أَربَعينَ حَديثًا فِى أَمْرِ دِينِهَا، بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَومَ القِيامَةِ فِى زُمْرَةِ الفُقَهَاءِ والعُلَمَاءِ**» واتفقوا على أنه حديث ضعيف، وإن كثرت طرقه، وقد صنف العلماء فى هذا الباب ما لا يُحصى من المصنفات واختلفت مقاصدهم فى تأليفها وجمعها وترتيبها، فمنهم من اعتمد على ذكر أحاديث التوحيد وإثبات الصفات، ومنهم من قصد ذكر أحاديث الأحكام، ومنهم من اقتصر على ما يتعلق بالعبادات، ومنهم من اختار أحاديث المواعظ والرقائق، ومنهم من قصد إخراج ما صحّ سنده وسلم من الطعن، ومنهم من قصد ما علا إسناده، ومنهم من أحب تخريج ما طال متنه وظهر لسامعه حين يسمعه حسنُه، إلى غير ذلك، وسمَّى كلٌّ واحد منهم كتابَه بكتاب «الأربعين».

وسنورد لك ما وصل إلينا خبره أو رأيناه باعتبار حروف المضاف إليه.

ثم ذكر بضعًا وسبعين كتابًا بدأها بـ«الأربعين فى لفظ الأربعين» لشمس الدين البطال اليمنى وختمها بالأربعين للغزالى.

والنبى ﷺ يقول: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُم**» ، ويقول ﷺ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**».

والشيخ عبد العظيم بدوى صاحب روائع فى خطبه وكتبه وهو يتشبه بزمرة العلماء والصالحين الذين ذكر أمثلة منهم صاحبُ «كشف الظنون»، والمرء مع من أحبّ، ومن أحب قومًا تشبَّه بهم.

هذا ونحن اليوم مع كتاب جمعه الشيخ من خطبه فهى موعظة مجرب يعطينا خلاصة تجربته وعصارة فكره وزبدة قوله بعد أن هذبها العرض، وتلقتها الأسماع، وتتلمذ عليها الرجال.

وأمام أحاديث من جوامع كلم النبى ﷺ وهى من خصائص النبى ﷺ لحديث: «**أُعْطيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ واخْتُصِرَ لِى الحديثُ اخْتصَاراً**» واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾ يقول السعدى فى تفسيره: «دلّ هذا على أن السنة وحى من اللَّه لرسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [النساء: ١١٣] وأنه معصوم فيما يخبر به عن اللَّه تعالى وعن شرعه لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحى يوحى.

ولقد روى أحمد فى مسنده وأبو داود والحاكم عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضى اللَّه عنهما قال: كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول اللَّه ﷺ أريد حفظه فنهتنى قريش فقالوا: إنك تكتب كل شىء تسمعه من

رسول اللَّه ﷺ ورسول ﷺ بشر يتكلم فى الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتابة فذكرت ذلك لرسول اللَّه ﷺ فقال: «**اكتُب والَّذى نفسى بيده ما خَرَجَ منهُ إلا حق**».

وسنة النبى ﷺ قد حوت كل خير إرشادًا وتبصيرًا ونهيًا وتحذيرًا من كل شر، فلما تسلط الشيطان على الناس فى مواعظهم ومنابرهم صرفهم عنها إلى قصص مكذوبة وأقوال مختلقة يجمعون الناس عليها فيخرجون بغير فائدة، فالعودة إلى مواعظ النبى ﷺ حتى تستقيم بها القلوب والبيوت والأسواق ويستقيم بها الرجال والنساء ويتتلمذ عليها الكبار والصغار.

فاقرأ أخى القارئ الكريم فى هذه الباقة الطيبة الإرشاد الاعتقادى الصحيح والتعبد المسنون والتعامل المشروع والموعظة الحسنة والقصة الحقيقية.

وتعلم أثر البر بالآباء وحب الأولياء والدعاء النافع، وتعلم من هذه الباقة الكريمة الوسيلة إلى الجنة والمنجيات من النار والموبقات المهلكات.

تعلم من هذه الباقة اليانعة الطهارة والصلاة والزكاة والصوم واتباع الجنائز وبشاشة الوجه، وحب الخير وجزاء الصبر، وفضل العلم، وأثر الحلم، وسلامة الصدر، والخير الكثير فى ثناياها وبين صفحاتها.

أخى القارئ الكريم: كن فى هذه المواعظ الطيبة مرآة صادقة تنقل الخير الذى جمعت وأذنًا واعيةً ولسانًا صادقًا، وتبلغ للناس العلم الصحيح النافع لأنك مكلف بالدعوة إلى اللَّه لقوله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ .

ثم لا تنس أيها القارئ الكريم صاحب الكتاب بدعوة صالحة وأشركنى

فى دعائك بصلاح الحال والمآل وحسن القبول وغفران الذنوب.

واللَّه أسأل أن ينفع بهذا الكتاب القيم كاتبه وناشره وقارئه وحامله والمنفق فيه، وأن يشملنى معهم فى هذا النفع، وأن يجعله ممتدًّا إلى الآخرة، وأن يثقل الموازين فيرزقنا سبحانه العيشة الراضية فى الجنة العالية (آمين).

واللَّه من وراء القصد.

كتبه: فقير عفو ربه ومولاه

محمد صفوت نور الدين

صباح الجمعة/الثالث عشر من رمضان ١٤١٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد للَّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾

[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدقَ الحديث كلامُ اللَّه، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

ثم أما بعد: فهذه أربعون حديثاً من جوامع كلم من خُصَّ بجوامع الكلم نبيِّنا محمد ﷺ، خطبتُ بها أربعين خطبةً، فى مسجدنا العامر مسجد النور، بقريتنا الطيبة الشيــن/ مركز قطور، فى الفترة من (٣٠ / ٣ / ١٤١٤ هـ. الموافق ١٦/ ٩/ ١٩٩٣م) إلى (٢٠/ ٢/ ١٤١٥ هـ. الموافق ٢٩/ ٧/ ١٩٩٤م) وقـد رأيت أن أبيـضهـا وأقـدمـها للطبـع عسى اللّـه أن ينفع بهـا مقـروءة ومسموعة، وأن يكتب لى أجرها، ويدّخر لى ثوابها: **﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وأنبه على أننـى قد قمت بتـخريج الأحاديث وكـتابة درجـة كل حديث أمامه معتمداً فى ذلك على كتب شيخنا العلامة الألبانى ـ حفظه اللَّه ـ .

كتبه

عبد العظيم بن بدوى الخلفى

ضحى يوم الأربعاء ١٩/٦/١٤١٥هـ

الموافق ٢٣/١١/١٩٩٤م



الحديث الأول

عَنْ أبى هُرَيْرَةَ رضى اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:

«منْ يأخُذُ عَنّى هؤلاء الكَلِمَات فيعْملَ بِهنَّ أو يُعلِّم من يعملُ بهنَّ؟» فقال أبو هريرة: فقلتُ: أنا يا رسول اللَّه! فأخذ بيدى فعدَّ خمْسًا وقال:

«اتّقِ المحارمَ تكُن أعْبدَ الناس، وارْضَ بما قسمَ اللهُ لكَ تكُنْ أغْنى النّاسِ، وأحْسِنْ إلى جارِكَ تكُنْ مُؤْمنا، وأحبَّ للناس ما تُحبَّ لنفسكَ تكُنْ مُسْلماً، ولا تُكْثر الضّحكَ فإنَّ كثْرةَ الضّحكِ تُميتُ القلْبَ»(١).

هذه كلمات من جوامع الكلم، رغّب النبى ﷺ فى أخذها للعمل بها ولتعليمها، من باب تكميل النفس ثم تكميل الغير، فإن كمال النجاة متوقف على تكميل الإنسان نفسه وتكميله غيره، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إنَّ الإنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فكمّلوا أنفسهم ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر] لتكميل غيرهم.

(١) حسن: ت (٢٤٠٧/ ٣٧٧/ ٣) [الصحيحة ٩٣].

وقول أبى هريرة: «أنا» أى: أنا آخذ عنك هذه الكلمات. وفيه إشارة إلى ما كان عليه من الحرص على الخير، رضى اللّه عنه.

وقوله: «فأخذ بيدى»: أى لِعَدّ هذه الكلمات، أو لأنه ﷺ كان يأخذ عند التعليم بيد من يعلمه. وقوله: «فعدّ خمساً»: أى من الخصال أو من الأصابع على ما هو المتعارف واحدة بعد واحدة، وقال:

«اتَّقِ المحارمَ تَكُن أَعْبَدَ الناسِ»: أى احذر الوقوع فى جميع ما حرم اللّه عليك. واللّه عزّ وجل يقول: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩].

فالمحرمات المقطوع بها مذكورة فى الكتاب والسنة:

كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الانعام: ١٥١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وفى المطاعم يقول تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الانعام: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ

عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].

وفى المشارب قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وفى المناكح قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣].

وفى المكاسب قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وأما السنة ففيها ذكر كثير من المحرمات:

كقوله ﷺ: «إن اللَّهَ حرَّمَ بيعَ الخمرِ والميتةَ والخنزيرَ والأصنامَ»[١].

وقوله ﷺ: «كلّ مُسْكرٍ خَمر، وكُلّ خمرٍ حَرَامٌ»[٢].

وقوله ﷺ: «إن دماءَكم وأموالَكُم وأعراضَكُم عليكُم حَرَامٌ»[٣].

وقوله ﷺ: «يَحرُمُ مِنَ الرضَاعِ مَا يَحرُمُ مِنَ النَّسَبِ»[٤].

فما ورد التصريح بتحريمه فى الكتاب والسنة فهو محرم، وقد تستفاد

(١) متفق عليه: خ (٢٢٣٦/ ٤٢٤/ ٤)، م (١٥٨١/ ١٢٠٧/ ٣)، ت (١٣١٥/ ٣٨١/ ٢)، أبو داود (٣٤٦٩/ ٣٧٧/ ٧)، جه (٢١٦٧/ ٧٣٢/ ٢)، نس (٧٠٩/ ٧).

(٢) صحيح: م (٢٠٠٣ - ٧٥ -/ ١٥٨٧/ ٣)، جه (٣٣٩٠/ ١١٢٤/ ٢).

(٣) صحيح: خ (١٧٣٩/ ٥٧٣/ ٣).

(٤) متفق عليه: خ (٢٦٤٥/ ٢٥٣/ ٥)، م (١٤٤٧/ ١٠٧١/ ٢)، نس (١٠٠/ ٦).

الحرمة من النهى، كما تستفاد من الوعيد الشديد المرتب على الفعل.

فالرسول ﷺ يقول: «اتَّقِ المحارِمَ تَكُن أَعْبَدَ الناسِ» أى: من أعبدهم، لأنه يلزم من ترك المحارم فعل الفرائض، فباتقاء المحارم تبقى الصحيفة نقية من التبعات، فالقليل من التطوع مع ذلك ينمو وتعظم بركته فيصير ذلك المتقى من أكابر العباد.

ويلزم من ذلك أن يكون العبد عالماً بالواجب ليقوم به، وعارفاً بكل محرّم فيجتنبه، ومن هنا قال ﷺ: «طلبُ العلمِ فريضةٌ عَلَى كلِّ مُسلِمٍ»[1].

ولقد بيّن اللَّه سبحانه أن تعظيم المحارم خير للعبد فقال: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّم حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ١٠].

قال ابن كثير[2] ـ رحمه اللَّه ـ: أى ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيماً فى نفسه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أى: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات.

وقوله ﷺ: «وارضَ بمَا قسمَ اللَّه لكَ تَكُن أغنَى الناسِ» معناه: اقنع بما أعطاك اللَّه، وجعله حظك من الرزق، تكن أغنى الناس، فإن من قنع استغنى، وقد قال ﷺ: «ليسَ الغِنَى عن كثرةِ العَرَضِ، ولكن الغِنَى غِنَى النفسِ»[3].

قال ابن بطال: معنى الحديث: ليس حقيقة الغنى كثرة المال، لأن كثيراً

---

(١) صحيح: جه (٢٢٤/٨١/١).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٢١٨/٣).

(٣) متفق عليه: خ (٦٤٤٦/٢٧١/١١)، م (١٠٥١/٦٧٢/٢)، ت (٢٤٧٩/٣٥/٤).

ممن وسع اللَّه عليه فى المال لا يقنع بما أوتى فهو يجتهد فى الازدياد ولا يبالى من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو من استغنى بما أوتى وقنع به ورضى ولم يحرص على الازدياد ولا ألح فى الطلب، فكأنه غنى.

وقال القرطبى: معنى الحديث: أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس، وبيانه أنه إذا استغنتْ نفسُه كفتْ عن المطامع فعزت وعظمت وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذى يناله من يكون فقير النفس لحرصه، فإنه يورطه فى رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس، ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير، وأذل من كل ذليل.

قال الحافظ ابن حجر: والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعاً بما رزقه اللَّه لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلح فى الطلب، ولا يلحف فى السؤال، بل يرضى بما قسم اللَّه له، فكأنه واجد أبداً.

والمتصف بفقر النفس على الضد منه لكونه لا يقنع بما أعطى، بل هو أبدا فى طلب الازدياد من أى وجه أمكنه، ثم إذا فاته المطلوب حزن وأسف، فكأنه فقير من المال، لأنه لم يستغن بما أعطى، فكأنه ليس بغنى[1].

فارضَ - يا عبد اللَّه - بما قسم اللَّه لك تكن أغنى الناس، وتذكر قول النبى ﷺ: «**من أصبحَ منكُم آمناً فى سِربِهِ، مُعَافًى فى جَسَدِه، عندَهُ قُوتُ يومِه، فكأنما حِيزَت له الدنيا بِحَذَافيرِهَا**»[2].

(١) الفتح (١١/٢٧٧).

(٢) حسن: ت (٤/٥/٢٤٤٩)، جه (٢/١٣٨٧/٤١٤١).

وقوله ﷺ: «قد أفلحَ مَن أسلَمَ، وكانَ رزقُهُ كَفَافًا، وقنّعَهُ اللَّه بما أتاه»[١].

﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

وإذا رأيت من هو أكثر منك مالاً وولداً فاعلم أن هناك من أنت أكثر منه مالاً وولداً، فانظر إلى من أنت فوقه، ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإلى هذا أرشدك المصطفى ﷺ حيث قال: «انظرُوا إلى مَن هُوَ أسفلَ منكُم، ولا تنظرُوا إلى مَن هُوَ فَوقَكُم، فهو أجْدَرُ أن تَزدَرُوا نعمةَ اللَّه عَلَيكُم»[٢].

قوله ﷺ: «وأحْسِن إلى جَارِكَ تَكُن مُؤمناً».

قد أمر اللَّه بالإحسان إلى الجيران:

فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[النساء: ٣٦].

وقد كثرت الأحاديث أيضاً في ذلك ومنها:

قوله ﷺ: «ما زال جبريلُ يُوصيني بالجَارِ حَتى ظننتُ أنَّهُ سيُورِّثُه»[٣].

وقوله ﷺ: «مَن كَانَ يُؤمنُ باللَّه واليومِ الآخرِ فليُحسنْ إلى جَارِه»[٤].

وقوله ﷺ: «خيرُ الأصحَابِ عندَ اللَّه خيرُهُم لصاحبِه، وخيرُ الجيرانِ عِندَ اللَّه

---

(١) صحيح: م (١٠٥٤/٧٣/٢)، ت (٢٤٥٢/٦/٤)، جه (٤١٣٨/١٣٨٦/٢).

(٢) صحيح: م (٢٩٦٣/٢٢٧٥/٤)، ت (٢٦٣٢/٧٥/٤)، جه (٤١٤٢/١٣٨٧/٢).

(٣) متفق عليه: خ (٦٠١٤/٤٤١/١٠)، م (٢٦٢٤/٢٠٢٥/٤)، د (٥١٢٩/٦١/١٤)، ت (٢٠٠٨/٢٢٤/٣) جه (٣٦٧٣/١٢١١/٢).

(٤) صحيح: م (٤٨/٦٩/١).

خيرُهُم لجَارِه»[١].

فإذا لم تقدر على الإحسان إلى جارك فكُفّ عنه أذاك، وإن كان مؤذياً لك فيلزمك الصبر عليه حتى يجعل اللَّه لك فرجاً.

قال الحسن: ليس حسنُ الجوار كفَّ الأذى، ولكن حسنَ الجوار احتمالُ الأذى. أما أذى الجار فمحرم، لأن الأذى بغير حق محرم لكل أحد، ولكن فى حق الجار هو أشد تحريماً.

ففى «الصحيحين» عن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه سئل:

«**أىُّ الذنب أعظمُ؟** قال: «**أن تجعلَ للَّه نداًّ وهو خَلَقَك**». قيل: ثم أىّ؟ قال: «**أن تقتلَ ولدَكَ مَخَافَةَ أن يَطْعَمَ مَعَك**». قيل: ثم أىّ؟ قال: «**أن تُزَانى حَلِيلةَ جَارِكَ**»[٢].

وفى «مسند الإمام أحمد» عن المقداد بن الأسود قال:

قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما تقولُون فى الزّنا؟**». قالوا: حرام، حرّمه اللَّه ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة.

فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لأن يَزنى الرجلُ بعشر نسوة أيسَرُ عليه من أن يَزنى بامرأة جارِه**». قال: «**فما تَقُولُونَ فى السرقة؟**» قالوا: حرام، حرّمها اللَّه ورسوله فهى حرام. قال: «**لأن يَسرقَ الرجلُ من عشرة أبيات أيسرُ عليه من أن يسرقَ مِن بَيتِ جَارِه**»[٣].

---

(١) صحيح: ت(٩٠٠٢/ ٢٢٤/ ٣).
(٢) متفق عليه: خ (٤٤٧٧/ ١٦٣/ ٨)، م (٨٦/ ٩٠/ ١)، ت (٢٣٢/ ١٧/ ٥)، د (٢٢٩٣/ ٤٢٢/ ٦)، نس (٨٩/ ٧).
(٣) صحيح: أ (١٨٧/ ٧١/ ١٦).

وفى «صحيح البخارى» عن أبى شريح عن النبى ﷺ قال:

«واللَّه لايؤمنُ، واللَّه لا يؤمنُ، واللَّه لا يؤمنُ». قيل: من يا رسول اللَّه؟ قال: **«مَن لا يأمَن جارُهُ بوائقَهُ»**(١).

وفى «صحيح مسلم» عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه عن النبى ﷺ قال: **«لا يدخلُ الجنةَ مَن لا يأمَن جارُهُ بوائقَهُ»**(٢).

ولقد كان النبى ﷺ يحث الجيران على التهادى والصلة، وكان ينهى عن احتقار ما يقدمه الجار لجاره:

فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: **«تهَادُوا تحَابُّوا»**(٣).

وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يا نساءَ المؤمناتِ لا تحقِرَنَّ جارةٌ لجارَتِهَا ولو فِرسِنَ شاة»**(٤).

وعن أبى ذر رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يا أبا ذر، إذا طبختَ مَرَقَةً فأكثِر ماءَها، وتعاهَدْ جيرانَكَ منْها»**(٥).

وعن عائشة رضى اللَّه عنها قالت: قلت يا رسول اللَّه! إن لى جارين، فإلى أيِّهما أُهدى؟ قال: **«إلى أقربِهمَا منك باباً»**(٦).

وقوله ﷺ: **«وأَحْسِنْ إلى جارِكَ تَكُنْ مُؤْمناً»** أى: كامل الإيمان، لأن الإيمان يزيد وينقص، كما هو اعتقاد أهل السنة والجماعة.

---

(١) صحيح: خ (٦٠١٦/٤٤٣/١٠).

(٢) صحيح: م (٤٦/٦٨/١).

(٣) حسن: هق (١٦٩/٦).

(٤) متفق عليه: خ (٢٥٦٦/١٩٧/٥)، م (١٠٣٠/٧١٤/٢). والفِرسَن: الظلف.

(٥) صحيح: م (١٦٢٥ - ١٤٢ - /٢٠٢٥/٤).

(٦) صحيح: خ (٢٥٩٥/٢١٩/٥)، د (٥١٣٣/٦٣/١٤).

وقوله ﷺ: «وأحبّ للناس ما تُحبّ لنفسكَ تكُنْ مُسْلماً» أى كامل الإسلام، وهو يفيد أنه على قدر نقصان هذا الحب ينقص الإسلام.

وقد رتّب النبى ﷺ على هذه الخصلة دخول الجنة، فقال ﷺ:

«مَن أَحَبّ أن يُزحزحَ عَنِ النارِ ويَدخُل الجنةَ فلتُدركْه مَنيتُه وهو مُؤمنٌ باللَّه واليومِ الآخرِ، وليأتِ إلى الناسِ الذى يحبُّ أن يُؤتى إليه»[1].

وإنما يصل المرء إلى هذه الرتبة بكمال سلامة صدره من الغش والغل والحسد، فإن الحسد يقتضى أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد فى خير أو يساويه فيه، لأنه يحب أن يمتاز على الناس بفضائله وينفرد بها عنهم، والإيمان يقتضى خلاف ذلك، وهو أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه اللَّه من الخير من غير أن ينقص عليه منه شىء.

وفى الجملة ينبغى للمؤمن أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه فإن رأى فى أخيه المسلم نقصاً فى دينه اجتهد فى إصلاحه، وإن رأى فى غيره فضيلة فاق بها عليه فيتمنى لنفسه مثلها، فإن كانت الفضيلة دينية كان حسناً، وقد قال النبى ﷺ: «**لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه اللَّه مالاً فسلّطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه اللَّه حكمة فهو يقضى بها ويعلمها**»[2].

وإن كانت دنيوية فلا خير فيها، وقد قال تعالى: ﴿ **وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ [النساء: ٣٢].

---

(١) صحيح: م (١٨٤٤/ ١٤٧٢، ١٤٧٣/ ٣)، نس (٧/ ١٥٣).

(٢) متفق عليه: خ (٧٣/ ١٦٥/ ١)، م (٨١٦/ ٥٥٩/ ١)، جه (٤٢٠٨/ ١٤٠٧/ ٢).

وقال تعالى عن قارون:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ٧٩].

فلما خسف اللَّه به وبداره الأرض قال الذين تمنّوا مكانه بالأمس.

﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٢].

وأما قوله ﷺ: «**ولا تُكثر الضَّحكَ فإن كَثرةَ الضحك تُميتُ القلبَ**» ففيه النهى الظاهر عن كثرة الضحك، وبيان علة النهى وهى «أن كثرة الضحك تميت القلب» أى: تجعله مغموراً فى الظلمات، بمنزلة الميت الذى لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها شيئاً من مكروه.

وحياته وإشراقه مادة كل خير، وموته وظلمته مادة كل شر، وبحياته تكون قوته وسمعه وبصره وتصور المعلومات وحقائقها على ما هى عليه.

وفى الحديث إيذان بالإذن فى قليل الضحك لا سيما للمصلحة، وهذا هو هدى النبيين وعباد اللَّه الصالحين، قال تعالى عن سليمان عليه السلام ـ لما سمع قول النملة ـ : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩].

وفى الصحيح عن سعد بن أبى وقاص قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين (أى: أثخن فيهم وعمل فيهم عمل النار) فقال النبى ﷺ لسعد: «**ارمِ فداكَ أبى وأُمى**».

قال: فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت

عورته، فضحك النبى ﷺ حتى نظرت إلى نواجذه[١].

وإنما ضحك ﷺ سروراً بإصابة الرجل، لا بانكشاف عورته، فإنه المنزه عن ذلك ﷺ.

وفى الصحيحين عن عبد اللَّه بن مسعود رضى اللَّه عنه قال: قال النبى ﷺ: «**إنى لأعلمُ آخرَ أهلِ النارِ خُروجاً منها، وآخرَ أهلِ الجنة دُخُولاً: رجلٌ يخرُجُ من النارِ حَبواً، فيقولُ اللَّه له: اذهبْ فادْخُلِ الجنةَ، فيأتيها فيُخَيّل إليه أنها مَلأى، فيرجعُ فيقولُ: يا ربِّ! وجَدتُها مَلأى. فيقولُ: اذهبْ فادخُل الجنةَ. فيأتيها فيخيّلُ إليه أنها مَلأى. فيرجعُ فيقولُ: يَا ربِّ! وجدتُها مَلأى. فيقولُ: اذهبْ فَادخُل الجنةَ، فَإنَّ لَكَ الدُّنيا وعَشرةُ أمثالهَا. فيقولُ: تَسخَرُ منى، أو: تضحكُ منى وأنتَ الملكُ؟ فلقد رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ ضَحِكَ حتى بَدَت نَوَاجِذُهُ، وكانَ يُقَالُ: ذلك أدنى أهل الجنة منزلاً**»[٢].

ولكن هذا الضحك منه ﷺ كان على غير عادته، فقد كان جلّ ضحكه التبسم، كما فى الصحيح عن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس رسول اللَّه ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً كان لا يقوم من مصلاه الذى يصلى فيه الصبح أو الغداة حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم[٣].

وقيل لعمر: هل كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمانُ واللَّهِ أثبتُ فى قلوبهم من الجبال الرواسى.

---

(١) صحيح: م (٢٤١٢/١٤٧٦/٤).

(٢) متفق عليه: خ (٦٥٧١/٤١٨ و ٧٥١١/٤١٩/١١)، م (١٨٦/١٧٣/١)، جه (٤٣٣٩/١٤٥٢/٢).

(٣) صحيح: م (٦٧٠/٤٦٣/١)، نس (٨٠ و ٨١/٣).

ولقد بلغ من سماحة الإسلام أن جعل التبسم وطلاقة الوجه عند لقاء الأخ لأخيه من الصدقات.

فعن أبى ذر رضى اللَّه عنه قال: قال لى النبى ﷺ:

«لا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ شيئاً ولو أن تَلقَى أَخَاكَ بِوَجه طَلقٍ»[١].

إن الإسلام دين واقعى، لا يحلق فى أجواء الخيال والمثالية الواهمة، ولكنه يقف مع الإنسان على أرض الحقيقة والواقع. ولا يعامل الناس كأنهم ملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ولكنه يعاملهم بشرا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق.

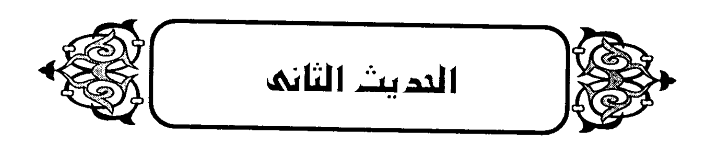
لذلك لم يفرض عليهم - ولم يفترض فيهم - أن يكون كل كلامهم ذِكرا، وكل صَمتِهِم فِكْرا، وكل فراغهم فى المسجد، وإنما اعترف بهم وبفطرهم وغرائزهم التى خلقهم اللَّه عليها، وقد خلقهم سبحانه يفرحون ويمرحون، ويضحكون ويلعبون، كما خلقهم يأكلون ويشربون. فلا بأس على المسلم أن يتفكه ويمزح بما يشرح صدره، ولا حرج عليه أن يروّح عن نفسه ونفوس رفقائه بلهو مباح: على ألا يجعل ذلك ديدنه وخلقه فى كل أوقاته، ويملأ به صباحه ومساءه، فينشغل به عن الواجبات ويهزل فى موضع الجِد ولذا قيل:

أعطِ الكلامَ من المزح بقدر ما يُعطى الطعامُ مِنَ المِلْح[٢].

* * *

(١) صحيح: م (٢٦٢٦ / ٢٠٢٦ / ٤).

(٢) انظر «الخصائص العامة للإسلام» د. القرضاوى.



الحديث الثانى

عَن أبى هُرَيرَةَ رَضى اللَّهُ عنهُ قَال: قَال رَسُولُ اللَّه ﷺ:

«إن اللَّه تعالى قال: مَنْ عَادَى لى وَليًّا فقَدْ آذنْتُه بالحرب، وَمَا تَقَرَّبَ إلىَّ عَبْدى بشَىْءٍ أَحبَّ إلىَّ ممَّا افتَرضْتُهُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدى يَتقَرَّبُ إلىَّ بالنَّوَافل حَتَّى أُحبَّهُ، فإذَا أَحبَبْتُه كُنتُ سَمْعَهُ الَّذى يَسْمَعُ به، وَبصَرَهُ الَّذى يُبْصرُ به، وَيدَهُ الَّتى يبطشُ بهَا، وَرجْلَهُ الَّتى يَمْشى بهَا، وَإنْ سَأَلَنى لأُعْطينَّهُ، ولئنْ استعاذَ بى لأُعيذَنَّهُ. وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَىْءٍ أَنَا فَاعلُهُ تَرَدُّدى عَن قَبْض نَفْس المُؤْمن، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1].

هذا حديث شريف، وهو أشرف حديث رُوى فى صفة الأولياء: جمعُ ولىّ مأخوذ من الولاية التى هى ضد العداوة. وأصل الولاية: المحبّة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد.

فَوَلِىُّ اللَّه هو العالم باللَّه، المواظب على طاعته، المخلص فى عبادته.

وقد بيّن اللَّه سبحانه فى كتابه وسنّة رسوله مَنْ هم أولياؤه من الناس،

(١) صحيح: خ (٢/٦٥٠٢ ٣٤٠ و ٣٤١/١١)، وانظر شرحه هناك (فتح البارى ٣٤٠/١١).

فقال سبحانه: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢ ، ٦٣] فكلّ مؤمن تقيّ فهو للَّه وليّ.

ولابد فى الإيمان من الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر، كما أنه لابد فى الإيمان من الإيمان بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين لا نبيَّ بعده، وأن اللَّه أرسله إلى جميع الثقلين الجنّ والإنس. فكلّ من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن فضلاً عن أن يكون من أولياء اللَّه.

ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠ ، ١٥١].

ومن الإيمان به ﷺ: الإيمان بأنه هو الواسطة بين اللَّه وبين خلقه فى تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وحلاله وحرامه، فالحلال ما أحلّه اللَّه ورسوله، والحرام ما حرّم اللَّه ورسوله، والدين ما شرعه اللَّه ورسوله ﷺ.

فمن اعتقد أن لأحدٍ من الأولياء طرقاً إلى اللَّه من غير متابعة محمد رسول اللَّه ﷺ فهو كافرٌ من أولياء الشيطان.

وأمّا خَلْقُ اللَّه تعالى للخلق، ورزقه إياهم، وإجابته لدعائهم، وهدايته لقلوبهم ونصرهم على أعدائهم، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضارّ فهو للَّه وحده، يفعله بما يشاء من الأسباب، لا يدخل فى مثل هذا وساطة الرسل.

أما التقوى: فهى القيام بالواجبات وترك المحرمات، وقد تقوى حتى يفعل التقيّ المندوبات ويترك المكروهات.

وقد دلّ على ذلك كلّه كتابُ ربّنا، قال تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]

وليس لأولياء اللَّه شيء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحات. فلا يتميزون بلباس دون لباس، إذا كان كلاهما مباحاً، ولا يوجدون فى صنف من الناس دون غيره، بل يوجدون فى جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون فى أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون فى أهل الجهاد والسيف، ويوجدون فى التّجار والصنّاع والزرّاع.

وأولياء اللَّه تجب موالاتهم، وتحرم معاداتهم، كما أن أعداء اللَّه تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم.

واللَّه سبحانه يقول فى أول هذا الحديث: «مَنْ عَادَى لِيَ وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ» أى: فقد أعلمته بالحرب.

قال الفاكهانى: فى هذا تهديد شديد، لأن من حاربه اللَّه أهلكه، وهو من المجاز البليغ. لأن من كره من أحبّ اللَّه خالف اللَّه، ومن خالف اللَّه عانده، ومن عانده أهلكه.

قال الحسن: ابن آدم: هل لك بمحاربة اللَّه من طاقة؟

ولما ذكر سبحانه أن معاداة أوليائه محاربة له ذكر بعد ذلك وصف أوليائه

الذين تحرم معاداتهم وتجب موالاتهم، فقال: «**وما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه**»، وهكذا جعل اللّه أولياءه قسمين:

الأول: من تقـرّب إليه بأداء الفـرائض، ويشمل ذلك فـعل الواجبات، وترك المحـرمات، لأن ذلك كله من فـرائض اللّه التى افتـرض على عـباده. وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين. وأداء الفرائض أفضل الأعمال، كما قال عـمر: أفـضل الأعمـال أداء ما افـترض اللّه، والورع عـما حـرّم اللّه، وصدق النية فيما عند اللّه تعالى.

وقـال عمـر بن عبـد العزيز: أفـضل العبـادات أداء الفرائض واجـتناب المحارم. وأعظم فرائض البدن التى تقرب إلى اللّه الصـلاةُ، كما قال تعالى: ﴿**كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق: ١٩].

وقال النبى ﷺ: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربّه وهُوَ سَاجدٌ**»[(١)].

ومن الفرائض المقرّبة من اللّه أيضاً عدلُ الراعى فـى رعيته، سواء كانت رعية عامّـة كالحاكم، أو خاصة كعدل آحـاد الناس فى أهله وولده، كما قال النبى ﷺ: «**كلكُم راعٍ وكلكُم مسئولٌ عن رعيتِه، الإمامُ راعٍ ومسئولٌ عَن رَعيَّته، والرجلُ راعٍ فى أهله ومسئُولٌ عَن رعيَّته**»[(٢)].

وقـال ﷺ: «**إن المقسطينَ عنـدَ اللّه على منابرَ من نُور عن يمينِ الرحـمنِ عَزَّ وجلَّ وكِلتَا يديه يمينٌ: الذينَ يَعدِلُونَ فى حُكمِهِم وأهليهِم ومَا وُلّوا**»[(٣)].

---

(١) صحيح: م (٤٨٢/ ٣٥٠/١)، د (٨٦١/١٢٨/٣)، نس (٢٢٦/٢).
(٢) متفق عليه: خ (٨٩٣/ ٣٨٠/٢)، م (١٨٢٩/١٤٥٩/٣).
(٣) صحيح: م (١٨٢٧/١٤٥٨/٣)، نس (٢٢١/٨).

والقسم الثانى من أولياء اللَّه هم الذين تقربوا إلى اللَّه بعد الفرائض بالاجتهاد فى النوافل والطاعات، وترك المكروهات.

وهذه درجة السابقين المقرّبين. وهى من موجبات محبّة اللَّه للعبد، كما قال: «**وما يزالُ عَبدِى يتقرَّبُ إلىّ بالنوافلِ حَتى أحبّه**» ومن أحبّه اللَّه رزقه محبته وطاعته والانشغال بذكره وخدمته، فأوجب له ذلك القرب منه، والزلفى لديه، والحظ عنده.

ومن أعظم النوافل التى يتقرب بها العبد إلى اللَّه تعالى: كثرة تلاوة القرآن الكريم، وسماعه بتفكّر وتدبّر وتفهم.

قال خبّاب بن الأرت لرجل: تقرّب إلى اللَّه ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرّب إليه بشىء أحبّ إليه من كلامه. لا شىء عند المحبّين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذّة قلوبهم، وغاية مطلوبهم.

قال عثمان بن عفان رضى اللَّه عنه: لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم.

وقال ابن مسعود: من أحبّ القرآن أحبّ اللَّهَ ورسولَه.

ومن ذلك كثرة ذكر اللَّه، الذى يتواطأ عليه القلب واللسان، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وعن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **يقولُ اللَّهُ عزّ وجل: أنا عندَ ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرُنى. إن ذَكَرَنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسِى، وإن ذكرنى فى مَلأٍ ذكرتُهُ فى ملأ هُم خيرٌ منهُم، وإن تقرّبَ منى شبراً تقرّبتُ**

إليه ذِراعاً، وإنْ تقرّبَ إليّ ذراعاً تقرّبتُ منهُ بَاعاً، وإن أتاني يَمشي أتيتُه هَرْوَلَة»[١] .

وهذا التقسيم لأولياء اللَّه قد نطق به كتاب ربنا فى آخر سورة الرحمن، وأوّل الواقعة، وفى سورة الإنسان، والمطففين.

وإذا كان أولياء اللَّه هم المؤمنين المتقين، والمؤمنون يتفاضلون فى الإيمان والتقوى، فهم أيضاً يتفاضلون فى الولاية، فأفضلهم الأنبياء، وأفضل الأنبياء المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم، وأفضل أولى العزم خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم أجمعين، محمد الأمين ﷺ، وأفضل الأولياء بعد الأنبياء ورثتهم وهم العلماء، كما قال ﷺ، فالعلماء هم أولياء اللَّه، كما قال الإمامان الشافعى وأحمد: إذا لم يكن العلماء أولياء اللَّه فليس للَّه ولى. وإذ الأمر كذلك وجب على الأمة أن تعرف للعلماء حقهم، فإنهم خلفاء الرسول من أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وهم للناس بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر.

وقوله سبحانه فى الحديث: «**فإذا أحببتُه كُنتُ سَمعَهُ الذى يَسمَعُ به، وبَصَرَهُ الذى يُبصرُ به، ويَدهُ التى يَبطشُ بها، ورجلَهُ التى يَمشى بهَا**» .

والمراد من هذا: أن من اجتهد فى التقرّب إلى اللَّه تعالى بالفرائض ثم بالنوافل قرّبه اللَّه إليه، ورقّاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد اللَّه كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة اللَّه تعالى ومحبته وعظمته، وخوفه ومهابته وإجلاله، والأنس به والشوق إليه. فيمحى من ذلك القلب كل ما سوى اللَّه، حتى لا يبقى للعبد شىء من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه.

فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق نطق باللَّه، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به سبحانه.

---

(١) متفق عليه: خ (٥/٧٤٠٥/٣٨٤/١٣)، م (٢٦٧٢/٢٠٦١/٤)، ت (٣٦٧٣/٢٣٨/٥).

والمراد بذلك أن اللَّه يوفّق العبد فى الأعمال التى يباشرها بهذه الأعضاء، وييسّر المحبة له فيها، بأن يحفظ جوارحه عليه، ويعصمه عن مواقعة ما يكره من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى اللَّه عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعى إلى الباطل برجله، فلا تتحرك له جارحة إلا فى اللَّه وللَّه، فهى كلها تعمل بالحق للحق.

وقوله: «**وَلَئِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِى لأُعِيذَنَّهُ**» يعنى أن هذا المحبوب المقرّب له عند اللَّه منزلة خاصة تقتضى أنه إذا سأل اللَّه شيئاً أعطاه إياه، وإذا استعاذ به من شىء أعاذه منه، وإن دعاه أجابه، فيصير مجاب الدعوة لكرامته على اللَّه، كما كان كثير من السلف الصالح معروفاً بذلك.

يدل عليه ما جاء فى الصحيح: أن الرُّبَيِّع بنت النضر كسرتْ ثنيّةَ جارية، فعرضوا على أهلها الأرْش فأبوا، فطلبوا منهم العفو فأبوا، فقضى بينهم رسول اللَّه ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر أخو الرّبيّع: أتكسر ثنيّة الربيع؟ والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنيتُها. فرضى القوم بالأرش. فقال النبىّ ﷺ: «**إنَّ من عبَاد اللَّه مَن لو أقسَمَ عَلَى اللَّه لأبرهُ**»[1].

فإن قيل: إن جماعة من الأولياء والصالحين دعوا وبالغوا ولم يجابوا! فالجواب: إن الإجابة تتنوع، فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور، وتارة يقع ولكن يتأخر لحكمة، وتارة قد تقع الإجابة ولكن بغير عين المطلوب، حيث لا يكون فى المطلوب مصلحة ناجزة، وفى الواقع مصلحة ناجزة أو أصلح منها.

وقوله: «**وما تردّدتُ عن شىءٍ أنا فاعلُه تردّدى عَن قَبضِ نَفسِ المؤمنِ، يكرَهُ الموتَ وأنا أكرَهُ مُسَاءَتَهُ**».

---

(١) **صحيح**: خ (٤٥٠٠/ ١٧٧/٨).
والأرش: دية العضو وسمى أَرْشاً لأنه من أسباب النزاع، يقال أرشت بين القوم إذا أوقعت بينهم.

المراد أن اللَّه قـضى على عبـاده بالموت، والموت هو مـفارقـة الروح الجسـد، ولا يحصل ذلك إلا بألم عظيم جـدًا، وهو أعظـم الآلام التى تصيب العبد فى الدنيا، فالعـبد يكره الموت لما فيه من المساءة، واللَّه يكره ما يكرهه العبد، ولكن قضى علـيه بالموت، فصار الموت مراداً للحق من وجه، ومكروهاً له من وجه.

وهذا حـقيـقـة التـردد، وهو أن يكون الشيء الواحـد مراداً من وجـه، مكروهاً من وجه، وإن كـان لابد من ترجيح أحد الجانبيـن كما ترجح إرادة الموت لكن مع وجود كراهة مساءة عبده...

وبعــد:

فالناس مع الأولياء ثلاثة أقسام: طرفان ووسط.

فالطـرف الأول أهل الإفراط الذين أفرطوا فى محبة الأولياءفأخرجوهم من البـشـرية وخلعوا علـيهم وصف الربـوبية والألوهيـة،ولذا تراهم حـول قبـورهم عاكفـين،بهم يستغـيثون،وإياهم يـدعون،لأنهم يعتـقدون أنهم فى الكون يتـــصـرفـون، فـهم فى اعـتـــقـادهم يعطون ويمنـعـون، ويعـزّون ويذلّون،ويولّون ويعزلون،وهم بذلك بالكفار متشبهون،حيث قالوا:
﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

وقـابل هذا الطرفَ **الطرفُ الثانى أهل التـفريط** فأنكروا الولاية والكرامة، وناصبـوا أهلها العـداوة، وسبّـوهم بقصد تـنفير الطرف الأول منـهم، حتى يرجعـوا عمـا وقعوا فـيه من الشـرك بسببـهم. والطرفان مـذموم، والوسط المحمود هو الإيمان بأن اللَّه ولىّ الذين آمنوا وهم أولياؤه، وأن اللَّه قد يجرى

على يد أحد أوليائه شيئاً من خوارق العادات، التى تعرف بالكرامات، لحكمة أرادها سبحانه وهو العليم الحكيم. وأن هؤلاء الأولياء لا يمكن لهم أبداً أن يخرجوا عن دائرة العبودية إلى مرتبة الألوهية، بل نقول فيهم ما قال اللَّه فى ملائكته:

﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

❊ ❊ ❊

الحديث الثالث

عَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ : وَاثُكْلَ أُمِّيَاه ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ ! فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي ، لَكِنِّي سَكَتُّ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّه ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّماً قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيماً مِنْهُ ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي ، قَالَ :

«إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرآن - أَوْ كما قَالَ رسول الله -.

قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَقَدْ جَاءَ الله بِالإِسْلاَمِ ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأْتُونَ الكُهَّانَ ؟

قَالَ : فَلاَ تَأْتِهِمْ . قال : وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ ؟

قال : ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلاَ يَصُدَّنَّكُمْ .

قَالَ : قُلْتُ : وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ ؟

قَالَ : كَانَ نَبِي مِنَ الأَنْبِياءِ يَخُطُّ ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاك .

قَالَ: وَكَانَتْ لِى جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَماً لِى قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجوَانِيَّةِ، فاطَّلَعْتُ ذَاتَ يوْمٍ فإِذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ بشاةٍ مِنْ غَنمِها وأنا رَجُلٌ مِنْ بَنِى آدمَ آسَفُ كَمَا يأْسَفُون، لَكنِّى صَكَكْتُها صَكَّةً، فأتيتُ رَسُولَ الله ﷺ فعَظُمَ ذلكَ عَلَىَّ. قُلْتُ: يا رَسُولَ الله أفلا أعْتقُها؟

قَالَ: ائتنى بِهَا، فأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: أيْنَ الله؟

قَالَتْ: فِى السَّمَاءِ. قالَ: مَنْ أَنَا؟ قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ الله ﷺ.

قَالَ: أعْتِقْهَا فإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[1].

كان الكلام فى الصلاة بغير أذكارها جائزاً حيناً من الدهر، فكانوا يدخلون علـى النـبىّ ﷺ وهو يصلّى فيسلّمـون عليه فيردّ عليـهم، وكانوا ربّما عطس أحدهم فى الصـلاة فيشمـتونه، وهكذا، فنهوا عن ذلك حـتى يتفرغـوا للصلاة فانتـهوا، كمـا صرّح بذلك زيد بن أرقم رضى اللَّه عنه قـال: «كنّا نتكلم فى الصلاة، يكلّم الرجلُ صاحبه وهو إلى جنبه فى الصلاة، حتى نزلت:

﴿وَقُـومُوا لِلَّهِ قَـانِتِـينَ﴾ [البـقـرة:٢٣٨] فـأُمـرنا بالسّكوت ونُهـينا عن الكلام»[2].

وعن عبد اللَّه بن مسعود رضى اللَّه عنه قال:

«كُنّا نسلِّم على رسـول اللَّه ﷺ وهو فى الصلاة فيـردّ علينا، فلما رجعنا

(١) صحيح: م (٥٣٧/ ٣٨١ و ٣٨٢/ ١)، د (٩١٨/ ١٩٨ - ٣/٢٠٣)، نس (١٤ - ٣/١٨)، وانظر شرح النووى (٢٠ - ٥/٢٥)..

(٢) متفق عليه: خ (١٢٠٠/ ٧٢) و(٣/٧٣)، م(٥٣٩/ ٣٨٣/ ١)، د(٩٣٦/ ٢٢٧/ ٣)، ت (٤٠٣/ ١/٢٥٢)، نس (٣/١٨).

من عند النجاشيّ سلّمنا عليه فلم يردّ علينا. فقلنا: يا رسول اللّه! كنا نسلّم عليك فى الصلاة فتردّ علينا؟ فقال: «**إنَّ فى الصلاةِ شُغلاً**»[1].

فجاء معاوية بن الحكم السلمى وهو حديث عهد بجاهلية لم يبلغه النهى عن الكلام فى الصلاة، فبينا هو يصلّى خلف رسول اللّه ﷺ فى الجماعة إذ عطس رجلٌ فشمّته، قال: يرحمك اللّه، فلفت أنظار المصلّين، فجعلوا ينظرون إليه: أن اسكت! فلم يفهم لماذا ينظرون إليه.

ثم قال: واثكل أمياه: الثكْلُ بوزن البُخْلُ، وهو فقدان المرأة ولدها، يقال: امرأة ثكلى وثاكل، فلما رأوه لم يفهم بالنظر جعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ليسكّتوه، وهذا الضرب محمول على ما قبل مشروعية التسبيح لمن نابه أمرٌ فى الصلاة، كما قال ﷺ:

«**من نابه شىء فى صلاته فليقل سبحان اللّه**»[2].

وفيه دليل على جواز الفعل فى الصلاة، وأنه لا تبطل به الصلاة ولا كراهة فيه إذا كان لحاجة.

فلما ضربوا على أفخاذهم لم يفهم أيضاً، ولكنه سكت.

فلما صلّى النبى ﷺ أقبل عليه وعلّمه وعرّفه ما يجوز فى الصلاة وما لا يجوز ،ولكنّ الرجلَ قبل أن يذكر ما قاله له رسول اللّه ﷺ يثنى على حسن خُلُقه أوّلاً ويمدحه فيقول: «فبأبى هو وأمى، أى: فداه أبى وأمى، ما

(١) متفق عليه :خ (٩٩٩/ ٧٢/ ٣)، م (٥٣٨/ ٣٨٢/ ١)، د (٩١١/ ١٩١ و ١٩٢/ ٣)، نس (٣/ ١٩).

(٢) متفق عليه :خ (١٢٣٤/ ١٠٧/ ٣)، نس (٧٧_٧٩ / ٢)، م (٤٢١/ ٣١٦/ ١) ،د (٩٢٨/ ٢١٦/ ٣)، وهذا التسبيح إنما هو خاص بالرجال ، أما المرأة إذا نابها شيء فى الصلاة فإنها تصفق ، لما فى الحديث نفسه « **إنما التصفيق للنساء** » .

رأيت معلّماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فواللَّه ما كهرنى ولا ضربنى ولا شتمنى».

وفيه بيان ما كان عليه النبى ﷺ من عظيم الخُلق، الذى شهد اللَّه له به.

وفيه بيان رفقه بالجاهل، ورأفته بأُمّته وشفقته عليهم، وفيه التّخلُق بخُلُقه ﷺ فى الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه، واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه.

فلما أثنى معاوية على رسول اللَّه ﷺ للطفه وحسن خُلقه ذكر ما قال له فقال: «**ثم قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**».

وهذا دليل على تحريم الكلام فى الصلاة بغير المشروع فيها، وأن الواجب فى حق المصلى إذا انتابه شىء فى صلاته أن يسبّح إن كان رجلاً، وأن تصفّق إن كانت امرأة. والنّاسى والجاهل يسبقه لسانه من غير قصدٍ لا يضرّه.

كأن يعطس رجلٌ فلا يشعر أحد المصلين إلا وقد قال له: يرحمك اللَّه. أو يدخل الداخل فيسلّم، فلا يشعر أحد المصلين إلا وهو يرد عليه السلام. ففى هاتين الحالتيْن يُعفى عن المصلى وتصحّ صلاته.

قال معاوية: «يا رسول اللَّه، إنى حديث عهدٍ بجاهلية»: المراد بها ما قبل ورود الشرع، سمّوا جاهلية لكثرة جهالاتهم وفحشهم. قال: «إن منّا رجالاً يأتون الكهان؟ قال: «**فلا تأتهم**».

قال العلماء: إنما نهى عن إتيان الكهان لأنهم يتكلمون فى مغيبات قد يصادف بعضها الإصابة فتُخاف الفتنة على الإنسان بسبب ذلك، لأنهم يلبّسون على الناس كثيراً من أمر الشرائع.

وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهى عن إتيان الكهان، وتصديقهم

فيما يقولون، وتحريم ما يعطون من الحلوان وهو حرام بإجماع المسلمين.

قال البغوى: اتفق أهل العلم علـى تحريم حلوان الكاهن، وهو ما يأخذه المتكهن على كهانته، لأن فعل الكهانة باطل لا يجوز أخذ الأجرة عليه.

وقال الخطابى: وحلوان العرّاف أيضاً حرام.

والفـرق بين العـرّاف والكاهن: أن الكاهن إنمـا يتعـاطى الأخـبـار عن الكوائن فى المستقبل، ويدّعى معرفة الأسرار. والعرّاف يتعاطى معرفة الشىء المسروق ومكان الضالة ونحوهما. وفى الحديث: «**من أتى كاهناً فصدّقه بما يقولُ فقد برئ مما أنزل اللّه على محمد ﷺ**»[1].

قال: كان فى العرب كهنة يدعون أنهم يعـرفون كثيراً من الأمور: فمنهم من يزعم أنه له رئياً من الجنّ يلـقى إليه الأخبار. ومنهم من يدعى اسـتدراك ذلك بفهمٍ أُعطيه. ومنـهم من يسمى عرّافاً، وهو الذى يزعم معـرفة الأمور بمقدمات أسباب اسـتدل بها، كمعرفة من سرق الشىء الفـلانى، ومعرفة من يتهم به المرأة، ونحـو ذلك. ومنهم من يسّمى المنجّمَ كاهناً. قـال: والحديث يشتمل على النهى عن إتيان هؤلاء كلهم والرجوع إلى قولهم وتصديقهم فيما يدعونه. قال معـاوية: «ومنا رجالٌ يتطيرون؟» قال: «**ذاك شىء يجـدونه فى صدورهم فلا يصدنكم**».

قال العلمـاء: معناه أن الطيـرة شىء تجدونه فى نفـوسكم ضرورة، ولا عـيب عليكم فى ذلك، فـإنه غيـر مكتـسب لكم فـلا تكليف به، ولكن لا

---

(١) صحـيح: د(٣٨٨٦/٣٩٨و٣٩٩/ ١٠) وهذا لفظه، ت (١٣٥/ ١/٩٠) جـه (١/٢٠٩/٦٣٩) وعندهما «فقد كفرن».

تمتنعوا بسببه من التصرف فى أموركم، فهذا هو الذى تقدرون عليه، وهو مكتسب لكم، فيقع به التكليف. فنهاهم ﷺ عن العمل بالطيرة والامتناع من تصرفاتهم بسببها.

والتطير معناه التشاؤم، وأصله الشيء المكروه من قول أو فعل أو مرئى، وكانوا يتطيرون بالطيور ينفرونها فإن أخذت ذات اليمين تبرّكوا ومضوا فى سفرهم وحوائجهم، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم وتشاءموا، فكانت تصدهم فى كثير من الأوقات عن مصالحهم، فنفى الشرع ذلك وأبطله، ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير بنفع ولا ضر، وهذا معنى قوله ﷺ: «**لا طِيرَةَ**». وفى حديث آخر: «**الطيرةُ شِرك**».

وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة فى النهى عن التطير، ومنها: «**لا عَدوى ولا هَامَةَ ولا طِيَرة، وأُحِبُّ الفألَ الصالحَ**»[١].

والمراد بالهامة: البومة، حيث يتشاءم بها الناس، ويعتقدون أنها إن نزلت على دار فقد نعت أحد أهلها، وهذا جهل وضلال. «**لا عَدوى ولا طِيرَةَ ولا غولَ**»[٢]. والغُول: ما كنا نسمعه قديماً من حكايات الغولة، وكيف تنادى على الناس وتخرجهم من بيوتهم، ثم تذهب بهم بعيداً وتضللهم، فقال ﷺ: «**لا غولَ**» أى: لا تستطيع الغول (وهى من جنس الشياطين) أن تضلَّ أحداً.

وقال ﷺ: «**ليس منا من تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تكهَّنَ أو تُكهِّن له، أو سحَرَ أو سُحِر له، وَمَن أَتَى كَاهِناً فصدَّقه بما يَقُولُ فَقَد كَفَرَ بما أُنزِلَ على مُحمَّد**»[٣].

---

(١) صحيح: م (٢٢٢٣/٧٤٦/٤).

(٢) صحيح: م (٢٢٢/١٧٤٤/٤).

(٣) حسن: بز (٣٠٤٤/٣٩٩/٣ و ٤٠٠/٣).

وقال ﷺ: «**من ردّته الطِّيَرَةُ عن حاجته فَقَد أشركَ**». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «**أن يقولَ: اللهمَّ لا خيرَ إلاّ خيرُك، ولا طيرَ إلاّ طيرُك، ولا إلَه غيرُك**»[١].

فتضمن الحديث أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى فى طريقه، وأما من لم يخلص توكله على اللَّه، واسترسل مع الشيطان فى ذلك فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره، لأنه أعرض عن واجب الإيمان باللَّه، وأن الخير كلّه بيده، فهو الذى يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته، وهو الذى يدفع عنه الضرّ وحده بقدرته ولطفه وإحسانه، فلا خير إلا منه، وهو الذى يدفع الشرّ عن عبده.

قال معاوية: «ومنا رجال يخطُّون» الخط: هو ضَرْبُ الرَّمْل، وهو أن يأتى الرجلُ العرّاف وبين يديه غلام، فيخط العرّافُ فى الأرض خطوطاً كثيرة بسرعة حتى لا يعرف عددها، ثم يرجع يمحوها على مهلٍ خطّين خطّين، والغلام يقول للتفاؤل: ابْنَىْ عِيانَ أشرِعا البيان، ثم ينظر ما بقى من الخطوط، فإن كان الباقى زوجاً فهو دليل الفلاح والظفر، وإن كان الباقى فرداً فهو دليل الخيبة واليأس.

قال النبى ﷺ: «**كانَ نَبىّ منَ الأنبياء يخطُّ، فمنْ وافَقَ خَطّه فذاكَ**» معناه: أن من وافق خطُّه خطَّ ذاك النبىّ أُبيح له أن يخط، وهيهات هيهات. وهذا كما يقال للعاجز يحسد القادرَ: إن استطعت أن تفعل مثله فافعل، ومعناه أنه لا يجوز الخطّ.

❊ ❊ ❊

(١) صحيح: أ (١٧/١٩٧/١٧٥).



الحديث الرابع

عَنْ أَبِى مَالِكٍ الأَشْعَرِىِّ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمانِ، وَالْحَمْدُ لله تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وسُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ للَّه تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَوات وَالأَرْضِ، والصَّلاَةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، والصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَه فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»[1].

هذا حديثٌ عظيم، وأصلٌ من أصول الدين، وقد اشتمل على قواعد مهمة من قواعد الإسلام. والمراد بالطهور الوضوء، كما صرَّحت بذلك رواية أخرى. والمراد بالشطر النصف. وقد اختلف فى المراد بقوله ﷺ: «**الطُّهُور شطرُ الإيمانِ**» فقيل: معناه: أن الأجر فيه ينتهى تضعيفه إلى نصف أجر الإيمان.

وقيل: إن الإيمان يَجُبُّ ما قبله من الخطايا وكذلك الوضوء.

وقيل: المراد بالإيمان هنا الصلاة، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ [البقرة: ١٤٣]

---

(١) صحيح: م (٢٢٣/٢٠٣/١) وهذا لفظه، ت (٣٥٨٣/١٩٦ و ١٩٧/٥) وأوله «الوضوء»، ونس (٥/٦/٥) وأوله «إسباغ الوضوء»، وانظر شرح النووى له.

أى صلاتكم جـهة المسجـد الأقصى قبـل أن يؤمروا باستـقبال الكعـبة. والطهارة شرط فى صحة الصلاة فصارت كالشطر، وليس يلزم فى الشطر أن يكون نصفاً حقيقيًّا. وهذا القول هو الأقرب للصواب.

وإذا كان الوضوء نصف الصلاة أو الطهور شطر الإيمان، تعيّن على كل مسلم أن يُعنى بالوضوء عناية تامة وأن يسبـغه إسباغاً، ولا يمكن للمسلم أن يسبغ الوضوء إلا إذا توضأ نحواً من وضوء النبى ﷺ.

لذا من باب التذكير نذكِّر بصفة وضوء رسول اللَّه ﷺ كما نقلت عنه فى مجموعة من الأحاديث.

فإذا قمت إلى الوضوء أيها المسلم فقل: بسم اللَّه، ثم تسوّك، ثم اغسل كفيك ثلاثاً، وخلّل بين أصابعـهما، وتعاهد ما تحت الأظافر فلا تتـرك تحتها وسخاً (ويجب على المرأة المسلمـة أن تعلم أن الوضوء لا يصح مع هذه المادة التى تصبغ بها بعض النســاء أظافرهن والمسماة بالمناكير، فـهذه المادة لها جرم يلصق بالظفر، ويمنع وصول الماء إليه، فـإذا صبغت المرأة أظافرها بهذه المادة فإن وضوءها لا يصح).

ثم تمضـمض واستنشق ثلاث مـرات بثلاث غـرفات، فذلك أفـضل من الفصل بين المضـمضة والاستنشـاق، وإفراد كل منهما بثـلاث غرفات. وإذا استنشقت فاستنثر، والاستنثار هو إخراج الماء الذى دخل الأنف بالاستنشاق، ويكون باليد اليسرى.

ثم اغسل وجـهك ثلاثاً، من منبت الشعر إلى أسـفل الذقن طولاً، وما بين الأذنين عرضاً، ثم خذ غرفة من ماء وخلّل بها لحيتك.

ثم اغـسل يدك اليمنى ثلاثـاً، من رءوس الأصابع إلى فـوق المرفق، ثم

اغسل اليسرى مثل ذلك.

ثم امسح رأسك بيديك جميعاً، ثم أدخل السبابتين فى الأذنين، واجعل الإبهامين خلف الأذنين، ثم أدر أصبعيك فى أذنيك، من أسفل منهما إلى أعلاهما، وذلك مرة واحدة، ومن السنة تكرار المسح أحياناً.

ثم اغسل رجلك اليمنى ثلاثاً من رءوس الأصابع إلى الكعبين، ثم رجلك اليسرى كذلك، وخلّل أصابعهما، وتعاهد الأظافر كما تعاهدتها فى أصابع اليدين. فإن كنت قد لبست جورباً على وضوء فإنه يجوز لك المسح عليه يوماً وليلة، تحسب من أول مسحة تمسحها.

فإذا فرغت فقل: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وفى فضل إسباغ الوضوء وردت أحاديث كثيرة منها:

عن عثمان رضى اللَّه عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ما من امرئٍ مُسلم تحضُره صلاةٌ مكتوبةٌ فيحسنُ وضوءَها وخُشُوعَها ورُكُوعَهَا إلا كانتْ كَفارةً لما قَبلَهَا من الذُّنوبِ مَا لم يُؤْت كَبيرة، وذلكَ الدهرَ كُلَّه**»[١].

وأما قوله ﷺ: «**والحمدُ للَّه تملأُ الميزَانَ**» فمعناه: أن ثواب كلمة الحمد للَّه ثواب عظيم جدًّا، حتى إنه ليملأ الميزان يوم القيامة.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على وزن الأعمال يوم القيامة وثقل الميزان وخفته.

---

(١) صحيح: م(٢٢٨/ ٢٠٦/١).

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

وقال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]

وهناك فريق ثالث تستوى حسناته وسيئاته، فلا تثقل هذه ولا تلك، وهؤلاء يوقفهم اللَّه تعالى على سور بين الجنة والنار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة قالوا: سلام عليكم، ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

ثم بعد حين يأذن اللَّه لهم فى دخول الجنة. ومن هنا ينبغى لكل مسلم أن لا يستقل شيئاً من الخير، فربما كانت الحسنة التى ستترتب عليه هى التى يثقل بها الميزان يوم القيامة. كما لا يجوز أن يستهين بشىء من الشرّ، فربما كانت السيئة المترتبة عليه هى سبب خفة الميزان يوم القيامة. فلا تحقرن من المعروف شيئاً، ولا تحقرن من المنكر شيئاً، فإن اللَّه يقول حكاية عن لقمان أنه قال لابنه وهو يعظه: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

وقد اختلف العلماء فيما يوزن يوم القيامة على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الموزون صحائف الأعمال.

والثانى: أن الموزون هو الأعمال نفسها.

والثالث: أن الموزون هو العامل نفسه.

والصحيح أنه لا تعارض بين هذه الأقوال، وأن الأعمال وصحائفها

وعاملها كلٌّ يوزن.

فمن ثواب كلمة «**الحمد للَّه**» أنها تملأ الميزان يوم القيامة، لأنها كلمة أحبّها اللَّه تعالى وأحبّ أن يسمعها من عباده، ولذا حمد سبحانه نفسه قبل أن يحمده عباده فقال: ﴿**الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢] فهو الحميد فى ذاته وإن لم يحمده عباده. فعليك - يا عبد اللَّه - بالحمد للَّه، فى السراء والضراء، فإن «**الحمد للَّه تملأ الميزان**».

وأما قوله ﷺ: «**وسبحان اللَّه والحمد للَّه تملآن - أو تملأ - ما بين السموات والأرض**» فالمراد به: أن ثواب هاتين الكلمتين سبحان اللَّه والحمد للَّه لو قُدّر جسماً لملأ ما بين السموات والأرض.

اللَّه أكبر ما هذا الفضل وما هذا الإحسان؟! أن يقول المسلم سبحان اللَّه والحمد للَّه فيعطى من الثواب ما لو قُدّر جسما لملأ ما بين السموات والأرض. والسبب فى ذلك أن هاتين الكلمتين كلمتان عظيمتان وذلك لما اشتملتا عليه من التنزيه للَّه تبارك وتعالى فى الأولى، والتفويض والافتقار إليه فى الثانية.

فقولك سبحان اللَّه! تنزيه للَّه تبارك وتعالى عن النقائص والمعايب، وقولك الحمد للَّه! تفويض منك إلى اللَّه تعالى فى كل الأمور.

وأما قوله ﷺ: «**والصلاة نور**» فقد قيل: معناه أن الصلاة تمنع من المعاصى وتأمر بالخير، وتنهى عن الشر، وتهدى إلى الصواب، فالصلاة يستضىء العبد بها، ويرى بها الطريق، كما يستضىء بالضياء وبالنور، فالصلاة نور.

وقيل: معناه أن الصلاة تكون نوراً حقيقيًّا فى وجه صاحبها يوم القيامة

كما تكون فى الدنيا فى وجهه بهاءً وضـياءً وجمالاً. وهذه حقيقة يراها أهل الفراسة من أهل الإيمان فى وجوه أهل الصـلاة، ويفقدونها فى وجوه تاركى الصـلاة. وهذا النور الذى يكون فى الوجه بسـبب الصلاة هو السـيمـا التى قال اللَّه تعالى فيها: ﴿**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ [الفتح: ٢٩]

ولذا قـال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حَـسُنَ وجهُه بالنهار. وقال بـعضـهم: إن للطاعة ضـياء فى القلب،ونوراً فى الوجـه، وسعـة فى الرزق، ومحبة فى قلوب العباد.

فـحـافظوا رحمـكم اللَّه على الصـلاة حـتى تكون لكم نوراً فى الدنيـا والآخرة.

وأما قوله ﷺ: «**والصدقـة برهان**» فمعناه أن العبد يوم القيامة يفزع إلى الصدقة كما يفزع إلى البراهين والحجج، فإذا سئل عن ماله يوم القيامة قال: تصدقت به. ويجوز أن يجعل للمتصدقين سيمًا يستدل بها على صدقتهم فلا يسألون عن مصرف أموالهم.

وقيل: معناه أن الصـدقة دليل على صدق إيمان العبد، فـلا يتصدق إلا مؤمن صادق الإيمـان، وأما المنافق الذى أظهر الإسلام وأبطن الـكفر فإنه لا يتصدق لأنه لا يعتقد بقلبه أن اللَّه يخلف عليه فى الدنيا، ويثيبه فى الآخرة.

وأما قـوله ﷺ: «**والصبـر ضياء**» فمعناه أن الصبـر محمود دائماً، وأن الصابر يمشى فى ضياء الصبر كما يمشى فى ضياء الشمس ونور القمر.

قال إبراهيم الخواص: الصبر هو الثبات على الكتاب والسنة.

وما أحوجنا فى هذه الأيام إلى هذا الـصبر! ما أحوجنا إلى الاستـمساك

بالكتاب والسنة! فقد قلّ أهل السنة فى المسلمين، وصاروا فى المسلمين كالمسلمين فى غير المسلمين.

وقال ابن عطاء:

الصبر هو الأدب مع القضاء، فلا فزع، ولا جزع، ولا شكوى ولا سخط، ولا ضرب خد، ولا شق جيب، ولا نثر شعر. وإنما صبر واحتساب، ورضا بالقضاء ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] .

«إن للَّه ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى»[(١)] .

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] .

ومن المهم أن يُعلم أنه لا ينافى الصبر ذكر المريض ما به من مرض للطبيب، أو لإخوانه وزُوّاره، ما دام ليس على سبيل الشكاية والاعتراض. فإن اللَّه تعالى قال عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] .

مع أنه قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] .

فالشكوى إلى اللَّه إذا كانت مع الاستسلام والرضا والتفويض للَّه عز وجل لا تنافى الصبر، وكذلك ذكر العلة للطبيب والإخوان ما دام هناك رضا بقضاء اللَّه عز وجل.

وقوله ﷺ: «والقرآنُ حجَّة لكَ أو عَليكَ» معناه ظاهر، أى أنك يا قارئ القرآن تنتفع به ويشفع لك يوم القيامة إذا تلوته حق تلاوته، أى قرأته واتبعته. وأما إذا قرأته بلسانك ولم تعمل به كان حجة عليك يوم القيامة.

---

(١) متفق عليه: خ (١٢٨٤/١٥١/٣)، م (٩٢٣/٦٣٥ ، ٢/٦٣٦)، د (٣١٠٩/٣٩٦ ، ٨/٣٩٧)، جه (١٥٨٨/١٥٠٦/١).

فالواجب على قارئ القرآن أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقف عند حدوده والواجب على قارئ القرآن أن يتخلق بأخلاقه، ويتأدب بآدابه.

والواجب على قارئ القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون. وأن يُعرف بنهاره إذ الناس مفطرون. وأن يعرف بحزنه إذ الناس يفرحون. وأن يعرف بصمته إذ الناس يخوضون. وأن يُعرف بخشوعه إذ الناس يختالون. ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غالياً ولا صخاباً ولا حديداً.

وهنا أمر لابد من التنبيه عليه، وهو شبهة تعترض كثيراً من الناس، وهي أنه ربما يهم أحدهم بحفظ القرآن فيأتيه الشيطان ويقول له: لا تحفظ القرآن، خشية أن لا تعمل به، فيكون حجة عليك! فيرجع عن همه بسبب هذه الشبهة التي عرضت له، وقد سئل أبو ذر رضي اللَّه عنه عن هذا، فقيل له: يا أبا ذر! إني أريد أن أحفظ القرآن، وأخاف أن أضيعه!

فقال أبو ذر رضي اللَّه عنه: كفى بتركك له تضييعاً!!

عليك أن تقرأ، وعليك أن تحفظ، ثم عليك أن تستعين باللَّه عز وجل على العمل، وإن تصدق اللَّه يصدقك.

وعليك أن تعلم أن كل مسلم مسئول عن القرآن والعمل به، قرأه أم لم يقرأه، حفظه أم لم يحفظه، ولا يعفيك من السؤال أن لا تكون قارئًا، ولا يعفيك من السؤال أن لا تكون حافظاً، فالعقل إذن يقتضي أن تجتهد في قراءة القرآن، فإن قراءة القرآن قُربة من أعظم القُرب، وعبادة من أجلّ العبادات، يعطي اللَّه تبارك وتعالى عليها من الأجر والثواب ما لا يعطي على غيرها، وقد بين النبي ﷺ كثرة هذا الأجر بقوله:

«مَن قَرأ حَرفاً من كتابِ اللَّه فلهُ به حَسَنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقولُ الم

حرفٌ، ولكن ألفٌ حَرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ»[١] .

وعليك أن تجتهد فى حفظ القرآن، فإنك ستتبوأ منزلتك فى الجنة يوم القيامة على قدر ما فى صدرك من القرآن، كما قال النبى ﷺ :

«يُقَالُ لقارئ القرآن: اقرأ وارقَ، ورتِّل كما كنتَ تُرَتلُ فى الدُّنيا، فإنَّ مَنزلَتكَ عندَ آخرِ آية تَقرَؤُها»[٢] .

فاقرءوا القرآن يا أهل القرآن! واحفظوا القرآن يا أهل القرآن! **«فإنَّ للَّه تعالى أهلينَ منَ الناسِ»** .

قيل: من هم يا رسول اللَّه؟

قال: **«أهلُ القرآنِ هُم أهلُ اللَّه وخَاصَّتُه»**[٣] .

وقوله ﷺ: **«كلُّ الناسِ يغدُو: فبائعٌ نفسَه فمُعتقُها، أو مُوبقُها»** معناه: كل الناس يسعى: فبائع نفسه للَّه، بطاعة اللَّه عز وجل، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، فمعتق نفسه من عذاب اللَّه عز وجل.

وبائع نفسه للشيطان والهوى باتباعهما ومعصية اللَّه تبارك وتعالى فموبقها أى مهلكها.

ولك أن تعتبر هذه الحال بساعة الصباح: حين تنظر فترى كل الناس نافرين من البيوت: هذا إلى مدرسته، وهذا إلى مصنعه، وهذا إلى متجره، وهذا إلى مزرعته، وهكذا، فتأمل فى الناس، وقل فى نفسك: سبحان اللَّه! تُرى مَنْ من هؤلاء سيعود آخر النهار وقد كسب خيراً؟ ومَنْ من هؤلاء

---

(١) صحيح: ت (٣٠٧٥/ ٢٤٨/ ٤).

(٢) صحيح: ت (٣٠٨١/ ٢٥٠/ ٤)، د (١٤٥١/ ٣٣٨/ ٤).

(٣) صحيح: جه (٢١٥/ ٧٨/ ١).

سيعود آخر النهار وقد اكتسب شرًّا؟ واقرأ فى نفسك قول اللَّه:
﴿ من عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]

ولو أن الناس حاسبوا أنفسهم على ما يكسبون من الخير والشر كما يحاسبون أنفسهم على ما يكسبون من المال لتغير الحال إلى الأحسن إن شاء اللَّه، ولكن جُلّ الناس اهتموا بالمحاسبة على الأموال وأهملوا المحاسبة على الأعمال، مع أن اللَّه تبارك وتعالى أمرنا بمحاسبة أنفسنا على الأعمال فقال:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

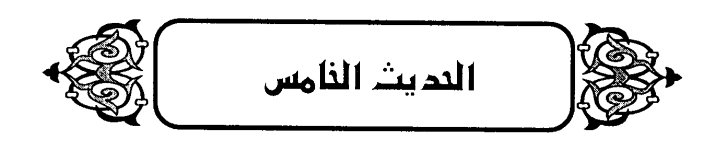
يعنى: وسيحاسبكم عليها، ويجزيكم بها.

قال عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه:

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتجهزوا للعرض الأكبر:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨]

* * *



عَنْ عُبادةَ بن الصَّامت رَضِىَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:

«خَمْسُ صَلَوات كَتَبهنّ الله على العِباد، مَنْ أتى بِهنّ لَمْ يضيّعْ منهُنّ شيئاً استخْفَافاً بحقهنّ كَانَ لَهُ عنْدَ الله عَهْدٌ أَنْ يُدخله الجنةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْت بهِنّ لَمْ يكُنْ لَهُ عنْدَ الله عهدٌ، إنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وإنْ شَاءَ غَفَر لَهُ»[1].

إنَّ للصلاة فى الإسلام منزلة لا تعدلُها منزلةُ أية عبادة أخرى، فهى عمود الدّين، كما جاء فى الحديث عن النبى ﷺ: «**رأسُ الأمر الإسلامُ، وعمودهُ الصلاةُ، وذروةُ سنامه الجهادُ**»[2].

وهى أوَّل ما فرض اللَّه تعالى من العبادات، فرضَها بمخاطبة رسوله من غير واسطة، ليلةَ المعراجِ وكانت خمسين، فما زال رسول اللَّه ﷺ يسألُ ربَّه التخفيفَ، حتى قال تعالى: ﴿ **مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ [ق: ٢٩].

---

(١) صحيح: ما (٢٦٦/ ٩٠)، أ (٨٢/ ٢٣٤/ ٢)، د (٤٢١/ ٩٣/ ٢)، جه (١٤٠١/ ١٩٩/ ١)، نس (١/ ٢٣٠).

(٢) صحيح: ت (٢٧٤٩/ ١٢٤/ ٤).

هى خمسٌ فى العمل وخمسون فى الأجر والثواب(١).

وهى أوَّل ما يحـاسبُ عليه العبـدُ يومَ القيـامةِ، فإن صلحت فـقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خابَ وخسـر، كما جاء فى الحديث عن رسول اللَّه ﷺ(٢). وهى آخر وصـية وصَّى بهـا رسول اللَّه ﷺ، وهو فى مـرض مـوته جعل يقول: «**الصلاةَ الصلاةَ، وما ملكتْ أيمانكم**»(٣).

وقد أمر اللَّه تـعالى بالمحافظة عليهـا، فقال: ﴿ **حَـافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ومدح اللَّه الذين هـم على صلواتهم يحافظون، ووعَـدَهم الفردوس، أعلى درجات الجنة، فقـال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٩-١١].

وكـمـا مـدح الذين هـم على صلواتهم يحـافظـون، ذمّ الذين هم عن صلاتهم ساهون، فـقال تعالى﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾ [مريم: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾

[الماعون: ٤-٦].

وقال تعالى: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي**

---

(١) هذا معنى حديث رواه الترمذى هكذا مختصرا (٢١٣/١٣٧/١)، ورواه مطولا: خ (٣٢٠٧/٣٠٢/٦)، م (١٦٢/١٤٥/١)، نس (٢١٧/١).

(٢) صحيح: ت (٤١١/٢٥٨/١)، نس (٢٣٢/١).

(٣) صحيح: جه (١٦٢٥/٥١٩/١).

جنَّات يتساءلون (٤٠) عن المجرمين (٤١) ما سلككم في سقر (٤٢) قالوا لم نك من المصلين ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٨] الآيات.

ولقد أمر اللَّه تعالى بالصلاة فى الحضر والسفر، والخوف والأمن، فقال تعالى: ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين (٢٣٨) فإن خفتم فرجالاً أو ركبانًا فإذا أمنتم فاذكروا اللَّه كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩].

وقال تعالى مبيِّناً صفة الصلاة فى الخوف:

﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ﴾ [النساء: ١٠٢] الآية.

ولقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة أن رخّص فيها ما لم يرخّص فى غيرها، حتى لا يبقى عذرٌ لمعتذر، يعتذرُ به عن عدم إقامتها.

فرخّص لمن فقد الماء أو عجز عن استعماله أن يتيمم، كما رخص لمن فقد الماءَ والترابَ أن يصلّى على حسب حاله من غير وضوء ولا تيمم، قال تعالى: ﴿فلم تجدوا ماءً فتيمَّموا﴾ [النساء: ٤٣].

ورخّص لمن عجز عن القيام فى الصلاة أن يصلّى قاعداً، فإن عجز عن القعود صلّى على جنب. كما جاء عن عمران بن حصين أنه كانت به بواسيرٌ، فسأل رسول اللَّه ﷺ كيف يصلّى؟ فقال: «**صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[1].

وهذه الرُّخص يجبُ على المسلمين أن يتعلّموها ويعلّموها، فإنَّ كثيراً من

(١) صحيح: خ (٢/٥٨٧/١١١٧)، د (٣/٢٣٣/٩٣٩)، ت (١/٢٣١/٣٦٩)، جه (١/٣٨٦/١٢٢٣)

المرضى، إذا ناموا فى فراشِ المرض تركوا الصلاة، معتذرين بأنهم لا يقدرون على الطهارة، لا يقدرون على القيام، لا يقدرون على استقبال القبلة، ونحو ذلك من الأعـذار، ولهـؤلاء نقـول: تعلّمـوا هذه الـرخصَ التى ذكـرناها، واعلموا أنه ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد قال تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن:١٦].

وقال النبى ﷺ: «**ما أمرتُكُم بِأَمرٍ فأتُوا منهُ مَا استَطَعْتُـم**»(١).

و﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِين**﴾ [البقرة ٢٣٨].

واعلموا أن اللَّه تعالى ما فرض عليكم الصلاة إلا لما لكم فيها من الخير:

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما صرح بذلك القرآن الكريم(٢).

والصلاةُ تطهّـر المصلّى من الأخلاق الدنيئـة، والصفات القـبيحـة، قال تعـالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾ [المعارج: ١٩-٢٣].

والصلاة تعينُ على أمور الدين والدنيا، قال تعالى:

﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾ [البقرة: ١٥٣]

والصـلاة صلةٌ بين المصلِّى وربِّه، يُناجى اللَّه ويناجـيه اللَّهُ، كـما جـاء فى الحـديث عن النبى ﷺ أنّ اللَّه عـز وجل قال: **قسـمتُ الصلاةَ بينى وبَينَ عَـبدِى نصفين، ولِعَبدِى مَا سَأَلَ، فإذَا قَالَ: الحمدُ للَّه رَبِّ العَالَمينَ. قال اللَّهُ: حَمِدَنى عَبدِى.**

---

(١) صحيح: م (١٣٣٧/ ٩٧٥/ ٢)، نس (١١٠/ ٥).

(٢) العنكبوت : ٤٥

وإذا قالَ: الرحمن الرحيم.

قالَ اللَّهُ: أثْنَى عليَّ عبدى، فإذا قَالَ: مَالك يوم الدِّين. قَالَ اللَّهُ: مَجّدنى عَبدى. أو قَالَ مَرة: فوّضَ إليَّ عَبدى.

فإذا قالَ: إيَّاكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ. قالَ اللَّهُ: هذا بينى وبين عَبدى، ولعَبدى مَا سألَ فإذا قَالَ: اهدنَا الصراطَ المستقيمَ. صراطَ الذينَ أنعمتَ عَليهم غير المغضُوبِ عَليهم ولا الضَّالِّينَ قالَ اللَّهُ: هَذا لعَبدى، ولعَبدى مَا سَألَ»[1].

فأىّ شرفٍ لك أيها المسلم بعد هذا الشرف، وأىُّ فخرٍ بعد هذا الفخر! أن تقوم بين يدى الملك الكبير المتعال، تناجيه ويناجيك، هو سبحانه فوق عرشه، كما أخبر عن نفسه[2]، وأنت قائمٌ فى محرابك، تسألهُ فيعطيك، وتدعوه فيجيبك. فحافظ يا عبد اللَّه على الصلاة، فإنها خيرأعمالك، واعلم أن الصلاة تمحو الذنوب والخطايا كما يمحو الماء وسخَ الثوب والبدن، كما جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: « **الصَّلَواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضانَ، مُكَفِّراتٌ لما بَينَهُنّ إذا اجْتُنِبَت الكبَائر** »[3].

وقال ﷺ: « **أرأيتُم لَو أنّ نَهراً ببَاب أحَدكُم يَغْتَسِلُ فيه كلَّ يومٍ خَمسَ مَرَّات، هَل يُبقى من دَرَنه؟ قَالُوا: لا يُبقِى من دَرَنه شيئاً. قالَ: فَذَلكَ مثلُ الصلواتِ الخمسِ يمحُو اللَّه بِهِنَّ الخَطَايَا»**[4].

---

(١) صحيح: م (٣٩٥/ ٢٩٦/ ١)، د (٨٠٦/ ٣٨/ ٣)، ت (٤٠٢٧/ ٢٦٩/ ٤)، نس (١٣٥/ ٢).

(٢) فى سبع سور: الأعراف: ٥٤، يونس: ٣، الرعد: ٢، طه: ٥، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤، الحديد: ٤، فالواجب الإيمان بما أخبر الله عن نفسه من غير تحريف ولا تكييف، ولا تعطيل ولا تمثيل، كما قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

(٣) صحيح: م (٢٣٣/ ١٦/ ٢٠٩/ ١).

(٤) متفق عليه: خ (٥٢٨/ ١١/ ٢)، م (٦٦٧/ ٤٦٢/ ١)، ت (٣٠٢٨/ ٢٢٨/ ٤)، نس (٢٣١/ ١).

على من تجب الصلاة ؟

تجب الصلاةُ على كلّ مسلمٍ، بالغٍ، عاقلٍ. ويجبُ على أولياء الأمور أن يأمروا بها صبيانهم، وإن كانت غير واجبة عليهم، ليتعوَّدوا المحافظة عليها، لقوله ﷺ: «**مُرُوا أولادَكم بالصلاة وَهُم أبناءُ سَبع سنينَ، واضْرِبُوهُم عَلَيها وهُم أبناءُ عَشر، وفَرِّقُوا بينهُم فى المَضَاجِع**»[١].

حكم تارك الصلاة:

قال ﷺ: «**العهدُ الذى بَيننا وبَينَهُم الصلاةُ، فَمَن تَركَها فَقَد كَفَر**»[٢].

وقال ﷺ: «**إن بينَ الرَّجُلِ وبَينَ الشِّرك والكُفرِ تَركُ الصَّلاةِ**»[٣].

حمل نفرٌ من العلماء الكفر المذكور فى الحديثين على أنه الكفر الأكبرُ المخرجُ عن الملة، وقالوا: من ترك الصلاة فقد كفر، وخرجَ عن الإسلام، إذا مات على ذلك عومل معاملة الكافر الأصلىّ، فلا يُغسّل، ولا يُصلَّى عليه، ولا يُدفن فى مقابر المسلمين، ولا يرثه المسلمون.

والأرجح ما ذهب إليه جمهورُ العلماء: أنّه يفرّق بين الجاحد والمتهاون، فالجاحدُ لفرضية الصلاة كافرٌ بإجماع المسلمين، وأما المتهاون بها، وهو يعتقدُ فرضيتها، ويقرّ بتقصيره وذنبه فهذا يُسمى كافراً، كما سمّاه النبى ﷺ، ولكن كفرٌ أصغرٌ لا يخرجه عن الملّة، جمعاً بين هذه الأحاديث وأحاديث أخر، منها:

عن عبادة بن الصامت رضى اللَّه عنه قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ

(١) حسن صحيح: د (٤٩١/١٦٢/٢).
(٢) صحيح: جه(١٠٧٩/٣٤٢/١)، ت(٢٧٥٦/١٢٦/٤)، نس(٢٣١/١)
(٣) صحيح: م(٨٢/ ١٨٨/ ١)وهذا لفظه، (٤٦٥٣/٤٣٦/١٢)، ت(٢٧٥١/١٢٥/٤)، جه (١٠٧٨/ ٣٤٢/١)

يقـول: «**خَمسُ صلوات كتبهنّ اللَّه عَلَى العباد، مَن أتَى بهنّ لم يُضيّع منهُنّ شيئاً، استخْفَافاً بحَقّهنّ كانَ له عندَ اللَّه عَـهدٌ أن يدخلَهُ الجنةَ، ومَن لم يأت بِهنّ فليسَ لهُ عندَ اللَّه عهدٌ، إن شاءَ عذَّبهُ وإن شاءَ غَفَرَ لَهُ**»(١).

فلما ردّ رسـول اللَّه ﷺ أمرَ من لم يأتِ بهنّ إلى مشـيئة اللَّه، علمنا أن تركهنّ دون الكفر والشرك، لأن اللَّه قال:

﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨].

وعن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول:

«**إنَّ أوَّلَ ما يُحاسبُ به العبدُ المسلمُ يومَ القيامة الصَّلاةُ المكتوبةُ، فإنْ أتمّها وإلاَّ قيلَ: انظُروا: هَل لـهُ من تطوعٍ، فَإنْ كَانَ لَهُ تطوُّعٌ أكـملَتُ الفريضَـةُ من تَطوُّعه، ثُم يُفعَلُ بسَائرِ الأعمَالِ المَفرُوضَةِ مثلُ ذَلكَ**»(٢).

فلما كان النقص فى الفـرائض يكمّل من النوافل، دل على أن الترك مع الاعتقاد ليس كفراً أكبر، لأن الكافر لا يقبل منه عمل.

وعن حذيفة بن اليمـان قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يَدرُسُ الإسلامُ كـما يَدرسُ وشيُ الثـوب حـتى لا يُدرى مـا صـيـامٌ ولا صـلاةٌ ولا نسكٌ ولا صـدقـةٌ، وليُسرَى على كتـاب اللَّه عز وجل فى ليلة، فلا يَبـقى فى الأرض منه آيةٌ، وتبـقى طوائفُ من الناس، الشيخُ الكبيرُ والعـجوزُ، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلاَّ اللَّهُ، فنحنُ نَقُـولُهـا**». فقال له صـلة: ما تغنى عنهم لا إله إلا اللَّه، وهم لا يدرون مـا صـلاةٌ ولا صيـامٌ ولا نسكٌ ولا صـدقةٌ؟ فـأعـرض عنه حذيفـة، ثم ردَّها عليه ثلاثـاً. كلُّ ذلك يعرض عنه حـذيفة. ثم أقبـل عليه

(١) صحيح: ما (٢٦٦/ ٩٠)، أ (٨٢/ ٢٣٤/ ٢)، د (٤٢١/ ٩٣/ ٢)، جه (١٤٠١/ ١٩٩/ ١)، نس (٢٣٠/ ١)

(٢) سبق. ص٣٦

الثالثة فقال: يا صلةُ تنجيهم من النار. ثلاثاً[١].

ولعل هؤلاء هم المرادون فى قول النبى ﷺ فى حديث الشفاعة:

«ثم أَرجعُ إلى ربِّى فى الرابعة، فأحمَدُه بتلك المحامد، ثم أَخرّ له ساجداً، فيُقالُ لى: يا مُحمدُ ارفَع رَأسَكَ، وقُل يسمَع لك، وسَل تُعط، واشفع تُشَفَّع. فأقول: يارب! ائذن لى فيمن قالَ: لا إلهَ إلا اللَّه. قالَ: لَيسَ ذَاكَ لَكَ. ولَكن وَعِزَّتى وكِبرِيَائى وعَظَمَتى وجبريائى، لأُخرِجنّ من قال: لا إله إلا اللَّه»[٢].

● تحذير:

ولكن مع قولنا بأن المتهاون بالصلاة لا يخرج عن الإسلام، إلا أنه حسبُه أن يسمى كافراً، وكفى بهذه التسمية زاجراً، فعلى المتهاون بالصلاة أن يبادر بالتوبة إلى اللَّه، وأن يحافظ على الصلاة، فالموت يأتى بغتة:

وكم من صحيحٍ مات من غير علةٍ وكم من عليلٍ عاش حيناً من الدهر

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

* * *

---

(١) صحيح: جه (٤٠٤٩/١٣٤٤/٢).

(٢) صحيح: م (١٩٣ - ٣٢٦ - /١٨٢/١).



الحديث السادس

عنْ أبي مُوسى الأشْعريّ رضيَ اللَّهُ عنْهُ قالَ: قال رسُولُ الله ﷺ:

«إنَّ الله تعالى يبْعثُ الأيَّامَ يومَ الْقيامَة علَى هيْئتها، ويبْعثُ الْجُمُعَةَ زهْراءَ مُنيرَةً، أهْلُها يَحُفُّونَ بها كالْعرُوس تُهْدى إلى كريمها، تُضيءُ لهُمْ، يَمْشُونَ في ضوئها، ألوانهم كالثَّلج بياضاً، وريحُهُمْ يسْطعُ كالْمسْك، يَخُوضُونَ في جبال الكافُور، ينْظُر إليْهمُ الثَّقلان ما يطْرُقُونَ تعجُّباً، لا يُخالطُهُمْ أحدٌ إلاَّ الْمؤذِّنُونَ الْمحْتسبُونَ»[1].

هذا حديث عظيم في فضل يوم الجمعة وفضل أهلها الذين يحافظون عليها ويتأدبون بآدابها.

ولقد جاء في فضل يوم الجمعة أحاديث كثيرة، منها: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ، مكفراتٌ لما بينَهُنّ إذا اجتُنبَت الكبائرُ»[2].

«خيرُ يومٍ طَلَعَت فيه الشمسُ يومُ الجُمُعَةِ، فيه خُلق آدمُ، وفيه أُدخل الجنةَ، وفيه

---

(١) صحيح: كم (١/٢٧٧).

(٢) صحيح: م (٢٣٣ -١٦- /١/٢٠٩).

أُخرج منها، ولا تَقُومُ الساعةُ إلا فى يوم الجُمُعَة»[١].

«إنَّ يومَ الجمعة سيِّدُ الأيام وأعظمُها عند اللَّه، وهُوَ أعظمُ عندَ اللَّه من يومِ الأضحَى ويوم الفطر، فيه خَمسُ خلال: خَلَق اللَّهُ فيه آدمَ، وأهبطَ اللَّهُ فيه آدمَ إلى الأرض، وفيه تَوَفَّى اللَّهُ آدمَ، وفيه ساعةٌ لا يسألُ اللَّهَ فيها العبدُ شيئاً إلا أعطاه، ما لم يسأل حراماً، وفيه تقومُ السَّاعَةُ. ما من مَلَك مقرّب ولا سماءٍ ولا أرضٍ ولا رياحٍ ولا جبالٍ ولا بحرٍ إلا وَهُنّ يُشْفِقْن من يَوم الجُمُعَة»[٢].

«إن فى الجُمُعَة لساعةً لا يُوافقُهَا عبدٌ مُسلمٌ وهُوَ قَائمٌ يُصَلى يَسألُ اللَّه شَيئاً إلا أعطاهُ إياهُ، وقَالَ بيَده يُقلّلها»[٣].

«ما من مسلمٍ يَموتُ يَومَ الجُمُعَة أو ليلةَ الجمعة إلا وقَاهُ اللَّه فتنةَ القبر»[٤].

ولقد أمر اللَّه تعالى اليهود بتعظيم يوم الجمعة فضلوا عنه واختاروا السبت، فأمر اللَّه به النصارى فضلوا عنه واختاروا الأحد، وذلك لما ادخره اللَّه تعالى لنا من الفضل والهداية.

قال النبى ﷺ: «نحنُ الآخرون الأولون السابقون يومَ القيامة بَيْدَ أنهم أُوتوا الكتابَ من قبلنا، ثم هذا يومُهم الذى فرضَ اللَّه عليهم فاختلفوا فيه فهدانا اللَّه له، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ: اليهودُ غداً والنصارى بعدَ غدٍ»[٥].

فتعظيم يوم الجمعة وشهود صلاتها فرض عين على كل مسلم بالغ، عاقل، حُرٍّ، ذكر، صحيح، مقيم.

---

(١) صحيح: م (٨٥٤ -١٨- / ٥٨٥/ ٢)، ت (٤٨٦/ ٣٠٥/ ١)، نس (٨٩ و ٩٠/ ٣).

(٢) حسن: جه (١٠٨٤/ ٣٤٤ و ٣٤٥/ ١).

(٣) متفق عليه: خ (٩٣٥/ ٤١٥/ ٢)، م (٨٥٢/ ٥٨٣/ ٢)، نس (١١٥و١١٦/ ٣)، جه (١١٣٧/ ٣٦٠/ ١).

(٤) حسن: ت (١٠٨٠/ ٢٦٨/ ٢).

(٥) متفق عليه: خ (٨٧٦/ ٣٥٤/ ٢)، م (٨٥٥/ ٥٨٥/ ٢)، نس (٨٥ - ٨٨/ ٣).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

وقال النبى ﷺ: «الجُمعة حَقٌّ واجبٌ على كلِّ مُسلمٍ فى جماعةٍ إلا أربعة: عبدٌ مملوكٌ، أو صبى، أو امرأةٌ، أو مريضٌ»[١].

وقال ﷺ: «ليسَ على مُسافرٍ جُمعةٌ»[٢]. ومن شهدها من هؤلاء أجزأته.

ولقد كان النبى ﷺ يحث على حضور الجمعة ويرغب فيه، فكان يقول: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورَمضانُ إلى رمضانَ، مُكَفِّراتٌ لما بينهنّ إذا اجتُنِبَت الكبائرُ»[٣].

وكان يقول: «من توضأ فأحسن الوضوءَ، ثُمَّ أتى الجمعةَ فاستمعَ وأنصتَ غُفِر له ما بينه وبين الجمعة وزيادةُ ثلاثةِ أيَّامٍ، ومَن مسّ الحصا فقد لغا»[٤].

وكما حث ﷺ على حضور الجمعة فقد حذّر من التخلف عنها لغير عذر، وبيّن أن التخلف عنها من غير عذر من موجبات الطبع على القلب.

قال ﷺ: «مَن تَرَكَ ثلاثَ جُمَعٍ تَهَاوناً بهَا طَبع اللَّـهُ عَلَى قَلبِه»[٥].

وعن ابن عمر وأبى هُريرة رضىَ اللَّه عنهما قالا: سمعنا رسول اللَّه ﷺ يقول وهو على أعواد منبره: «ليَنتهِينَّ أقوَامٌ عَن وَدْعِهِم الجُمُعَاتِ أو لَيَختِمَنَّ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِم ثم لَيَكُونَنَّ من الغَافلِينَ»[٦].

---

(١) صحيح: د (١٠٥٤/ ٣/٣٩٤)، قط (٢/٣/٢)، هق (٣/١٧٢)، كم (١/٢٨٨).
(٢) صحيح: قط (٢/٤/٤).
(٣) صحيح: م(٢٣٣/١٦/٢٠٩/١)، ت(٢١٤/ ١٣٨/ ١)وليس عنده جملة «ورمضان».
(٤) صحيح: م (٨٥٧ - ٢٧-/٥٨٨/٢)، د (١٠٣٧/٣٧٤/٣)، ت (٥٩٦/٥/٢).
(٥) حسن صحيح: د (١٠٣٨/٣٧٧/٣)، ت (٤٩٨/٥/٢)، جه (١١٢٥/٣٥٧/١)، نس (٣/٨٨).
(٦) صحيح: م (٨٦٥/ ٥٩١/٢)، نس (٣/٨٨).

وقال ﷺ: «لقد هممتُ أن آمرَ بالصلاة فتُقَامُ، ثم آمُرَ رجلاً فيصلّي بالناس ثم أنطلقُ إلى أقوامٍ لا يشهَدُون الجمعةَ فأحرّقَ عليهم بيوتَهم»[١].

فحافظوا ـ رحمكم اللَّه ـ على صلاة الجمـعة ولا تضيّعوها، واعلموا أن رسـول اللَّه ﷺ قد أرشدنا إلى آداب ينبغى أن نأخذ أنفـسنا بها يوم الجمعة، منها:

الإكثار من الصلاة عليه ﷺ يوم الجمعة:

لقـوله ﷺ: «إنَّ من أفضلِ أيامكُم يومَ الجُمُعة، فـأكثرُوا عليّ من الصلاة فيه فإنَّ صـلاتَكُم مَعـرُوضَةٌ عليّ». قالوا: يا رسول اللَّه! وكـيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ـ أى: بليت ـ ؟! قال:

«إنَّ اللَّه حرّم على الأرضِ أن تأكلَ أجسادَ الأنبياءِ»[٢].

ومنها: قراءة سورة الكهف:

لقـولهِ ﷺ: «مَن قَرَأَ سُـورَةَ الكهفِ يومَ الجُمُـعَةِ أضاءَ له من الـنورِ ما بَينَ الجُمعتين»[٣].

ومنها: الغسل، والتطيب، والتسوك، ولبس أحسن الثياب:

لقوله ﷺ: «من اغتسلَ يوم الجمعة، واستنّ، ومسّ من الطيبِ إن كان عندَه، ولبسَ من أحسـنِ ثيابه، ثُم جَاءَ المسـجدَ، ولم يتـخطَّ رقابَ الناسِ، ثم ركعَ مـا شاء اللَّه أن يركعَ، ثُم أنصَتَ إذا خـرجَ إمـامُه حـتى يصلى ـ كَـانَت كفـارةً لما بينهـا وبين

(١) صحيح: م (٦٥٢/٤٥٢/١).
(٢) صحيح: د (١٠٣٤/٣٧٠/٣)، جه (١٠٨٥/٣٤٥/١)، نس (٩١/٣).
(٣) صحيح: كم (٣٦٨/٢)، هق (٢٤٩/٣).

الجمعة التى كانت قبلَها». قال أبو هريرة: وزيادة ثلاثة أيام، إن اللَّه جعل الحسنة بعشر أمثالها[1].

ومنها: التبكير بالرواح إلى المسجد:

لقوله ﷺ: **«من اغتسلَ يومَ الجمعة غُسلَ الجنابة ثم راحَ فكأنما قرّب بدنةً، ومَن راحَ فى الساعة الثانية فكأنما قرّبَ بقرةً، ومَن راحَ فى الساعة الثالثة فكأنما قرّبَ كبشاً أقْرَن، ومَن راحَ فى الساعة الرابعة فكأنما قرّبَ دَجَاجَةً، ومن راحَ فى الساعة الخامسة فكأنما قرّبَ بَيضَةً، فإذا خَرجَ الإمامُ حضرت الملائكةُ يَستمعُونَ الذكرَ»**[2].

وقال ﷺ: **«مَن غسّلَ واغتسلَ، وغدا وابتكَر، فدنا وأنصتَ ولم يلغُ، كانَ لَهُ بكلِّ خطوةٍ كأجر سنةٍ صيامُها وقيامُها»**[3].

وكما رغّب ﷺ فى التبكير فقد حذّر من التأخير:

فعن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه عنه: أن رسول اللَّه ﷺ رأى فى أصحابه تأخرا، فقال: **«تقدّموا فأتمّوا بى، وليأتمّ بِكُم مَن بعدَكم، وما زال أقوامٌ يتأخّرونَ حتى يؤخّرهم اللَّهُ»**[4].

وكذلك كان خلفاؤه من بعده ينكرون على المتأخرين: عن ابن عمر رضى اللَّه عنهما: «أن عمر بن الخطاب بينما هو قائم فى الخطبة يوم الجمعة

---

(١) حسن: خز (١٧٦٢/ ١٣٠/ ٣) وهذا لفظه، د (٣٣٩/ ٧ و٨/ ٢)، (نس (٩٥و٩٦/ ٣).

(٢) متفق عليه: خ (٨٨١/ ٣٦٦/ ٢)، م (٨٥٠/ ٥٨٢/ ٢)، د (٣٤٧/ ١٤. ١٥/ ٢)، ت (٤٩٧/ ٢/ ٥)، ونس(٩٩/ ٣).

(٣) صحيح: خز (٧٥٨/ ١٢٨، ١٢٩/ ٣) وهذا لفظه ،د(٣٤١/ ١٠، ١١/ ٢) ،ت(٤٩٤/ ٣/ ٢)، نس(٩٥، ٩٦/ ٣).

(٤) صحيح: م (٤٣٨/ ٣٢٥/ ١) ،د(٦٦٦/ ٣٥٧/ ١) ،نس(٨٣/ ٢) ، جه(٩٧٨/ ٣١٣/ ١)

إذ دخل رجل من المهاجرين الأوّلين من أصحاب النبي ﷺ فناداه عمر: أيّة ساعة هذه؟! قال: إني شُغِلت فلم أنقلب إلى أهلي حتى سمعت التأذين، فلم أزد أن توضأت. فقال: والوضوء أيضاً وقد علمت أن رسول اللَّه ﷺ كان يأمر بالغسل؟!»[1].

وقول عمر: «أية ساعة هذه؟» هذا استفهام توبيخ وإنكار، وكأنه يقول: لِمَ تأخرت إلى هذه الساعة؟ وقد ورد التصريح بهذا الإنكار في رواية أخرى، قال عمر: «لم تحتبسون عن الصلاة؟» وفي رواية: فعرّض عنه عمر فقال: «ما بال رجال يتأخرون بعد النداء؟!».

وفي قطع عمر الخطبة وإنكاره على المتأخر دليل على أهمية التبكير بالرواح إلى الجمعة، فعليكم إخوة الإسلام بالتبكير، وإياكم والتأخير.

فإذا بكر المسلم بالرواح إلى المسجد فعليه إذا دخل المسجد أن يقدّم رِجْلَه اليمنى ثم يقول: «أعوذ باللَّه العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم[2]. بسم اللَّه، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»[3].

ثم يتقدم إلى الصفوف الأولى فيتمها. فعن جابر بن سمرة رضي اللَّه عنه قال: خرج علينا رسول اللَّه ﷺ فرآنا حِلَقاً فقال: «**مَا لي أراكُم عِزِينَ؟**» ثم خرج بعد ذلك فقال: «**ألا تصفّون كما تصفّ الملائكةُ عِند ربِّها؟**» قالوا: يا رسول اللَّه، وكيف تصفّ الملائكة عند ربها؟ فقال: «**يتمّون الصفَّ الأوّل**

---

(١) متفق عليه: خ(٨٧٨/ ٣٥٦/ ١) ، م(٨٤٥/ ٥٨٠/ ٢) ،د(٣٣٦/ ٣/ ٢) ،ت(/ ٤٩٣ ٣٠٩/ ١).

(٢) صحيح :د(٤٦٢/ ١٣٢/٢).

(٣)صحيح : جه(٧٧١/ ٢٥٣/١) ،ت(٣١٣/ ١٩٧/ ١).

فالأولَ، ويتراصُّون فى الصفِّ»[١] .

فإذا قام فى الصف صلّى ركعتين قبل أن يجلس، لقوله ﷺ: **«إذا دَخَلَ أحدُكم المسجدَ فليركعْ ركعتَين قبلَ أنْ يَجلسَ»**[٢] .

فإذا صلى ركعتين فإن شاء زاد عليهما ما شاء اللّه، وإن شاء اقتصر عليهما وجلس يذكر اللّه حتى يخرج الإمام، فإذا خرج الإمام أقبل عليه واستمع له وأنصت، وليحذر كل الحذر من الكلام أثناء الخطبة، فقد قال النبىُّ ﷺ: **«إذا قلتَ لصاحِبك يومَ الجمعةِ والإمامُ يخطبُ أنصِتْ فقدْ لغوتَ»**[٣] .

وقول القائل لصاحبه «أنصت» من الأمر بالمعروف وهو واجب، ومع ذلك فقد سماه النبىّ ﷺ لَغْواً، وذلك من باب ترجيح الأهمّ وهو الإنصات لموعظة الخطيب ـ على المهمّ وهو الأمر بالمعروف أثناء الخطبة.

ومعنى ذلك أن تشميت العاطس، وردّ السلام، ومتابعة الخطيب على ذكر اللّه والصلاة على رسول اللّه ﷺ، ونحو ذلك، كلّه غير جائز أثناء الخطبة. أى أنه: لا كلام من حين يقول الإمام: إن الحمد للّه، إلى أن يقول: وأقم الصلاة.

فإذا انصرف الإمام من الصلاة استحب لكل مصلّ أن يأتى بالأذكار المشروعة عقب الصلاة.

---

(١) صحيح: م(٤٣٠/ ٣٢٢/ ١) ،د(٦٤٧/ ٣٦١/ ٢) ،نس(٩٢/ ٢) ،جه(٩٩٢/٣١٧/ ١).

(٢) متفق عليه: خ (٤٤٤/ ١/٥٣٧) ،م(٧١٤/٤٥٩/١)،ت(٣١٥/ ١٩٨/ ١) ،جه (١٠١٣/٣٢٤/١) .

(٣) متفق عليه: خ(٩٣٤/ ٤١٤/ ٢)،م(٨٥١/ ٥٨٣/ ٢)،جه(١١٠/ ٣٥٢/ ١)، نس(١٠٤/ ٣)، د(١٠٩٩/ ٤٦٠/٣) ، ت (٥١١/ ١٢/ ٢).

ومنها: أستغفر اللَّه، أستـغفر اللَّه، أستغفر اللَّه(١). اللهم أنت السـلام، ومنك السلام، تبـاركت يا ذا الجلال والإكرام(٢). ربّ قنى عذابك يـوم تبعث عبادك. اللهم أعنى على ذكـرك وشكرك وحسن عبادتك(٣). لا إله إلا الـلَّه، وحده لا شـريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قـدير، لا حول ولا قوة إلا باللَّه، لا إله إلا اللَّه، ولا نعبد إلا إيـاه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا اللَّه، مخلصـين له الدين ولو كره الكافرون(٤). لا إلـه إلا اللَّه، وحده لا شريك له، له الملك وله الحـمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ(٥).

ثم يقرأ آية الكرسيّ(٦)، والإخلاص والمعوذتين(٧).

ثم يقول: سـبحان اللَّه ثلاثاً وثلاثين، والحـمد للَّه ثلاثاً وثلاثين، واللَّه أكبر ثلاثاً وثلاثين، ثم يقـول تمام المائة: لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير(٨).

ثم يقوم فيصلى سنة الجمعة، وهى أربع، لقوله ﷺ: **«إذا صَلَّى أحدُكم الجمعةَ فليصلِّ بعدها أربَعاً»**(٩).

(١، ٢) صحـيح: م (٥٩١/ ٤١٤/١)، ت (٢٩٩/١٨٤/١)، د (١٤٩٩/ ٣٧٧/٤)، جه (٩٢٨/ ٣٠٠/ ١)، نس(٦٨/ ٣).

(٣) صحيح : د(١٥٠٨/ ٣٨٤/ ٤) ،ونس (٥٣/ ٣).

(٤) صحيح : (٥٩٤/ ٤١٥/ ١) ، د(١٤٩٢/ ٣٧٢/ ٤)، نس(٧٠/ ٣).

(٥) متفق عليه: خ (٨٤٤/ ٣٢٥/٢)، م (٥٩٣/٤١٤/١)، د (١٤٩١/٣٧١/٤)، نس (٧٠/٣).

(٦) صحيح: طب (٧٥٣٢/١٣٤/٨).

(٧) صحيح: د (١٠٥٩/٣٨٥/٤)، نس (٦٨/٣).

(٨) صحيح : م (٥٩٧/٤١٨/١) .

(٩) صحـيح: م (٨٨١/ ٦٠٠/٢)، جـه (١١٣٢/٣٥٨/١)، د (١١١٨/٤٨١/٣)، ت (٥٢٢/١٧/٢).

ويستحب أن يغيّر المكان الذى صلّى فيه الفريضة لقوله ﷺ: «**أيعجزُ أحدُكم إذا صلّى أن يتقدّم أو يتأخرَ، أو عن يمينِه أو عن شمالِه؟**» يعنى السُّبْحة[١].

فإذا خرج من المسجد قدّم رِجْلَه اليسرى وقال: «بسم اللَّه، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك»[٢].

وكان بعض الصالحين يقول: اللهم إنى قد أجبت دعوتك، وأدّيت فريضتك، وانتشرت كما أمرتنى، فارزقنى من فضلك فأنت خير الرازقين[٣].

وقوله ﷺ: « **لا يخالطُهم أحدٌ إلا المؤذّنون المحتسِبُون**» فيه بيان فضيلة المؤذن المحتسب، وقد قال ﷺ: «**لو يعلمُ الناسُ ما فى النداءِ والصفّ الأوّل ثمَّ لمْ يجدوا إلا أن يستَهِمُوا عليه لاستهَمُوا**»[٤].

وقد بيّن ﷺ ما فى النداء (الأذان) من الأجر فى أحاديث كثيرة، منها:

قوله ﷺ: «**المؤذّنون أطولُ الناسِ أعناقاً يومَ القيامة**»[٥].

وقوله ﷺ: «**المؤذنُ يُغفر له مدى صوته، ويَستغفرُ له كلُّ رطبٍ ويابسٍ**»[٦].

وقوله ﷺ: «**من أذّنَ ثِنْتَىْ عشرةَ سنةً وَجَبَتْ لَهُ الجنةُ، وكُتِبَ له بتأذينِه فى كُلِّ يومٍ سِتونَ حسنةً، ولكلِّ إقامةٍ ثلاثون حسنةً**»[٧].

---

(١) صحيح: جه (١٤٢٧/٤٥٨/١).

(٢) هذا جزء من حديث ما يقال عند الدخول، وقد سبق تخريجه قريباً.

(٣) عزاه ابن كثير فى تفسيره (٣٦٧/ ٤) لابن أبى حاتم.

(٤) صحيح: م(٤٣٧/ ٣٢٥/ ١)نس(٢٦٩/ ١).

(٥) صحيح: م(٣٨٧/ ٢٩٠/ ١)، جه(٧٢٥/ ٢٤٠/ ١).

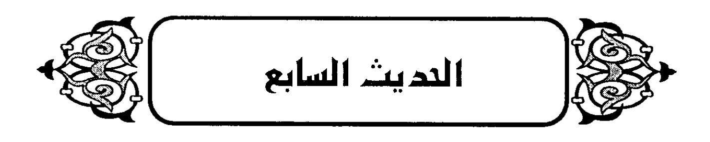
(٦) حسن صحيح: د(٥١١/ ٢١١/ ٢)، جه(٧٢٤/ ٢٤٠/ ١)، نس(١٣/ ٢). .

(٧) صحيح: جه(٧٢٨/ ٢٤١/ ١).

وعن عبد اللَّه بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة أن أبا سعيد الخدرى قال له: إنى أراك تحبّ الغنم والبادية، فإذا كنت فى غنمك أو باديتك فأذّنت للصلاة فارفع صوتك بالأذان، فإنه لا يسمع صوت المؤذّن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شىءٌ إلا شَهِدَ له يومَ القِيَامَةِ. سمعتُه من رسول اللَّه ﷺ[1].

* * *

(١) صحيح: خ (٦٠٩/٨٧ و٢/٨٨)، نس (٢/١٢).



الحديث السابع

عنْ أَنسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ رَمَضَانُ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ قَد حَضَرَكُمْ، وَفِيه لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَهَا فَقَدْ حُرِمَ الْخَيْرَ كُله، وَلا يُحْرَمُ خَيْرَهَا إلاَّ مَحْرُومٌ»[1].

لقد دخل رمضان، وهو شهر عظيم مبارك، لو لم يكن له من فضل سوى نزول القرآن فيه لكفاه فضلاً وشرفاً، ومع ذلك فقد جاء فى فضله أحاديث كثيرة: فعن أبى هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال:

«إذا كانتْ أولُ ليلة من رمضانَ صُفِّدت الشياطينُ ومردةُ الجنِّ، وغُلِّقتْ أبوابُ النارِ فَلَم يُفتَح منهَا بابٌ، وفُتحتْ أبوابُ الجَنة فلم يُغلَق منها بابٌ، ونادى مناد: يا باغىَ الخير أقبل، ويا باغىَ الشرّ أقصر، وللَّه عتقاءُ من النار وذلكَ فى كُلِّ لَيلة»[2].

وعنه رضى اللَّه عنه قال: قال النبى ﷺ: **«إذا دخلَ شَهرُ رمضانَ فُتحتْ أبوابُ السماء، وغُلقتْ أبوابُ جهنمَ، وسُلسلت الشياطينُ»**[3].

---

(١) حسن صحيح: رواه: جه (١٦٤٤/٥٢٦/١).

(٢) صحيح: رواه: جه (١٦٤٢/٥٢٦/١)، ت (٦٧٧/٩٥/٢).

(٣) متفق عليه: رواه : خ (١٨٩٩/١١٢/٤)، م (١٠٧٩/٧٥٨/٢)، نس (١٢٦/٤).

وصيام رمضان واجب بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ١٨٣ـ١٨٥] الآيات.

وقال النبى ﷺ: «بُنِىَ الإسلامُ على خمسٍ: شهادة أَن لا إلهَ إلا اللَّهُ، وأنَّ محمدا رسولُ اللَّهِ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وصومِ رمضانَ، وحجِّ البيتِ»[١].

وقد أجمعت الأمة على أن صوم رمضان أحد أركان الإسلام، فمن أنكره وجحد فرضيته فهو كافر مرتد عن الإسلام، لأن فرضية الصيام قد علمت من الدين بالضرورة، فمن أنكر وجوب الصوم فهو كافر خارج عن الإسلام، والعياذ باللَّه. وأما من أقر بوجوبه، واعتقد فرضيته، ثم أفطر فى رمضان لغير عذر، فهو عند العلماء شر من الزانى ومُدمن الخمر، بل يشكون فى إسلامه، ويظنون به الزندقة والانحلال.

فضله:

ولقد كان رسول اللَّه ﷺ يحث أصحابه على الصيام، ويبين لهم فضله وثوابه، وأثر عنه ﷺ فى ذلك أحاديث منها:

قوله ﷺ: «مَن صامَ رمضانَ إيمانا واحتسابا غُفِرَ لهُ ما تقدَّمَ من ذنبه»[٢].

وقوله ﷺ: «إنَّ فى الجنة بابا يُقال له الريّان، يدخلُ منه الصائمون يومَ القيامة، لا يدخلُ منه أحدٌ غيرُهم، يقالُ: أينَ الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحدٌ غيرُهم، فإذا دخلوا، أُغلِقَ فلمْ يدخُل منه أحدٌ»[٣].

---

(١) سبق.

(٢) صحيح: خ (٣٨/ ٩٢/ ١)، جه (١٦٤١/ ٥٢٦/ ١)، نس (١٥٧/ ٤).

(٣) متفق عليه: خ (١٨٩٦/ ١١١/ ٤)، م (١١٥٢/ ٨٠٨/ ٢).

وقوله ﷺ : «كل عملِ ابنِ آدمَ يُضاعفُ: الحسنةُ بعشرِ أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، قالَ اللَّهُ عزَّ وجل: إلا الصومَ، فإنه لي وأنا أجزي به، يدعُ شهوتَه وطعامَه من أجلي، للصائمِ فرحتان: فرحةٌ عند فطرِه، وفرحةٌ عند لقاءِ ربه، ولَخلوفُ فيه أطيبُ عند اللَّه من ريحِ المسك»(١) .

على من يجب ؟

وصوم رمضان واجب على كل مسلم، بالغ، عاقل، صحيح، مقيم. ويشترط فى حق المرأة أن تكون طاهرة من الحيض والنفاس.

أما الصبي والمجنون فلا يجب عليهما الصوم، لقول النبيﷺ :

«رُفعَ القلمُ عن ثلاثة: عن النائمِ حتى يستيقظَ، وعنِ الصبيِّ حتى يحتلمَ، وعنِ المجنونِ حتى يَعقلَ»(٢) .

وينبغي لولي الصبي أن يأمره بالصوم ليعتاده من صغره، فلا يشق عليه عند بلوغه، وهكذا كانت تفعل نساء أصحاب رسول اللَّه ﷺ بصبيانهن.

عن الربيع بنت معوذ قالت: أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: من أصبح مفطرًا فليتم بقية يومه، ومن أصبح صائمًا فليصم. قالت: فكنا نصومه بعد، ونصوِّم صبياننا، ونجعل لهم اللعبة من العهن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك، حتى يكون عند الإفطار(٣) .

وأما المريض والمسافر فلا يجب عليهما الصوم، لكن إذا صح المريض وأقام المسافر قضيا، لقوله تعالى:

---

(١) صحيح: م (١١٥١ - ١٦٤ -/٨٠٧/٢)، جه (١٦٣٨/٥٢٥/١)
(٢) صحيح: ت (١٤٤٦/٤٣٨/٢)، د (٤٣٨٠/٧٨/١٢).
(٣) متفق عليه: خ (١٩٦٠/ ٢٠٠/٤)، م (١١٣٦/٧٩٨/٢).

﴿فمن كَانَ منكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

والأفضل للمسافر إن لم يجد مشقة أن يصوم، وإن وجد مشقة أن يفطر.

عن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه عنه قال: «كنا نغزو مع رسول اللَّه ﷺ فى رمضان فمنّا الصائم ومنّا المفطر، فلا يجد الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم، يرون أن من وجد قوة فصام فإن ذلك حسن، ويرون أن من وجد ضعفاً فأفطر فإن ذلك حسن»(١).

وإذا صام المريض والمسافر أجزأ عنهما.

أما الحائض والنفساء فلا يجوز منهما الصوم، لأن الطهارة من الحيض والنفاس شرط لصحة الصوم، فإذا طهرت المرأة وجب عليها قضاء الأيام التى أفطرت فيها؛ عن عائشة رضى اللَّه عنها قالت: «كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة»(٢).

من يرخص لهم فى الفطر وعليهم الفدية ؟

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]

قال ابن عباس: ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً»(٣).

فالشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة، وكذلك المريض الذى لا يرجى برؤه، والحبلى والمرضع هؤلاء جميعاً إذا عجزوا عن الصوم أفطروا وأطعموا عن كل يوم مسكيناً.

---

(١) صحيح: م(١١١٦/ ـ٩٦ـ/ ٧٨٧/ ٢)، ت(٧٠٨/ ١٠٨/ ٢)

(٢) سبق.

(٣) صحيح: خ (٤٥٠٥/ ١٧٩/ ٨).

عن أنس بن مالك: «أنه ضعف عن الصوم عاماً، فصنع جفنة ثريد ودعا ثلاثين مسكيناً فأشبعهم»[(١)].

وعن ابن عباس قال: «إذا خافت الحامل على نفسها، والمرضع على ولدها فى رمضان، يفطران، ويطعمان مكان كل يوم مسكيناً، ولا يقضيان صوماً»[(٢)].

وعن نافع قال: «كانت بنت لابن عمر تحت رجل من قريش، وكانت حاملاً، فأصابها عطش فى رمضان، فأمرها ابن عمر أن تفطر وتطعم عن كل يوم مسكيناً»[(٣)].

ما هى أركان الصوم ؟

للصوم ركنان: **الأول**: النية، لقوله تعالى: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** [البينة: ٥].

وقال النبى ﷺ: «**إنما الأعمالُ بالنياتِ**»[(٤)].

وتجب النية من الليل قبل طلوع الفجر، لقوله ﷺ: «**مَن لَم يُجمعِ الصيامَ قَبلَ الفَجرِ فلا صيَامَ له**»[(٥)].

والنية محلها القلب، لا عمل للسان فيها، فلا يلزم أن يقول: نويت صيام غد، ونحو ذلك، لعدم ثبوته عن النبى ﷺ.

---

(١) صحيح: قط (٢/٢٠٧/١٦)، وعلق البخارى نحوه (٨/١٧٩).
(٢) صحيح: عزاه الألبانى فى الإرواء (٤/١٩) للطبرى (٢٧٥٨).
(٣) صحيح: قط (٢/٢٠٧/١٥)
(٤) سبق.
(٥) صحيح: د (٧/١٢٢/٢٤٣٧)، ت (٢/١١٦/٧٢٦)، نس (٤/١٩٦).

الركـن الثـــانى: الإمـساك عن المفطرات من طلوع الفـجر إلى غـروب الشـمس، لقوله تعـالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ما هى المفطرات ؟

١- الأكل والشرب عمداً، فمن أكل أو شرب عامداً، ذاكراً لصيامه فقد فسد صومه. أما من أكل أو شرب ناسياً، فقد قال ﷺ: «مَن نَسِىَ وهُوَ صَائمٌ فأكلَ أو شَرِبَ، فليُتِمَّ صومَه، فإنما أطعمهُ اللّـهُ وسَقَاهُ»[1].

٢- القىء عمداً، فمن وضع أصبعه فى فِيه فهيّج بطنه، أو غير ذلك من الأسبـاب فقد فـسد صومـه، وإذا غلبه القىء فـلا حرج عليه، بهـذا صرّح رسول اللَّه ﷺ فى قوله: «مَن ذَرَعَهُ القىء فليسَ عليه قضاءٌ، ومن استقاءَ عمداً فليقضِ»[2].

٣- نزول الحيض أو النفـاس على المرأة فى أى لحظة من لحظات النهار، لأن الطهارة من الحيض والنفاس شرط فى صحة صوم المرأة كما ذكرنا.

٤- الاستمناء عن مـباشرة فى اليقظة. (أما الاحتـلام نهاراً فلا يؤثر فى الصوم).

٥- ولا يلزم من أفـطر بواحـد من هذه المـفطرات الكفـــارة، وإنما تلزم الكفارة بالجِـماع، وهو الخامس من المفطرات، فـمن جامع فى نهار رمـضان فقد فسد صومه ولزمته الكفارة وهى: عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، فإن لم يجد استقرت الكفارة

(١) متفق عليه: خ (١٩٣٣/ ١٥٥/ ٤)، م (١١٥٥/ ٨٠٩/ ٢) واللفظ له.
(٢) صحيح: د(٢٣٨٠) ، ت (٧٢٠) ، جه (١٦٧٦) ، حم (٢/ ٤٦٨).

في ذمته حتى يستطيع. عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال:

«بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول اللَّه: هلكت، قال: «**مَا لكَ؟**» قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**وهَل تَجدُ رقبةً تعتقُها؟**» قال: لا. قال: «**فَهَل تستطيعُ أن تصومَ شهرين مُتَتابعَين؟**» قال: لا، قال: «**فهل تجدُ إطعامَ ستينَ مسْكيناً؟**» قال: لا. قال: فمكث النبي ﷺ، فبينما نحن على ذلك أُتي النبي ﷺ بعرق فيها تمر - والعرق المكتل - قال: «**أين السائلُ؟**» قال: أنا. قال: «**خُذ هَذَا فَتَصَدَّق به**». فقال الرجل: على أفقر مني يا رسول اللَّه، فواللَّه ما بين لابتيها - يريد الحرتين - أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال: «**أطْعمهُ أهلَك**»[١].

آداب الصوم:

١ - السحور: لقوله ﷺ: «**تسحَّروا فإنَّ في السحور بركةً**»[٢].

ويستحب تأخيره: عن أنس عن زيد بن ثابت رضي اللَّه عنه قال: تسحّرنا مع النبي ﷺ ثم قام إلى الصلاة. قلت: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية»[٣].

ويتحقق السحور بالشيء القليل من الطعام أو الشراب. قال ﷺ: «**تسحَّرُوا ولو بجرعَةِ مَاءٍ**»[٤].

---

(١) متفق عليه: خ(١٩٣٦)،م (١١١١)،د (٢٣٧٣)،ت (٧٢٠)، جه (١٦٧١).
والعرق = ١٥ صاع = ٣٠٥٤٠جرام = ٥٤٠/ ٣٠ كجم.
(٢) متفق عليه: خ(٤/١٣٩/١٩٢٣)، م (٢/٧٧٠/١٠٩٥)، ت (٢/١٠٦/٧٠٣)، جه (١٦٩٢/ ١/٥٤٠)، نس (٤/١٤١).
(٣) متفق عليه: خ (٤/١٣٨/١٩٢١)، م (٢/٧٧١/١٠٩٧)، ت (٢/١٠٤/٦٩٩)، نس (٤/١٤٣).
(٤) صحيح: حب (٢٢٣/٨٨٤).

٢- **تعجيل الفطر**، متى تحقق الصائم غروب الشمس فينبغى له المبادرة إلى الفطور لقوله ﷺ: «**لا يزالُ الناسُ بخيرٍ مَا عَجَّلُوا الفِطرَ**»(١).

وأن يفطر على رطبات، أو تمرات، فإن لم يجد حسا حسوات من ماء.

عن أنس قال: «كانَ رسولُ اللَّه ﷺ يفطرُ عَلَى رطبات قبل أن يصلى، فإن لم تكن رطبات فعلى تمرات، فإن لم تكن حسا حسوات من ماء»(٢).

وأن يدعوَ عند فطره بدعوة النبى ﷺ: «**ذَهَبَ الظمأُ وابتَلَّت العروقُ وثبتَ الأجرُ إن شاءَ اللَّهُ**»(٣).

٣- الكف عن اللغو والرفث ونحوهما مما يتنافى مع الصوم.

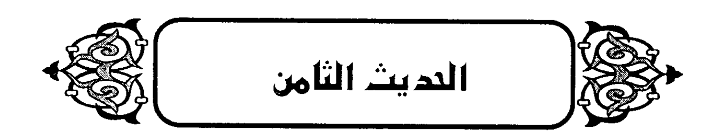
عن أبى هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا كَانَ يَومُ صَومِ أحدكُم فلا يرفثْ ولا يَصخَبْ ولا يجهلْ، فإن شاتمهُ أحدٌ أو قاتلَه فليقُلْ إنى صائمٌ**»(٤).

وعنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**منْ لمْ يدَعْ قولَ الزورِ والعملَ بِهِ، فَليسَ للَّه حاجةٌ فى أن يدعَ طعامَهُ وشرابَهُ**»(٥).

وقد أثر عن بعض السلف قوله: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك، وليكن عليك يوم صومك سكينة ووقار، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

* * *

(١) متفق عليه: خ (١٩٥٧/١٩٨/٤)، م (١٠٩٨/٧٧١/٢)، ت (٦٩٥/١٠٣/٢).
(٢) حسن صحيح: د (٢٣٣٩/٤٨١/٦)، ت (٦٩٢/١٠٢/٢).
(٣) حسن: د (٢٣٤٠/٤٨٢/٦).
(٤) جزء من حديث «كل عمل ابن آدم ...» وقد سبق.
(٥) صحيح: خ (١٩٠٣/١١٦/٤)، د (٢٣٤٥/٤٨٨/٦)، ت (٧٠٢/١٠٥/٢).



الحديث الثامن

عَنْ أبى هُرَيرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ أنَ رَسُولَ اللَّه ﷺ قالَ:

«مَنْ آتاهُ الله مالاً فَلَمْ يُؤَدّ زكاته، مثِّلَ لَهُ شُجَاعا أقْرع لَهُ زَبِيبَتان يَأخُذهُ يَومَ القيامَة بِلهِزمَتيْه - أى شدقَيه - ثُمَ يقُولُ: أنا مَالُكَ أنَا كَنْزُكَ»(1).

ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ قول اللَّه تعالى: ﴿ولا يَحْسبنَ الَّذينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ من فَضْله هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخلُوا به يَوْمَ الْقيَامَة﴾ [آل عمران: ١٨٠]

هذا حديث عظيم، قد تضمن وعيداً شديداً لمانع الزكاة، وبين أن المال المكنوز والمدخر الذى لم تؤد زكاته يكون يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، وأنه يطوق صاحبه يوم القيامة ويأخذ بشدقيه، ويقول له موبخاً: أنا مالك! أنا كنزك! ولما كنا فى شهر رمضان وقد جرت عادة كثير من الناس بإخراج الزكاة فيه كان لابد لنا من الحديث عن الزكاة وبيان أهم أحكامها التى يحتاج إليها المسلمون فنقول وباللَّه تعالى التوفيق: الزكاة اسم لهذا القدر من المال الذى يدفعه الأغنياء للفقراء.

---

(1) صحيح: رواه: خ (٤٥٦٥/ ٨/٢٣٠).

وسميت زكاة لأنهـا تزكى المال وتنميه، كما تزكى صاحـبها وتطهره من دنس البخل والشح. قـال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والزكاة أحـد أركان الإسلام الخمـسة، وفريضـة من فرائض هذا الدين، وقد دلّ على فرضيتها الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال تعالـى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقال تعـالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ ﴾ [الحج: ٧٨].

وقد قرنت الزكاة بالصلاة فى اثنتين وثمانين آية.

وقال رسـول اللَّه ﷺ: «**بُنِىَ الإسلام عـلى خمس: شهـادة أن لا إلهَ إلا اللَّهُ، وأنَّ مـحمـداً رسـولُ اللَّه، وإقـام الصلاة، وإيتـاء الزكـاة، وصـوم رمضـانَ، وحجِّ البـيت**»[١] ولما سأل جـبريل النبى ﷺ عن الإسلام ذكـر له هذه الخمس ولما بعث النبى ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن قال له:

«**إنكَ تأتى قـوماً من أهل الكتـاب، فادعُـهم إلى شهـادة أن لا إلهَ إلا اللَّهُ، وأنى رسولُ اللَّه، فإنْ هُم أطاعوكَ لذلك فأعلمـهُم أن اللَّهَ افترضَ عليهم خمسَ صلوات فى كلِّ يومٍ وليلةٍ فـإن هُم أطاعُوكَ لذلكَ فـأعلمهُم أن اللَّـهَ افترضَ عـليهم صـدقةً تُؤخذ من أغنيائهم فتُردُّ فى فقرائهم، فإن هُم أطاعوكَ لذلكَ، فإيَّاك وكرائمَ أموالِهم، واتقِ دعوةَ المظلومِ فإنه ليس بينها وبين اللَّه حجَابٌ**»[٢].

(١) متفق عليه: خ (٨/٤٩/١)، م (١٦/٤٥/١)، نس (١٠٧/٨)، ت (٢٧٣٦/١١٩/٤) واللفظ له.
(٢)متـفق عليه: خ (١٤٩٦/٣٥٧/٣)، م (١٩/ ٥٠/١)، د (١٥٦٩/٤٦٧/٤)، نـس (٥٥/٥)، جه ، ت(١٧٨٣/٥٦٨/١) (٦٢١/٦٩/٢).

وأجمعت الأمة على وجوب الزكاة وأنها إحدى فرائض الدين.

وقد كثر فى القرآن الكريم وأحاديث النبى العظيم الحث على إخراج الزكاة، والترغيب فى أدائها، والترهيب من منعها.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ١ ـ ٥]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

قال رسول اللَّه ﷺ: «مَن آتاهُ اللَّهُ مالاً فلم يُؤدِّ زكَاتَهُ، مُثِّل له مالُه شُجَاعاً أقرعَ له زبيبتان، يُطوَّقه يومَ القيامة، ثُم يأخذُهُ بلهزمتَيه ـ يعنى شدقيه ـ ثم يقولُ: أنا مالُك، أنا كَنزُك»، ثم تلا رسول اللَّه ﷺ الآية ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ...﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) صحيح: خ (٤٥٦٥/ ٨/٢٣٠).

فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدِّى منها حقَّها إلا إذا كانَ يومُ القيامة صفحتْ له صفائحُ من نارٍ، فأُحمىَ عليها فى نار جهنمَ، فيُكوَى بها جنبُه وجبينُه وظهرُه، كلما بردتْ أعيدت له، فى يوم كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ، حتى يُقضَى بين العبادِ، فيرى سبيلَه، إما إلى الجنةِ، وإما إلى النارِ**»[1].

ما حكم مانعها ؟

قال العلماء: من أنكر فرضية الزكاة ووجوبها فهو كافر خارج عن الإسلام، لأن فرضية الزكاة معلومة من الدين بالضرورة، وكل من أنكر ما هو معلوم من الدين فرضيته بالضرورة فهو كافر خارج عن الإسلام.

أما من أقر بوجوب الزكاة وفرضيتها ثم غلبه الشح فلم يؤدها فقد قال العلماء: يجب على الحاكم أن يأخذها منه قهراً، ويأخذ شطر ماله عقوبة، لقوله ﷺ:

«**فى كلِّ سائمة إبلٍ: فى كلِّ أربعين بنتُ لبون، ولا تُفرق إبلٌ عن حسابها، مَن أعطاها مؤتجراً فله أجرُها، ومَن منعَها فإنا آخذوها وشطرَ مالِه، عزمة من عزمات ربِّنا، ليس لآلِ محمدٍ منها شىء**»[2].

وإذا اجتمع أهل بلد على منع الزكاة وكانت لهم شوكة وغلبة قاتلهم الحاكم حتى يأخذها منهم قهراً، كما فعل خليفة رسول اللَّه أبو بكر الصديق رضى اللَّه عنه: عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: «لما تُوفى النبى ﷺ

---

(١) صحيح: م (٩٨٧/ ٦٨٠/ ٢)، د(١٦٤٢/ ٧٥/ ٥).

(٢) حسن: د (١٥٦٠/٤٥٢/٤)، نس (١٥/٥).

واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب لأبى بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**أمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، فمن قال: لا إله إلا اللَّه، عَصمَ منِّى مالَهُ ونفسَهُ إلا بحقه، وحسابُهُ على اللَّه**»؟ فقال أبو بكر: واللَّه لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، واللَّه لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول اللَّه ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فواللَّه ما هو إلا أن رأيت أن اللَّه شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق»[(١)].

على من تجب الزكاة ؟

تجب الزكاة على كل مسلم، حر، مالك للنصاب، لا فرق بين الذكر والأنثى، ولا بين الصغير والكبير.

متى تجب ؟

تجب الزكاة إذا حال على النصاب حول وهو فى ملك المالك، لقوله ﷺ: «**لا زكاةَ فى مالٍ حتَّى يحولَ عليه الحولُ**»[(٢)].

ويستثنى من ذلك الزرع، فإن زكاته واجبة على الفور وقت حصاده، لقوله تعالى: ﴿**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾ [الأنعام: ١٤١]

والنصاب لا يقدر بمبلغ من المال معلوم، وإنما هو مقيد بسعر الذهب والفضة، ونصاب الذهب عشرون مثقالاً، قيل إنها تساوى بالوزن الحاضر ستة وثمانين غراماً. ونصاب الفضة مائتا درهم.

---

(١) متفق عليه: خ (١٤٠٠/ ٢٦٢/٣) . م(٢٠/ ٥١/ ١) ، د (١٥٤١/ ٤١٤/ ٤) ، ت(٢٧٣٤/ ١١٧/ ٤)، نس(١٤/ ٥) .

(٢) صحيح: جه (١٧٩٢/ ٥٧١/ ١)، قط (٣/ ٩٠/ ٢)، هق (٩٥/ ٤).

فمن ملك من المال ما يساوى قيمة نصاب الذهب أو الفضة، وحال عليه الحول فقد وجبت عليه الزكاة. والزكاة واجبة على الفور إذا حال الحول، ولا يجوز حبسها أو تأخيرها، فبمرور الحول وجب عليك أيها الغنى فى مالك حق الفقير، فيجب عليك المبادرة والإسراع إلى أداء هذا الحق لصاحبه.

لا يجوز تأخير الزكاة إذا حال الحول، ولكن يجوز تعجيلها(١)، بشرط أن تكون النية وقت الدفع على أن هذا المدفوع من الزكاة(٢).

ما حكم المالك المدين ؟

رجل عنده مال وعليه دين، فكيف يُزكى؟ يجب عليه أن يميز دينه من ماله، فإن كان معه عشرة ـ مثلاً ـ وعليه خمسة، وجبت عليه الزكاة فى الخمسة التى يملكها، وأما الخمسة الأخرى فليس فيها زكاة.

عن عائشة رضى اللَّه عنها أنها قالت: «ليس فى الدين زكاة»(٣).

وعن السائب بن يزيد أنه سمع عثمان بن عفان رضى اللَّه عنه خطيباً على منبر رسول اللَّه ﷺ يقول: «هذا شهر زكاتكم فمن كان عليه دين فليقض دينه، حتى تخلص أموالكم فتؤدوا منها الزكاة»(٤).

«وتجب الزكاة فى الديون التى للإنسان، وهى الديون التى له على

---

(١) لحديث على: «أن العباس سأل النبى ﷺ في تعجيل الصدقة قبل أن تحلّ، فرخّص له فى ذلك».

رواه: د (١٦٠٨/٢٧/٥)، ت (٦٧٣/٩٣/٢)، جه (١٧٩٥/٥٧٢/١). وهو حديث حسن.

(٢) لقوله ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ». وقد سبق .

(٣) صحيح: ابن أبى شيبة (١٦٣/٣).

(٤) صحيح: هق (١٤٨/٤).

الناس، إذا كانت حالة أو مؤجّلة فيزكيها كل سنة إن كانت على غنى، لكن إن شاء أدى زكاتها قبل قبضها مع ماله، وإن شاء انتظر حتى يقبضها فيزكيها لكل ما مضى.

أما إن كانت الديون على فقير فلا زكاة على من هى له حتى يقبضها فيزكيها سنة واحدة عما مضى، لأنها قبل قبضها فى حكم المعدوم»(١).

ما حكم المال المستفاد ؟

رجل يزكى فى رمضان ـ مثلاً ـ استفاد مالاً، فهل يجب عليه أن يزكى المال المستفاد فى رمضان مع رأس المال، أم ينتظر حتى يحول الحول على المال المستفاد؟

لا شك أن الزكاة واجبة عليه، سواء عجّلها أم أخّرها، ولكن العلماء يقولون: من باب التيسير على صاحب المال، يجب أن يخرج فى شهر زكاته عن كل ما عنده من المال سواء زاد عن العام الماضى أم نقص، ما دام فوق النصاب.

ما حكم العقارات المؤجرة والسيارات ؟

العقار نفسه، وكذا عين السيارة، ليس عليهما زكاة، وأما قيمة إيجار العقار فإنها إذا كانت نصاباً، وكان الإيجار سنويًّا، فإنه إذا قبض الإيجار سلفاً لم تجب الزكاة فيه حتى يمضى عليه الحول، وإن قبض الإيجار مؤخراً بعد عام زكاه إذا قبضه، لأنه يملكه من يوم تأجير العقار.

(١) الضياء اللامع لابن عثيمين (٤٤٨، ٤٤٩).

وكذلك ناتج السيارة، إذا لم يدخر منه المالك شيئاً فلا زكاة عليه، وإذا ادخر من ناتجها قيمة النصاب، وحال عليه الحول وجبت عليه الزكاة.

ما حكم زكاة الحليّ ؟

حليّ المرأة ذهباً أو فضة، اختلف العلماء فى حكم زكاته:

فذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد إلى أنه لا زكاة فى حليّ المرأة، وأما أبو حنيفة فقد قال: فى الحليّ زكاة.

وقول أبى حنيفة هو الذى دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [التوبة: ٣٤]. فلم تستثن الآية ما كان حليًّا.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: أتت امرأة من أهل اليمن رسول اللَّه ﷺ ومعها ابنة لها، فى يدها مسكتان من الذهب، فقال: «**هَل تُعطِينَ زكاةَ هَذَا؟**» قالت: لا، قال: «**أيسرُّكِ أن يُسوِّرَكِ اللَّه بهما سِوَارَين من نَارٍ؟**»[(١)].

وعن عبد اللَّه بن شداد الهاد أنه قال: «دخلنا على عائشة زوج النبى ﷺ فقالت: دخل عليّ رسول اللَّه ﷺ فرأى فى يدى فتخات من ورق، فقال: «**مَا هَذَا يا عائشةُ؟**» فقلت: صنعتهن أتزين لك يا رسول اللَّه، قال: «**أتؤدينَ زكاتَهُنَّ؟**» قلت: لا، أو ما شاء اللَّه، قال: «**هُو حسبُكِ من النارِ**»[(٢)].

(١) حسن: د (١٥٤٨/ ٤٢٥/ ٤)، نس (٣/٣٨)، ت (٦٣٢/ ٧٤/ ٢) بنحوه.
(٢) صحيح: د (١٥٥٠/ ٤٢٧/ ٤)، كم (٣٨٩/ ١)، هق (١٣٩/ ٤).
(الفتخة): حلقة من ذهب أو فضة لا فص لها تلبس فى البنصر كالخاتم.

فأيما امرأة ملكت نصاباً من الذهب أو الفضة، وحال عليه الحول، وجب عليها أن تزكى ما عندها.

القدر الواجب إخراجه :

القدر الواجب إخراجه فى زكاة الذهب والفضة أو الأوراق المالية هو ربع العشر.

* * *



الحديث التاسع

عَنْ أَبى مَالك الأشْعَرىَ رَضىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إنَّ فى الْجَنّة غُرَفاً يُرَى ظَاهرُهَا منْ بَاطنهَا، وَبَاطنُهَا منْ ظَاهرهَا، أَعَدَّهَا اللهُ لمَنْ أَلانَ الْكَلام، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وتَابعَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى باللَّيْلِ والنَّاسُ نيامٌ»[1].

انتهى رمضان وانتهت معه فضائل الأعمال عند كثير من الناس، فخلت المساجد، وقلّ فيها الراكع والساجد، وانقطع الصيام، وانتهى الجود والكرم والسخاء، وعادت للمعاملة القسوة والجفاء. وهذا الحديث يذكّر المسلمين بما ينبغى من مواصلة الحال الطيبة التى كانوا عليها فى رمضان من صلاة وصيام، ولين قول وإطعام طعام. والنبىُّ ﷺ يرغّبنا فى ذلك فيقول:

«**إنَّ فى الجنة غُرَفاً يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها**»، وذلك لشفافيتها المتناهية، فهى شفّافة للغاية، حتى إن الرائى ليرى باطنها من ظاهرها، وظاهرَها من باطنها.

وقد جاء ذكْرُ الغرف فى القرآن الكريم فى أكثر من آية:

قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاما**﴾ [الفرقان: ٧٥].

---

(١) حسن: ت (١٩٨٤)، (٢٥٢٧)، المشكاة (٢٣٣٥).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

ولهم فيها من النعيم ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر[١].

هذه الغرف «أعدّها اللَّهُ لمن ألان الكلام» كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٣، ٢٤].

والقول الليّن الطيب هو القول الهيّن السهل اللطيف، الذى لا خشونة فيه ولا فحش ولا صلف. وقد أمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ بأن يأمر المؤمنين بالقول الليّن، فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

(١) متفق عليه: خ (٤٧٧٩/٥١٥/٨)، م (٢٨٢٤/٢١٧٤/٤)، ت (٣٢٤٩/٢٦/٥).

قال ابن كثير[1]: يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يأمر عباد اللّه المؤمنين أن يقولوا فى مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشرّ والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدوٌّ لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بيّنة.

وتتأكد الكلمة الطيبة فى مواضع:

منها: عند السؤال وعدم القدرة على العطاء، قال تعالى: ﴿ **وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا** ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٨].

ومعنى الآية: إن تُعْرِض عن هؤلاء المذكورين لعدم وجود ما تعطيهم، وأنت ترجو اللّه أن يرزقك فتعطيهم ﴿**فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا**﴾ أى: ليّناً هيّناً لطيفاً طيّباً، كالدعاء لهم بالغنى وسعة الرزق، ووعدهم بأن اللّه إذا يسّر من فضله رزقاً فستعطيهم.

وهذا تعليم عظيم من اللّه لنبيّه لمكارم الأخلاق، وأنه إن عجز عن العطاء الجميل فلن يعجز عن القول الطيب اللطيف، وهذا الردّ الطيب أفضل من العطاء القبيح، قال تعالى: ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى**﴾ [البقرة: ٢٦٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٥).

وقال النبى ﷺ: «**والكلمةُ الطيّبةُ صدقةٌ**»(١).

ومنها: عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى الخير، قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

فالقول الليّن لا يثير العزّة بالإثم، ولا يهيّج الكبرياء الزائف، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان. فإذا كان موسى مأموراً بالقول الليّن ومعه القوّة والعصمة، فكيف بمن دونه؟!

فواجبٌ على الدعاة إلى اللَّه عزّ وجل أن يلتزموا دائماً القول الليّن، والكلمة الطيبة، وأن يجتنبوا الغلظة والقسوة، والشدّة والعنف فى القول والفعل معاً، فإن الكلمة الطيبة تشفى الصدور، وتضمّد الجراح، وتقرّب الفجوة، والكلمة النابية الغليظة القاسية توغر الصدر، وتدمى الجراح، وتوسّع الفجوة، وكم من عدوٍّ لدود صار صديقاً حميماً بكلمة طيبة، وكم من صديقٍ حميمٍ صار عدوًّا لدوداً بكلمة نابية.

أما الخصلة الثانية: فهى إطعام الطعام:

وإطعام الطعام من موجبات الجنة، وتركه من موجبات النار. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً**﴾ [الإنسان: ٥-٩].

---

(١) متفق عليه: خ (٢٩٨٩/ ٦/١٣٢)، م (١٠٠٩/ ٢/٦٩٩).

وقال تعـالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٤].

وفى الحديث: «**دخلت امرأةٌ النارَ فـى هـرّه حَبَستْها، لا هى أطعمتهَا، ولا هىَ تركتْهَا تأكلُ من خشاشِ الأرضِ**»(١).

ويفهم من ذلك أن إطعـام الطعام أعمّ من إطعـام الإنسان، فهـو يشمل الإنسان والحيوان، ولذا قال ﷺ: «**فى كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجرٌ**»(٢).

وإطعام الإنسان لا يقـتصر على المساكين، بل إطعـام الرجل أهله وعياله يعدّ من إطعام الطعام، وله عليـه الأجر والثواب. قال ﷺ: «**دينارٌ أنفقـتَهُ فى سبـيلِ اللَّه، ودينارٌ أنفقتَـهُ فى رقبة، ودينارٌ تصـدَّقتَ به على مِسكينٍ، ودينارٌ أنفقـتهُ على أهلكَ، أعظَمُهَا أجراً الذى أنفَقتَهُ على أهلكَ**»(٣).

وقال ﷺ لسعد بن أبى وقاص رضى اللَّه عنه: «**إنكَ لَن تُنفقَ نفقةً تبتغى بها وجهَ اللَّه إلاَّ أُجِرْت بها، حتى ما تَجعَلُ فى فِيِّ امرأتكَ**»(٤).

وهذا الأجر مرهون بالنيّة الصالحة، ولهذا قال ﷺ: «**إذا أنفق الرجلُ على أهله نفقةً يحتسبُهَا فهى له صدقةٌ**»(٥).

أما الخصلة الثالثة: فـهى متابعة الصيام: والمراد بها المحـافظة على الأيام

---

(١) متفق عليه: خ (٣٤٨٢/ ٦/٥١٥)، م (٢٢٤٢/ ١٧٦٠/ ٤).
(٢) متفق عليه: خ (٢٣٦٣/ ٤٠ و٥/٤١)، م (٢٢٤٤/ ١٧٦١/ ٤)، د (٢٥٣٣/ ٢٢٢/ ٧).
(٣) صحيح: م (٩٩٥/ ٦٩٢/ ٢).
(٤) متفق عليه: خ (١٢٩٥/ ١٦٤/ ٣)، م (١٦٢٨/ ١٢٥٠ و١٢٥١/ ٣)، د (٢٨٤٧/ ٦٤ - ٦٦/ ٨).
(٥) متفق عليه: خ (٥٥/ ١٣٦/ ١)، م (١٠٠٢/ ٦٩٥/ ٢)، نس (٦٩/ ٥).

التى يشرع صيامها تطوعاً، فمن صامها بعد صيام رمضان فقد تابع الصيام.

ومن هذه الأيام:

ستة من شوال: لقوله ﷺ: «**مَن صَامَ رمضانَ ثم أتبعَهُ ستًّا من شوّال فكأنما صامَ الدهرَ**»(١).

الاثنين والخميس: لأن النبى ﷺ كان يصومهما، وسُئل عن ذلك فقال: «**إنَّ أعمالَ العبادِ تُعْرض يومَ الاثنينِ والخميسِ**»(٢).

ثلاثة أيام من كل شهر: عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: أوصانى خليلى ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتى الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام(٣). ويستحب أن تكون: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر. عن أبى ذرّ رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا صمتَ مِنَ الشهرِ ثَلاثاً فصُمْ ثلاثَ عَشرةَ، وأربع عشرة، وخمس عشرة**»(٤).

عشر ذى الحجة: عن بعض أزواج النبىّ ﷺ قالت: «كان رسول اللَّه ﷺ يصوم تسع ذى الحجة، ويوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر: أول اثنين من الشهر والخميس»(٥).

يوم عرفة: عن أبى قتادة رضى اللَّه عنه قال: سئل رسول اللَّه ﷺ عن

---

(١) صحيح: م (١١٦٤/ ٨٢٢/ ٢)، ت (٧٥٦/ ١٢٩/ ٢)، د (٢٤١٦/ ٨٦/ ٧).
(٢) صحيح: د (٢٤١٩/ ١٠٠/ ٧).
(٣) متفق عليه: خ (١١٧٨/ ٥٦/ ٢٣)، م (٧٢١/ ٤٩٩/ ١)، د (١٤١٩/ ٣١٠/ ٤)، ت (٧٥٧/ ١٣٠/ ٢)، نس (٢٢٩/ ٣).
(٤) صحيح: ت (٧٥٨/ ١٣٠/ ٢)، نس (٢٢٢/ ٤).
(٥) صحيح: د (٢٤٢٠/ ١٠٢/ ٧).

صوم يوم عرفة؟ قال: «**يكفّرُ السّنةَ الماضيةَ والباقيةَ**»[١].

يوم عاشوراء: عن أبي قتادة رضي اللّه عنه قال: سئل رسول اللّه ﷺ عن صيام يوم عاشوراء؟ فقال: «**يكفّر السّنةَ الماضيةَ**»[٢].

يوم تاسوعاء: عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**لئن بقيتُ إلى قابلٍ لأصومَنَّ التاسعَ**»[٣].

أما الخصلة الرابعة: فهي قيام الليل:

وقيام الليل عنوان الإيمان، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ [السجدة: ١٥، ١٦].

هو دليل الإحسان، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الذاريات: ١٥-١٨].

وقد فرّق اللّه تعالى بين من يقوم الليل ومن لا يقوم، فقال تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٩].

---

(١) صحيح: م (١١٦٢/٨١٨/٢)، ت (٧٤٦/١٢٥، ٤٧٩/١٢٦/٢)، جه (١٧٣٠/٥٥١، ١٧٣٨/٥٥٣/١).

(٢) صحيح: م (١١٦٢/٨١٨/٢)، ت (٧٤٦/١٢٥، ٤٧٩/١٢٦/٢)، جه (١٧٣٠/٥٥١، ١٧٣٨/٥٥٣/١).

(٣) صحيح: م (١١٣٤/٧٩٦/٢)، د (٢٤٢٨/ ١١٠/٧).

وقيام الليل سنّة مؤكدة، فقد كان ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه[١].

وكان يصلّي كلّ ليلة إحدى عشرة ركعة، وإذا تركها ليلةً لعذرٍ أو نحوه صلّى من النهار ثِنْتَيْ عشرة ركعة[٢].

ولقد كان ﷺ يرغّب في قيام الليل فيقول: «**إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدّها اللَّهُ لمن ألانَ الكلامَ، وأطعمَ الطعامَ، وتابعَ الصيامَ، وصلّى الليلَ والناسُ نيامٌ**»[٣].

وكان أول ما صدع به عند وصوله المدينة قوله: «**يا أيها الناس: أفشُوا السلامَ، وأطعمُوا الطعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصلُّوا بالليلِ والناسُ نيامٌ ـ تَدخلُوا الجنةَ بسلامٍ**»[٤].

وكان ﷺ يحث الأزواج على التعاون على قيام الليل فيقول: «**رحمَ اللَّه رجلاً قامَ منَ الليل فصلّى وأيقظَ امرأتَه فإن أبَتْ نَضَحَ في وَجهِهَا الماءَ، ورَحمَ اللَّه امرأةً قَامَتْ من الليلِ فَصَلَّتْ وأيقظَت زَوجَهَا فإنْ أبى نَضَحتْ في وجهِه الماءَ**»[٥].

فإن عجز المسلم عن قيام الليل فما عليه إلا أن يحافظ على صلاة العشاء والفجر في جماعة، فإن هاتين الصلاتين ثقيلتان، ولذا عظم أجر من يشهدهما، قال ﷺ: «**مَن صلّى العشاءَ في جَماعةٍ فكأنما قَامَ نِصفَ الليلِ، ومَن صلّى الفجرَ في جَمَاعةٍ فكأنما قَامَ الليلَ كُلّه**»[٦].

---

(١) متفق عليه : خ (٤٨٣٧/ ٥٨٤/ ٨) ، م (٢٨٢٠/ ٢١٧٢/ ٤) .
(٢) صحيح : م (٧٤٦ـ١٤٠ـ ٥١٢/ ١)
(٣) حسن: ت (٢٠٥٠/ ٢٣٨/ ٣)
(٤) صحيح: جه (٣٢٥١/ ١٠٨٣/ ٢) وهذا لفظه ،ت (٢٦٠٣/ ٦٥/ ٤)،وليس عنده الجملة الثالثة.
(٥) حسن صحيح : د(١٢٩٤/ ١٩٣/ ٤) ، جه (١٣٣٦/ ٤٢٤/ ١) ،نس (٢٠٥/ ٣)
(٦) صحيح: م (٦٥٦/ ٤٥٤/ ١) وهذا لفظه ،(٥٥١/ ٢٦١/ ٢) ، ت(٢٢١/ ٤١٤/ ١٤٢/ ١) .

وقد قابل بعض العلماء هذه الصفات بالصفات المذكورة فى سورة الفرقان فى وصف عباد الرحمن فقال: قوله ﷺ: «**لمن ألانَ الكَلامَ**» يقابل قول اللَّه تعالى: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وفيه إشارة إلى أن لين الكلام من صفات الصالحين الذين خضعوا لبارئهم، وعاملوا الخلق بالرفق فى الفعل والقول.

وقوله: «**وأطعمَ الطَّعَامَ**» يقابل قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾ [الفرقان:٦٧]، وفيه إشارة إلى ضرورة توخّى القصد فى الإطعام والبذل، فلا يجوز أن يمسك إلى درجة البخل، ولا أن يجود إلى درجة الإسراف.

وقوله: «**وتابعَ الصِّيَامَ**» يقابل قوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا**﴾ [الفرقان: ٧٥]، فالصوم هو الصبر.

وقوله: «**وصَلَّى بالليلِ والناسُ نِيَامٌ**» يقابل قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٤].

والدليل على صحة المقابلة اتحاد الجزاء فى الحديث والآية، فقد وعد النبى ﷺ المتصفين بهذه الصفات بغرف الجنة فقال: «**إنَّ فى الجنة غُرَفاً ...**»، ووعد اللَّه تعالى عباده عباد الرحمن بالغرف أيضاً، فقال: ﴿**أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ...**﴾.

نسأل اللَّه العظيم ربّ العرش العظيم أن يجعلنا من أهل هذه الغرف.

❊ ❊ ❊



الحديث العاشر

عَنْ عَمْرِو بن الأَحْوَصِ الْجُشَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سمع النَّبيَّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ تعالى وأثنى عَلَيْهِ وَذَكَّرَ وَوَعَظَ ثُمَّ قَالَ: «أَلا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خيرًا، فإنَّما هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، إلاَّ أَنْ يأتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُم فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً. أَلا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا. فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. أَلاَ وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ»(١).

يقول اللَّه تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] .

فما يوجد من المودة والرحمة بين الزوجين لا يكاد يوجد بين اثنين.

---

(١) حسن صحيح: رواه الترمذي (١١٧٣/ ٣١٥/ ٢).

والله سبحانه يحب للأزواج دوام المودة والرحمة، ولذا شرع لهم من الحقوق ما يحفظ أداؤه المودة والرحمة من النفاد أو الضياع، فقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] .

وهذه الكلمة على إيجازها جمعت ما لا يؤدى بالتفصيل إلا فى سفر كبير، فهى قاعدة كليّةٌ ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق، إلا أمراً واحداً عبّر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقد أحال فى معرفة ما لهنّ وما عليهنّ على المعروف بين الناس ومعاشراتهم ومعاملاتهم فى أهليهم، وما يجرى عليه عرف الناس هو تابع لشرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم. فهذه الجملة تعطى الرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجه فى جميع الشئون والأحوال، فإذا همّ بمطالبتها بأمر من الأمور تذكّر أنه يجب عليه مثله بإزائه. ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما: إنى لأتزيّن لامرأتى كما تتزيّن لى.

فالمسلم الحق يعترف بما لزوجته عليه من الحقوق، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وكما قال النبى ﷺ: «**ألا إنَّ لَكُم على نِسَائِكُم حَقًّا، ولنِسَائِكُم عَلَيكُم حَقًّا**»[١].

والمسلم الواعى يحاول دائماً أن يؤدى لزوجه حقها غير ناظر فى حقه أستوفاه أم لا ؟ لأنه حريص على دوام المودة والرحمة بينهما، كما أنه حريص على تفويت الفرصة على الشيطان الذى يحرّش بينهما ليتفرقا.

---

(١) حسن صحيح: رواه الترمذى (١١٧٣/ ٣١٥/ ٢).

ومن باب «الدين النصيحة» :

نذكر الآن حق المرأة على الرجل، ثم نذكر بعد ذلك حق الرجل على المرأة، لعل الأزواج يتعظون فيتواصون بالحق ويتواصون بالصبر.

إن لنسائكم عليكم حقًا :

وأوّل ذلك: **أن يعاشر الرجلُ المرأةَ بالمعروف**، لقوله تعالى: **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾** [النساء: ١٩].

وذلك بأن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى، ويؤدبها إذا خاف نشوزها بما أمر اللَّه أن يُؤدب به النساء، بأن يعظها موعظة حسنة من غير سبّ ولا شتم ولا تقبيح، فإن أطاعت وإلا هجرها فى الفراش، فإن أطاعت وإلا ضربها فى غير الوجه ضرباً غير مبرّح، لقوله تعالى:

﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾ [النساء: ٣٤].

ولقوله ﷺ وقد سئل: ما حق زوجة أحدنا عليه؟ فقال: «**أن تُطعمَها إذا طَعِمتَ، وتكسُوها إذا اكتسَيْتَ، ولا تَضْرِبِ الوجهَ ولا تُقبِّحْ ولا تهجرْ إلا فى البيت**»[1].

إن من مظاهر اكتمال الخلق ونمو الإيمان أن يكون المرء رفيقاً رقيقاً مع أهله كما قال النبى ﷺ: «**أكملُ المؤمنينَ إيماناً أحسنُهم خُلُقاً، وخيارُكُم خيارُكُم لنسائهم**»[2].

فإكرام المرأة دليل الشخصية المتكاملة، وإهانتها علامة على الخسّة واللؤم.

---

(١) صحيح: د (٢١٢٨/ ١٨٠/٦)، جه (١٨٥٠/ ٥٩٣/ ١).
(٢) صحيح: ت (١١٧٢/ ٣١٥/ ٢).

ومن إكرامها التلطف معها ومداعبتها اقتداء برسول اللّه ﷺ، فقد كان يتلطف مع عائشة ويسابقهـا، حتى قالت: «سابقنى رسولُ اللّه ﷺ فسبقـته، فلبثنا حتى إذا أرهقنى اللحم سابقنى فسبقنى، فقال: هذه بتلك»[١].

ولقد عدّ النبىُّ ﷺ اللهو باطلاً إلا ما كان مع الأهل، فقال ﷺ: «**كُلُّ شىء ليسَ من ذكرِ اللّه عزَّ وجل فـهو [لغوٌ، ولهوٌ] أو سهوٌ إلا أربعَ خِـصال، مشى الرجلِ بين الفرضينِ، وتأديبه فرسَه، وملاعبتُه أهلَه، وتعلُّمُ السباحةِ**»[٢].

٢ـ ومن حق المرأة على الرجل أن يـصبـر على أذاها، وأن يعـفـو عمـا يكون منها من زلات:

لقوله ﷺ: «**لا يفركُ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كَرِهَ منها خُلُقاً رَضِىَ منهَا آخَر**»[٣].

وقال ﷺ: «**استوصُوا بالنساء خَـيراً فإنهنّ خُلقْنَ من ضلعٍ، وإن أعوجَ ما فى الضلعِ أعلاهُ، فإنْ ذهبت تُقيمُه كسرتَهُ، وإن تركـتَهُ لم يزل أعوجَ، فاستوصُوا بالنساءِ خيراً**»[٤].

وقـال بعض السـلف: اعلم أنه ليس حُـسْنُ الخـلق مع المرأة كفّ الأذى عنها، بل تحمل الأذى منها، والحلم على طيشها وغضبها، اقتداء برسول اللّه ﷺ، فقد كانت نساؤه يراجعنه وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل[٥].

---

(١) صحيح: د (٢٥٦١/٢٤٣/٧).

(٢) صحـيح: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» (٣١٥) وقال: أخرجه النسائى فى كتاب «عشرة النسـاء» (ت٧٤/ ٢) والطبرانى فـى «المعجم الكبـير» (١/ ٨٩/ ٢)، وأبـو نعيم فى أحـاديث أبى القاسم الأصم» (ت ١٧-١٨).

(٣) صحيح : م (١٤٦٩/ ١٠٩١/ ٢) فرك كره وأبغض وأكثر ما يستعمل فى بغض الزوجين.

(٤) متفق عليه : خ(٥١٨٦/ ٢٥٣/ ٩) ، م (١٤٦٨/ ٦٠/ ١٠٩١/ ٢) .

(٥) مختصر منهاج القاصدين (ص ٧٨،٧٩) أى الغزالى .

٣- ومن حق المرأة على الرجل أن يصونها ويحفظها من كل ما يخدش شرفها ويثلم عرضها ويمتهن كرامتها:

فيمنعها من السفور والتبرج، ويحول بينها وبين الاختلاط بغير محارمها من الرجال، كما عليه أن يوفّر لها حصانة كافية ورعاية وافية، فلا يسمح لها أن تفسد فى خلق أو دين، ولا يفسح لها المجال أن تفسق عن أوامر اللَّه ورسوله أو تفجر، إذ هو الراعى المسئول عنها والمكلف بحفظها وصيانتها، لقول اللَّه تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ [النساء: ٣٤].

ولقول النبى ﷺ: «**والرجلُ راعٍ فى بيتِهِ وهُو مسئولٌ عَن رعيتِه**»[١].

٤- ومن حق المرأة على الرجل أن يعلمها الضرورى من أمور دينها، أو يأذن لها أن تحضر مجالس العلم:

فإن حاجتها لإصلاح دينها وتزكية روحها ليست أقلّ من حاجتها إلى الطعام والشراب الواجب بذلهما لها، وذلك لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦].

والمرأة من الأهل، ووقايتها من النار بالإيمان والعمل الصالح، والعملُ الصالح لابد له من العلم والمعرفة، حتى يمكن أداؤه والقيام به على الوجه المطلوب شرعاً.

٥- ومن حق المرأة على الرجل أن يأمرها بإقامة دين اللَّه والمحافظة على الصلاة:

لقوله تعالى: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ [طه: ١٣٢].

---

(١) متفق عليه: خ (٨٩٣/ ٣٨٠/ ٢)، م (١٨٢٩/ ١٤٥٩/ ٣).

٦- ومن حق المرأة على الرجل أن يـأذن لها فى الخـروج من البـيت إذا احتاجت إليه:

كأن ترغب فى شهود الجماعة، أو فى زيـارة أهلها وأقاربها أو جيرانها، بشرط أن يأمـرها بالجلباب، وينهـاها عن التبرج والسـفور، كمـا ينهاها عن العطر والبخور، ويحذرها من الاختلاط بالرجال ومـصافحتهم، كما يحذرها من رؤية التلفزيون وسماع الأغانى.

٧- ومن حق المرأة على الرجل أن لا يفشى سرّها، وأن لا يذكر عيبها:

إذ هو الأمين عليها، والمطالب برعايتها والذود عنها، ومن أخطر الأسرار أسرار الفـراش ولذا حذّر النبىُّ ﷺ من إذاعتها. عن أسـماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله ﷺ والرجال والنساء قعود فقال : « **لعلَّ رجلاً يقولُ ما يفعلُ بأهلِه ، ولعلَّ امـرأةً تُخبرُ بما فَعَلَتْ مـع زَوجهَا؟** » فأرم القـوم فقلت : إى والله يا رسول الله إنهن ليفـعلن ، وإنهم ليفعلون. قال: « **فـلا يَفعلُوا ، فـإنما ذلكَ مَثلُ الشيطانِ لَقِى شَيطانةً فِى الطريقِ ، فَغَشيَها والناسُ يَنظُرُون** »[1].

٨- ومن حق المرأة على الرجل أن يستشيـرها فى الأمور ولا سيما التى تخصّهما وأولادهما:

اقـتداء برسـول اللَّه ﷺ، فقد كان يستـشير نساءه ويأخذ برأيهن، ومن ذلك ما كان منه يوم الحـديبية حين فرغ من كتابة الصـلح ثم قال لأصحابه: «**قُومُـوا فانحـرُوا، ثم احلِقُوا**» فواللَّه ما قـام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لـم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة رضى اللَّه عنهـا، فذكر

(١) صحيح:أ (٢٣٧/ ٢٢٣/ ١٦) .

لها ما لَقِيَ من الناس. فقالت: يا نبيَّ اللَّه أتحبّ ذلك؟ اخرج، ولا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًّا[1].

وهكذا جعل اللَّه لرسوله ﷺ فى رأى زوجه أم سلمة الخير الكثير، خلافاً للأمثلة الجائرة الظالمة التى تنهى عن مشاورة النساء وتحذر منها، كقولهم بالعامية: شورة المرأة إن نفعت بخراب سنة، وإن ما نفعت بخراب العمر.

٩- ومن حق المرأة على الرجل أن يرجع إليها بعد العشاء مباشرة:

وألا يسهر خارج المنزل إلى ساعة متأخرة من الليل، فإن هذا يؤرقها ويزعجها قلقاً عليه، إن لم تدب فى صدرها الوساوس والشكوك إن طال السهر وتكرر، بل من حق المرأة على الرجل أن لا يسهر فى البيت بعيداً عنها ولو فى الصلاة حتى يؤديها حقها، ومن هنا أنكر النبى ﷺ على عبد اللَّه بن عمرو طول سهره واعتزال امرأته، وقال له: «**إنَّ لِزَوجِكَ عَلَيكَ حَقًّا**»[2].

١٠- ومن حق المرأة على الرجل أن يعدل بينها وبين ضرتها إن كان لها ضرة:

يعدل بينهما فى الطعام والشراب، واللباس، والسكن، والمبيت فى الفراش، ولا يجوز أن يحيف فى شىء من ذلك أو يجور ويظلم، فإن اللَّه حرّم هذا، قال النبىُّ ﷺ: «**من تزوجَ امرأتينِ فمالَ إلى إحداهُما دونَ الأُخرَى**

(١) صحيح: خ (٢٧٣١ و٢٧٣٢/ ٣٢٩/ ٥).

(٢) متفق عليه: خ (١٩٧٥/ ٢١٧ و٢١٨/ ٤)، م (١١٥٩ - ١٨٢ -/ ٨١٣/ ٢)، نس (٤١١/ ٤).

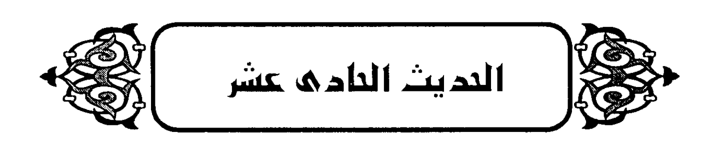
جاءَ يَومَ القيامةِ وشِقُّه مائلٌ»[1].

هذه هى حقوق نسائكم عليكم، فالواجب عليكم أن تجتهدوا فى أداء هذه الحقوق لهن، وأن لا تألوا جهداً فى ذلك، فـإن قيامكم بهذه الحقوق من أسباب سعـادتكم فى حياتكم الزوجية، ومن أسباب استـقرار البيوت وسلامـتها وخلوها من المشـاكل التى تؤرّقكم وتفقـدكم الراحة والسكون والمودة والرحمة.

ونذكر النساء بضرورة غض طرْفهن عن تقـصير أزواجهن فى حقهن وأن يقابلن تقصـير الرجال بالاجتهـاد فى خدمتهم، وبذلك تدوم الحيـاة الزوجية سعيدة.

* * *

(١) صحـيح: د (٢١١٩/١٧١/٦)، ت (١١٥٠/٣٠٤/٢)، نس (٦٣/٧)، جـه (١٩٦٩/ ١٦٣٣/١).



الحديث الحادى عشر

عَنْ أَنس بن مَالك رَضىَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَال: «لاَ يَصْلُحُ لبَشَرٍ أنْ يَسْجُدَ لبَشَرٍ، وَلَوْ صَلَحَ أنْ يَسْجُدَ بَشرٌ لبَشَرٍ لأَمَرْتُ الْمرأةَ أنْ تَسْجُدَ لزَوْجهَا منْ عظمِ حَقّه عَلَيْهَا، وَالَّذى نَفْسى بيَده لَوْ أنّ من قَدَمه إلَى مَفْرق رَأْسه قُرْحَةً تَنْبَجس بالْقَيح وَالصَّديد ثُمّ أقْبَلت تَلْحَسُهُ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ»[1].

إن حقّ الرجل على المرأة عظيم، بيّن النبىّ ﷺ عظمته بقوله: **«والَّذى نفسى بيده لو أنَّ من قدمه إلى مفرقِ رأسِه قرحةٌ تنبجسُ بالقيحِ والصديدِ، ثم أقبلَتْ تَلحَسُهُ ما أدَّتْ حَقَّهُ»**[2].

والمرأة الكيسة الفطنة هى التى تعظّم ما عظّم اللّه ورسوله، وهى التى تقدر زوجها حق قدره: فتجتهد فى طاعته لأن طاعته من موجبات الجنّة، قال ﷺ: **«إذا صلّت المرأةُ خمسَها، وصامَتْ شهرَهَا، وحفظتْ فرجَهَا، وأطاعَتْ زَوجَهَا، قِيلَ لَها ادخُلى الجنةَ من أى أبوابِهَا شئتِ»**[3].

---

(١) صحيح: أ (٢٤٧/٢٢٧/١٦).
(٢) صحيح: أ (٢٤٧/٢٢٧/١٦).
(٣) صحيح: أ (٢٥٠/٢٢٨/١٦).

فتأملى أيتها المسلمة كيف جعل النبىّ ﷺ طاعة الزوج من موجبات الجنة كالصلاة والصيـام، فالزمى طاعته، واجـتنبى معصـيته، فإن فـى معصيـتـه غضب الربّ سبحـانه وتعالى، قال النبىّ ﷺ: **«والذى نفسى بيَده، مـا من رجلٍ يَدعُو امرأتهُ إلى فراشهِ فتأبَى عَليه إلا كَانَ الذى فى السماءِ سَاخطاً عليها حتى يَرضَى عَنهَا»**(١).

فالواجب عليك أيتـها المسلمة أن تدينى لزوجك بالسـمع والطاعة فى كل ما يأمرك به مما لا يخالف الشرع، واحذرى كل الحـذر من الإفراط فى الطاعة حتى تطيعيه فى المعصية، فإنك إن فعلت كنت آثمة.

ومن ذلك مثـلاً: أن تطيعيه فى إزالة شـعر وجهك تجملاً له، فـقد لعن النبى ﷺ النامصة والمتنمصة(٢).

ومن ذلك: أن تطيعيه فى ترك الخـمار عند الخروج من البيت لأنه يحبّ أن يتباهى بجمالك أمام الناس، فقد قال ﷺ: **«صنفانِ من أمتى لم أرهُما بعدُ: رجالٌ مـعهم سـياطٌ كأذنابِ البـقرِ يَضـرِبُونَ بهَا الناسَ، ونسَاءٌ كـاسيَـاتٌ عارياتٌ مميلاتٌ مَائلاتٌ رُءُوسُهنّ كأسنمة البُخت المائلة، لا يَدخُلنَ الجنةَ ولا يجدنَ رِيحَهَا، وإن رِيحَهَا ليوجَدُ من مسيرَةِ كَذَا وكَذَا»**(٣).

ومن ذلك أن تطيعيه فى الوطء فى المحيض أو فى غير ما أحلّ اللَّه، فقد قال ﷺ: **«مَن أتى حَائضاً، أو امرأةً فى دُبُرِهَا، أو كَاهناً فصدّقهُ بما يَقُولُ فَقَد كَفَر بما أنزِلَ على مُحَمَّدٍ»**(٤).

---

(١) صحيح: نس (٨/١٤٦)، ت (٤/١٩٣/٢٩٣٢)، جه (١/٦٤٠ /١٩٨٩).

(٢) متفق عليه: خ (٨/٦٣٠ /٤٨٨٦)، م (٣/١٦٧٨/٢١٢٥)، د (١١/٢٢٥/٤١٥١).

(٣) صحيح: م (٣/١٦٨٠ /٢١٢٨).

(٤) صحيح: جه (١/٢٠٩/٦٣٩)، ت (١/٩٠ /١٣٥) وليس عنده جملة «فصدقه بما يقول».

ومن ذلك أن تطيعيه في الظهور على الرجال والاختلاط بهم ومصافحتهم، فقد قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقال النبي ﷺ: «**إياكُم والدخولَ على النساءِ**» قيل: يا رسول اللَّه! أفرأيت الحمو؟ (وهو قريب الزوج كأخيه وابن أخيه وعمه وابن عمه ونحوهم) قال: «**الحمو الموتُ**»[1]. وقيسي على ذلك كل ما يخالف شرع ربك، فلا تغتري بما يلزمك من الطاعة لزوجك حتى تطيعيه في المعصية، فإنما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

٢- ومن حق الزوج على زوجته أن تصون عرضه، وتحافظ على شرفها، وأن ترعى ماله وولده وسائر شئون منزله:

لقوله تعالى: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ**﴾ [النساء: ٣٤].

ولقول النبي ﷺ: «**والمرأةُ راعيةٌ في بَيت زَوجِهَا ومَسئولةٌ عَن رَعيتهَا**»[2].

٣- ومن حق الزوج على زوجته أن تتزين له وتتجمل، وأن تبتسم في وجهه دائماً ولا تعبس، ولا تبدو في صورة يكرهها:

فقد قال ﷺ: «**خيرُ النساء مَن تَسرّكَ إذا أَبصَرتَ، وتُطيعُكَ إذا أَمَرتَ، وتَحفَظُ غيبتَك في نفسِها ومالكَ**»[3].

والعجب كل العجب من إهمال المرأة لنفسها في بيتها بحضرة زوجها،

---

(١) متفق عليه: خ (٥٢٣٢/ ٣٣٠/ ٩)، م (٢١٧٢/ ١٧١١/ ٤)، ت (١١٨١/ ٣١٨/ ٢).

(٢) جزء من حديث «والرجل راع ...» وقد سبق.

(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٩٤) وعزاه للطبراني.

وإفراطها فى الاهتمام بنفسها وإبداء زينتها عند الخروج من بيتها، حتى صدق فيها قول من قال: قردٌ فى البيت وغزال فى الشارع!!! فاتق اللَّه يا أمة اللَّه فى نفسك وزوجك، فإنه أحقّ الناس بزينتك وتجملك، وإياك وإبداء الزينة لمن لا يجوز له رؤيتك، فإن هذا من السفور المحرّم.

٤- ومن حق الزوج على زوجته أن تلزم بيته فلا تخرج منه ـ ولو إلى المسجد ـ إلا بإذنه: لقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٥- ومن حق الزوج على زوجته أن لا تأذن فى بيته إلا بإذنه، لقوله ﷺ: **«فحقُّكُم عليهنّ أن لا يُوطِئنَ فُرُشَكُم مَن تكرَهُون، ولا يأذنَّ فى بُيُوتكُم لمن تكرَهُون»**[1].

٦- ومن حق الزوج على زوجته أن تحفظ ماله، وأن لا تنفق منه إلا بإذنه، لقوله ﷺ: **«ولا تنفقِ امرأةٌ شيئاً من بيتِ زوجِها إلا بإذنِ زوجِها»**. قيل: ولا الطعام؟ قال: **«ذلكَ أفضلُ أموَالِنَا»**[2].

٧- بل من حق الزوج على زوجته أن لا تنفق من مالها إن كان لها إلا بإذن زوجها، لقوله ﷺ: **«ليسَ للمرأةِ أن تنتهكَ شيئاً من مالها إلا بإذنِ زَوجِهَا»**[3].

٨- ومن حق الزوج على زوجته أن لا تصوم تطوعاً وهو شاهد إلا بإذنه، لقوله ﷺ: **«لا يحلُّ للمرأةِ أن تصومَ وزَوجُهَا شَاهِدٌ إلا بِإذنِه»**[4].

---

(١) هو جزء من حديث عمرو بن الأحوص السابق.

(٢) حسن: ت (٢٢٠٣/ ٢٩٣/ ٣)، د (٣٥٤٨/ ٤٧٨/ ٩)، جه (٢٢٥٩/ ٧٧٠/ ٢).

(٣) صحيح: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» (٧٧٥)، وقال: أخرجه تمام فى «الفوائد» (١٠/ ١٨٢/ ٢)، وإسناده ضعيف إلا أن له شواهد تدل على أنه ثابت.

(٤) صحيح: خ (٥١٩٥/ ٢٥٩/ ٩).

٩- ومن حق الزوج على زوجته أن لا تمنّ عليه بما أنفقت من مالها في بيتها وعلى عيالها، فإن المنّ يبطل الأجر والثواب، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

١٠- ومن حق الزوج على زوجته أن ترضى باليسير، وأن تقنع بالموجود، وأن لا تكلفه من النفقة ما لا يطيق، فقد قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

١١- ومن حق الزوج على زوجته أن تحسن القيام على تربية أولادها منه في صبر، فلا تغضب على أولادها أمامه، ولا تدعو عليهم، ولا تسبّهم، فإن ذلك قد يؤذيه والرسول ﷺ يقول: «لا تُؤذي امرأةٌ زوجَها في الدنيا إلا قالتْ زَوجتُه من الحورِ العينِ: لا تُؤذيه قاتلكِ اللَّه، فإنما هُوَ دَخيلٌ عندكِ يُوشكُ أن يفارِقَكِ إلينَا»(١).

١٢- ومن حق الزوج على زوجته أن تحسن معاملة والديه وأقاربه، فما أحسنت إلى زوجها من أساءت إلى والديه وأقاربه.

١٣- ومن حق الزوج على زوجته أن لا تمنع منه نفسها متى طلبها، لقوله ﷺ: «إذا دعا الرجلُ امرأتَهُ إلى فراشه فلم تأته فبَاتَ غضبانَ عليها لعَنَتهَا الملائكةُ حتى تُصبحَ»(٢). وقال ﷺ: «إذا دعا الرجلُ زوجتَهُ لحاجته فلتأته وإن كانتْ عَلَى التَّنُّورِ»(٣).

---

(١) صحيح: ت (١١٨٤/ ٣٢٠/٢).
(٢) متفق عليه: خ (٥١٩٤/٢٩٤/٩)، م (١٤٣٦/ ١٠٦٠/٢)، د (٢١٢٧/١٧٩/٦).
(٣) صحيح: ت (١١٧٠/ ٣١٤/٢).

١٤- ومن حق الزوج على زوجته أن تكتم سرّه وسرّ بيته، ولا تفشى من ذلك شيئاً.

ومن أخطر الأسرار التى تتهاون النساء بإذاعتها أسرار الفراش وما يكون بين الزوجين فيه، وقد نهى النبى ﷺ عن ذلك. فعن أسماء بنت يزيد رضى اللّه عنها أنها كانت عند النبى ﷺ والرجال والنساء قعود، فقال ﷺ: **«لعلّ رجلاً يقولُ ما يفعلُ بأهله، ولعلّ امرأةً تخبرُ بما فعلتْ مَعَ زَوجهَا»**.

فأرمّ القوم. فقلت: إى واللّه يا رسول اللّه، إنهن ليفعلن وإنهم ليفعلون.

فقال ﷺ: **«فلا تفعلُوا، فإنما مثلُ ذلك كمثلِ شيطانٍ لقىَ شَيطانَةً فى طَرِيقٍ فَغَشيَهَا والناسُ ينظُرونَ»**[(١)].

١٥- ومن حق الزوج على زوجته أن تحرص عليه وتحافظ على الحياة معه، ولا تسأله الطلاق من غير سبب.

فقد قال ﷺ: **«أيما امرأة سألتْ زوجَها الطلاقَ من غيرِ بأسٍ فحرامٌ عليها رائحةُ الجنة»**[(٢)]. وقال ﷺ: **«المُختَلعَاتُ هُنَّ المنافقاتُ»**[(٣)].

هذه أيتها المسلمة حقوق زوجك عليك، فعليك أن تجتهدى فى القيام بها حق القيام، وأن تغضى الطرْف عن تقصير زوجك فى حقك، فإنه بذلك تدوم المودة والرحمة، وتصلح البيوت، ويصلح المجتمع بصلاحها.

---

(١) صحيح: أ (١٦/٢٢٣/٢٣٧).
(٢) صحيح: ت (١١٩٩/٣٢٩/٢)، د (٢٢٠٩/٣٠٨/٦)، جه (٢٠٥٥/٦٦٢/١).
(٣) صحيح: ت (١١٩٨/٣٢٩/٢).

وعلى الأمهات أن يَعْلَمْنَ أن من الواجب عليهن أن يبصّرن بناتهن بحقوق أزواجهن وأن تذكّر كل أم بنتها بهذه الحقوق قبل زفافها، سنة نساء السلف رضى اللَّه عنهن فقد خطب عمرو بن حجر ملك كندة أمَّ إياس بنت عوف الشيبانى، فلما حان زفافها إليه خلت بها أمها أمامة بنت الحارث فأوصتها وصيّة بينت فيها أسس الحياة الزوجية السعيدة وما يجب عليها لزوجها، فقالت:

أى بنيّة: إن الوصية لو تركت لفضل أدب لتركت ذلك لك، لكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل. ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها ـ كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلقن ولهنّ خلق الرجال.

أى بنيّة: إنك فارقت الجوّ الذى منه خرجت، وخلّفت العش الذى فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكًا. واحفظى له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً.

أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشمّ منك إلا أطيب ريح.

وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه وعياله،

وملاك الأمر فى المال حسن التقدير، وفى العيال حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصى له أمراً، ولا تفشى له سرًّا، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره.

ثم إياك والفرحَ بين يديه إن كان مهموماً، والكآبة بين يديه إن كان مسروراً(١).

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

[الفرقان: ٧٤]

* * *

(١) فقه السنة (٢/٢٠٠).

الحديث الثاني عشر

عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ بِالصُّفَّةِ فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَن يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِي مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطِيعَةِ رَحِمٍ؟»

فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ.

قَالَ: «أَفَلاَ يَغْدُو أَحَدُكُم إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَتَعَلَّمُ أَوْ يَقْرأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلاَثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلاَثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ»(١).

هذا حديث عظيم جداً، أراد به النبى ﷺ الترغيب فى الغدو إلى طلب العلم، فضرب لهم هذا المثل تقريبًا للفهم:

«**أيُّكُم يُحِبُّ أن يغدوَ**» أى يذهب فى الغَدْوِ وهو أول النهار.

«**إلى بطحان**» اسم موقع بقرب المدينة.

«**أو العقيق**» وهو وادٍ بالمدينة، «**فيأتى منهُ بناقتيْن كوْماويْنِ**» الكوماء: الناقة

---

(١) صحيح: م (٨٠٣/ ٥٥٢ و٥٥٣/ ١)، د (١٤٤٣/ ٣٢٨ و٣٢٩/ ٤).

العظيمة السنام، وهى من خيار مال العرب.

«**فى غير إثم ولا قطيعة رحم**» يعنى يأخذ هاتين الناقتين حلالاً طيبًا من غير أن يرتكب ما يوجب الإثم ولا أن يقطع رحمًا. فقالوا: «كلنا نحب ذلك يا رسول اللَّه».

فقال ﷺ «**أفلا يَغدُو أحدُكُم إلى المسجد فَيَتَعلَّم أو يَقرأ آيتين من كتاب اللَّه خيْرٌ لهُ من نَاقَتين، وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاث، وأربعٌ خيرٌ له من أربعٍ، ومن أعدادهنَّ من الإبلِ**».

وهكذا أراد ﷺ أن يبين لهم أن الغدو فى طلب العلم خيرٌ من الغدو فى جمع مال كثير حلال طيب، وإنما ذكر هذا على سبيل التمثيل والتقريب، وإلا فمعلوم أن آية واحدة من كتاب اللَّه خير من الدنيا وما فيها، كما قال تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا**﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال على رضى اللَّه عنه: العلمُ خيرٌ من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالنفقة. وقال الزبير بن أبى بكر: كتب إلىَّ أبى بالعراق: عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالاً، وإن استغنيت كان لك جمالاً.

وقد دلّ على ذلك كتاب ربّنا، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [النمل: ١٥].

فخصّ العلم بالذكر مع أنه آتاهما مالاً وملكًا. وذكر أنهما قالا: الحمد للَّه، لاعتقادهما أنهما بالعلم فُضّلا على كثير من عباد اللَّه المؤمنين. وهذه الآية كقوله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء: ١١٣].

فَحُقَّ على كل مسلم أن يسعى فى طلب العلم قدر استطاعته، وأن يرحل فى طلبه ويركب الصعاب، فإن اللَّه تعالى قد أمر بذلك فقال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فحث سبحانه جماعة المسلمين على أن يخرج بعضهم فى طلب العلم حتى إذا رجعوا علّموا المقيمين. وسمّى سبحانه الخروج فى طلب العلم نفيرًا كالخروج فى طلب العدو، فدل على أن السفر لطلب العلم جهاد كالسفر لقتال الأعداء.

ولذا قال أبو الدرداء رضى اللَّه عنه: من رأى الغدْوَ والرواح فى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيه. وقال ابن عباس رضى اللَّه عنهما: أفضل الجهاد من بنى مسجدًا فعلّم فيه القرآن والفقه والسنة.

وقال معاذ بن جبل رضى اللَّه عنه: تعلّموا العلم فإن تعلّمه للَّه خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد. وعن عليّ الأزدى رضى اللَّه عنه قال: أردتُ الجهاد فقال ابن عباس: ألا أدلك على ما هو خيْر لك من الجهاد؟ تأتى مسجدًا فتُقْرِئ فيه القرآن، وتُعلِّم فيه الفقه.

ويُؤيد تلك الآثار قولُ النبى ﷺ: «من جاء مسجدى هذا لم يأته إلا لخير يتعلّمه أو يُعلّمه فهو بمنزلة المجاهد فى سبيل اللَّه»[١].

وقال ﷺ: «جاهدُوا المشركينَ بِأَموالكُمْ وأنفسِكُم وألسنَتِكُم»[٢]. ومعلوم

(١) صحيح: جه (٢٢٧/ ٨٢ و٨٣/ ١).

(٢) صحيح: د (٢٤٨٧/ ١٨٢/ ٧)، نس (٦/٧).

أن الجهاد باللسان إنما هو بإقامة الحجة عليهم، ودعائهم إلى اللَّه تعالى، ونحو ذلك. كما قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أى بالقرآن وما نزل إليك من الحق ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]

أى لا يخالطه فتور، بأن تلزمهم بالحجج والآيات، وتدعوهم إلى النظر فى سائر الآيات، لتزلزل عقائدهم.

وجديرٌ بالذكر أن العلم إنما يفضّل على الجهاد ما لم يتعين الجهاد، فإذا تعيّن لم يجز القعود عنه بحجة التعلم أو التعليم.

فيا أيها الشاب تعلّم، فإن طلب العلم فضيلة عظيمة، ومرتبة شريفة، ولو لم يكن فى طلب العلم إلا أن تنفى عن نفسك وصف الجهل لكفى. فكيف واللَّهُ تعالى قد وعد أن يرفع الذين أوتوا العلم درجات، ونفى التسوية بين أهل العلم وغيرهم كما نفاها بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، وكما نفاها بين الطيب والخبيث، وأهل الجنة وأهل النار. قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]

وقال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

وكذلك قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

بل إن اللَّه تعالى جعل الناس رجلين: عالمًا وأعمى، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩].

والمراد بالأعمى الجاهل الذى لم يتعلم ما أنزل اللَّه على رسوله من الهدى ودين الحق، فهو أعمى، لأن العلم نور، والجهل ظلمة، فالجاهل يتخبط فى ظلمات الجهل كالأعمى لا يهتدى سبيلا. ولذلك قيل: العالم يعرف الجاهل، والجاهل لا يعرف العالم.

والآيات فى فضل العلم وشرفه وشرف أهله كثيرة:

منها قوله تعالى: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

فأمر اللَّه تعالى النبى ﷺ أن يكتفى بإيمان أهل العلم عن إيمان مَن سواهم.

وقوله تعالى: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨]

فاستشهد سبحانه بأهل العلم على أنه لا إله إلا اللَّه، وأمر نبيّه ﷺ أن يستشهد بهم على أن محمدًا رسول اللَّه فقال تعالى ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾ [الرعد: ٤٣].

وأخبر سبحانه أن العلماء سيشهدون للأنبياء على أممهم يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة: ١٤٣]

والخطاب وإن كان للأمة إلا أنه من العام المخصوص، لأن الجاهل شهادته مردودة، ولذا قال الإمام البخارى رحمه اللَّه فى صحيحه، باب (وكذلك جعلناكم أمة وسطًا) وما أمر النبىّ ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم. ثم روى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يُجاءُ بنوحٍ يَومَ القيامَةِ فيُقالُ لهُ: هَل بَلَّغتَ؟ فيقولُ: نعمْ يارَبِّ. فتُسألُ أمّته: هَل بلّغكم؟ فيقولونَ: ما جاءَنا من نذير. فيقولُ: مَنْ شهودُك؟ فيقولُ: محمدٌ وأمتُه. فيُجاءُ بكُم فتشهدونَ. ثم قَرَأ رسولُ اللَّه ﷺ: ﴿وكذلك جعلناكم أمةَ وسطا﴾ ـ قال: عدلا ـ ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾»[(١)].

وحسبك فى فضل العلم أن اللَّه لم يأمر نبيّه أن يسأله المزيد من أى شىء سوى العلم، فقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ولذا كان ﷺ يقول بعد الانصراف من صلاة الصبح:

«اللهمَّ إنى أسألُكَ علمًا نافعًا، وعَمَلاً مُتَقَبلاً، ورزقًا طيِّبًا»[(٢)].

والأحاديث فى فضل العلم كثيرة، منها:

قوله ﷺ: «من سَلَكَ طريقًا يبتغى فيه علمًا سهّلَ اللَّهُ لهُ طريقًا إلى الجنّة وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَها لطالبِ العلمِ رضًا بما يصنعُ، وإن العالمَ لَيَستغفرُ له مَن فى السمواتِ ومَن فى الأرضِ حتى الحيتانُ فى الماء، وفضلُ العالمِ علَى العَابدِ كَفَضلِ القمرِ على سَائرِ الكواكب، وإنَّ العُلماءَ وَرَثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثوا ديناراً ولا دِرهمًا وإنما ورَّثُوا العلمَ، فَمَن أخذَهُ أَخَذَ بحَظٍّ وَافِرٍ»[(٣)].

---

(١) صحيح: خ (٤٤٨٧/ ١٧١ و١٧٢/٨)، ت (٤٠٤٠/ ٢٧٥/ ٤).

(٢) صحيح: رواه: جه (٩٢٥/ ٢٩٨/ ١)، أ (٧٧٦/ ٥٥/ ٤).

(٣) صحيح: د (٣٦٢٤/ ٧٢ - ٧٤/ ١٠)، جه (٢٢٣/ ٨١/ ١)، ت (٢٨٢٣/ ١٥٣/ ٤).

وسلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقى وهو المشى بالأقدام إلى مجالس العلماء، ويدخل فيه سلوك الطرق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم، مثل حفظه ومدارسته ومذاكرته، ومطالعته وكتابته والتفهم له ونحو ذلك من الطرق المعنوية التى يتوصل بها إلى العلم.

وقوله ﷺ: «**سهّلَ اللَّهُ له طريقًا إلى الجنة**» قد يراد بذلك أن اللَّه يسهل له العلم الذى طلبه وسلك طريقه وييسره عليه، فإن العلم يوصّل إلى الجنّة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ [القمر: ١٧].

قال بعض السلف: فهل من طالب علمٍ فيُعان عليه؟

وقد يُراد أن اللَّه ييسّر لطالب العلم الانتفاعَ به والعملَ بمقتضاه فيكون سببًا لهدايته ولدخول الجنّة.

وقد ييسّر اللَّه لطالب العلم علومًا أخر فينتفع بها وتكون موصّلة إلى الجنة، كما قيل: مَنْ عمِل بما عَلِم أورثه اللَّه علم ما لم يعلم. وكما قيل: إن من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها. وقد دلّ على ذلك قوله تعالى:

﴿**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾ [مريم: ٧٦]

وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾ [محمد: ١٧].

ومعنى وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم العطف عليه ورحمته، كما قال تعالى فى حق الوالدين: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾ [الإسراء: ٢٤] . أى: تواضَعْ.

ويحتمل أن يكون المراد أن الملائكة إذا رأت طالب العلم يطلبه من وجهه ابتغاء مرضاة اللَّه فرشت له أجنحتها فى رحلته وحملته عليها فيسلم من

الإعياء والتعب، وتقرب عليه الطريق البعيدة فلا يصيبه ما يصيب المسافر من أنواع الضرر. ولعلّ هذا هو السرّ في أن موسى عليه السلام لما خرج في طلب الخضر ليتعلم منه لم يَعْيَ حتى جاوز مكانه ﴿ **فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا** ﴾ [الكهف: ٦٢].

فيا أيها الشابّ: كن عالمًا أو متعلمًا، أو متّبعًا أو محبًّا، ولا تكن الخامس فتهلك. كان هذا فضل العلم عامة، أما القرآن خاصة فالاشتغال به تعلّمًا وتعليمًا من خير العمل، ولذا قال ﷺ: «**خيرُكمُ من تعلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمهُ**»[١].

وقال ﷺ: «**لا حسدَ إلا في اثنَتين: رَجَلٌ آتاه اللَّه القُرآنَ فَهُوَ يَقُومُ به آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، ورَجُلٌ آتاهُ اللَّه مَالاً فَهُوَ يُنفقهُ آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ**»[٢].

وقال ﷺ: «**إن اللَّه يرفعُ بِهَذَا الكتابِ أقوامًا ويَضَعُ به آخَرينَ**»[٣].

وقال ﷺ: «**مثلُ المؤمنِ الذي يَقرأُ القُرآنَ مَثَلُ الأُترجّة ريحُهَا طَيِّب وطَعمُها طيبٌ. ومثلُ المؤمنِ الذي لا يقرأُ القرآنَ مثلُ التمرة لا ريحَ لَهَا وطعمُهَا حُلوٌ**»[٤].

وقال ﷺ: «**يقالُ لصَاحبِ القُرآن: اقْرأ وارقَ وَرَتِّل كَمَا كُنتَ تُرَتِّل في الدُّنيا فإنَّ مَنزِلَتَك عندَ آخرِ آيةٍ تقرَؤُهَا**»[٥].

---

(١) صحيح: خ(٥٠٢٧/ ٧٤/ ٩)، ت(٣٠٧١/ ٢٤٦/ ٤)، (١٤٣٩/ ٣٢٥/ ٤).

(٢) متفق عليه: خ(٧٥٢٩/ ٥٠٢/ ١٣)، م(٨١٥/ ٥٥٨/ ١)، ت (٢٠٠١/ ٢٢١/ ٣)، جه (٤٢٠٩/ ١٤٠٨/ ٢).

(٣) صحيح: م (٨١٧/ ٥٥٩/ ١)، جه (٢١٨/ ٧٩/ ١).

(٤) متفق عليه: رواه: خ (٧٥٦٠/ ٥٣٥/ ١٣)، م (٧٩٧/ ٥٤٩/ ١)، ت (٣٠٢٥/ ٢٢٧/ ٤)، د (٤٨٠٩/ ١٧٨/ ١٣)، نس (١٢٤/ ٨)، جه (٢١٤/ ٧٧/ ١).

(٥) صحيح: ت (٣٠٨١/ ٢٥٠/ ٤)، د (١٤٥١/ ٣٣٨/ ٤)

فعليكم بالقرآن شباب الإسلام، تغنّوا به، وقوموا به آناء الليل وآناء النهار، فإن القرآن هو حبل اللّه المتين، وهو النور المبين، والصراط المستقيم، عصمةً لمن تمسّك به، ونجاة لمن اتبعه.

* * *



الحديث الثالث عشر

عَن ابْن عَبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُمَا عَن النّبيّ ﷺ أَنَهُ قَال لِرَجُل وَهُوَ يَعظُهُ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ»[1].

هذه موعظة جامعة، ونصيحة غالية من رسول اللَّه ﷺ الذى وصفه ربّه بأنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وما أحوجنا إلى هذه الموعظة ونحن نرى الأيام تمر، والسنين تنقضى، ورصيد أحدنا من الحسنات قليل! لأننا ضيّعنا حياتنا فى اللهو واللعب، وأنفقنا أوقاتنا فى الغناء والطرب، وقضينا شبابنا فى الملذات والشهوات، فاسمعوا وعوا: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

لقد وصّى النبى ﷺ الرجل أن يغتنم حياته قبل موته، فالحياة نعمةٌ عظيمة وكل يوم من أيامها نعمة، ولقد كان ﷺ إذا بعثه اللَّه من النوم يقول:

---

(١) صحيح: كم (٤/٣٠٦).

«**الحمدُ للَّه الذى أحيانا بعدَ ما أمَاتَنَا وإليه النُّشُورُ**»[١] . ذلك أن هذا اليوم يمكن المذنب فيه أن يتوب، ويمكن المحسن أن يزيد من إحسانه، ولقد قال ﷺ: «**خيرُكُم مَن طَالَ عمرُه وحَسُن عملُه**»[٢] . فطول العمر مع العمل الحسن يبلغ العبد الدرجات العلى والنعيم المقيم.

ولقد فرّق النبى ﷺ بين رجلين مات أحدهما قبل الآخر بأسبوع:

فعن عبيد بن خالد السلمى قال: آخى رسول اللَّه ﷺ بين رجلين، فقتل أحدهما، ومات الآخر بعده بجمعة أو نحوها، فصلينا عليه، فقال ﷺ: «**ما قُلتُم؟**» فقالوا: دعونا له، وقلنا: اللهم اغفر له وألحقه بصاحبه. فقال ﷺ: «**فأينَ صلاتُه بعدَ صلاته؟ وصومُه بعدَ صومِه؟ وعملُه بعدَ عملِه؟ كانَ بينَهُمَا كما بينَ السماءِ والأرضِ**»[٣] .

فانظروا - رحمكم اللَّه - كيف سبق الأخ الذى مات على فراشه أخاه الشهيد وارتفعت درجته فوق درجته بسبب أسبوع متعه اللَّه به؟ فكيف لو عاش بعده سنة أو أكثر.

فاغتنموا - رحمكم اللَّه - حياتكم، فإن الموت يأتى بغتة. وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم، وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك، مستعداً لذلك. فاللَّه اللَّه - عباد اللَّه - لا تتخذوا دينكم لهواً ولعبًا، ولا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم

---

(١) صحيح: خ (٦٣١٢/١١٣/١١)، ت (٣٤٧٧/١٤٦/٥)، د (٥٠٢٨/٣٩١/١٣).
(٢) حسن: ت (٢٤٣٢/٣٨٧/٣).
(٣) صحيح: د (٢٥٠٧/١٩٨/٧)، نس (٧٤/٤).

باللَّه الغرور: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

فاغتنموا حياتكم، فإن اللَّه تعالى قد أخبرنا أن الموتى يطلبون الرجعة إلى الدنيا عند الموت لما رأوا من قيمة الحياة، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]

قال قتادة: واللَّه ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولا أن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، لكنه تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة اللَّه[١].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]

فكل مفرّط يندم عند الاحتضار ويسأل التأخير ولو زمنًا يسيرًا ليستعتب ويستدرك ما فات، وهيهات هيهات، كان ما كان، وأتى ما هو آت:

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥].

---

(١) ابن كثير (٣/٢٥٥).

والثانى والثالث مما أمر النبى ﷺ باغتنامه: الصحة والفراغ:
«وصحتَكَ قبلَ سَقَمِكَ، وفراغَكَ قَبلَ شغلكَ».

فالصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، والفراغ كنز بين يدى أهله لا يراه إلا المشغولون.

ولذا أثر عن علاّمة الشام جمال الدين القاسمى رحمه اللَّه، أنه كان يمشى مع بعض رفاقه فمر بمقهى فرأى الناس يلعبون، فأطرق مليّا، فسئل عن ذلك فقال: لو أن هؤلاء يبيعوننى أوقاتهم لاشتريتها.

فاغتنم يا عبد اللَّه صحتك فاستعن بها على صيام النهار وقيام الليل ومجاهدة الأعداء والرواح إلى المساجد، والغدو فى طلب العلم، قبل أن تبتلى بالمرض فتتمنى أن تصوم فلا تقدر، وأن تصلى قائمًا فلا تستطيع، وأن تخرج إلى المسجد فلا تحملك رجلاك، وهنالك تندم على أيام كنت فيها قادرًا على ذلك كله وتركته. واملأ فراغك بما ينفعك من صالح الأعمال قبل أن تشغل، وهنالك فى وسط الشغل تتمنى ساعة تقرأ فيها كتابًا، أو تحضر فيها درسًا فلا تجد، فتندم على ما ضيعت من ساعات بل سنين.

واعلم يا عبد اللَّه أنك إذا اغتنمت صحتك وفراغك فى طاعة اللَّه، ثم مرضت أو سافرت ـ كُتب لك أجر ما كنت تعمل فى صحتك وفراغك، كما صرّح بذلك النبىّ ﷺ فى قوله: **«إذا مرضَ العبدُ أو سافرَ كُتبَ لهُ منَ الأجرِ مثلُ ما كانَ يعملُ صحيحًا مقيمًا»**[(١)]. ولكن أكثر الناس عن ذلك غافلون.

ولذا قال النبى ﷺ: **«نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ الناسِ: الصحةُ والفراغُ»**[(٢)].

---

(١) صحيح: خ (٢٩٩٦/١٣٦/٦).

(٢) صحيح: خ (٦٤١٢/٢٢٩/١١)، ت (٢٤٠٥/٣٧٧/٣)، جه (٤١٧٠/١٣٩٦/٢).

وأصل الغُبْن فى البيع والشراء: الوكس. يقال: غبنه، يغبنه، إذا خدعه. فأراد النبى ﷺ أن يبين أن المخدوع حقيقة ذو الصحة والفراغ، الذى لم يستفد من صحته وفراغه، فكأنما كان معه جوهرة نفيسة لا قيمة لها فباعها ببعرة لا قيمة لها.

قال ابن بطال: معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغًا حتى يكون مكتفيًا صحيح البدن، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يُغبن، بأن يترك شكر اللَّه على ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فمن فرط فى ذلك فهو المغبون.

وقال ابن الجوزى: قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التى يظهر ربحها فى الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته فى طاعة اللَّه فهو المغبوط، ومن استعملهما فى معصية اللَّه فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم.

وقال الطيبى: ضرب النبى ﷺ للمكلف مثلاً بالتاجر الذى له رأس مال، فهو يبتغى الربح مع سلامة رأس المال، فطريقه فى ذلك أن يتحرى فيمن يعامله، ويلزم الصدق والحذق لئلا يغبن، فالصحة والفراغ رأس المال، وينبغى له أن يعامل اللَّه بالإيمان ومجاهدة النفس وعدو الدين، ليربح خيرى الدنيا والآخرة. وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ومعاملة الشيطان لئلا يضيع رأس ماله مع الربح، وذلك أعظم الخسران[1].

---

(١) انظر «فتح البارى» (٢٣٠/١١).

ولقد أخرج هذا الحديث البخاريُّ في صحيحه في أول كتاب الرقاق، ثم أتبعه بحديث أنس رضى اللَّه عنه عن النبى ﷺ قال: «**اللهمَّ لا عيشَ إلا عيشَ الآخِرَةِ**»[١] .

قال ابن المنير: مناسبة إيراد حديث أنس مع حديث ابن عباس الذى تضمنته الترجمة: أن الناس قد غُبن كثير منهم فى الصحة والفراغ لإيثارهم لعيش الدنيا على عيش الآخرة، فأراد الإشارة إلى أن العيش الذى اشتغلوا به ليس بشىء، بل العيش الذى شغلوا عنه هو المطلوب، ومن فاته فهو المغبون[٢].

لذا كان السلف الصالح رضوان اللَّه عليهم أشدّ حرصًا على أوقاتهم منًّا، فبينا ترى منا من لا يعرف كيف يشغل وقته، ويملأ فراغه؟ فتسمعه يقول لصاحبه: تعال نضيّع الوقت، أو نقتل الوقت، ترى منهم الحرص على الدقيقة، بل على اللحظة والثانية، وكما تراهم يتواصون بذلك:

فها هو ابن الجوزى ـ رحمه اللَّه ـ يقول لولده: أى بُنىّ! «من قال سبحان اللَّه وبحمده غرست له نخلةٌ فى الجنة»[٣] فانظر إلى مضيّع الساعات كم ضيّع من نخلات[٤].

وأُثر عن بعضهم أنه كان إذا قيل له: قف أكلمك. قال: أمسك الشمس.

وكان بعضهم إذا دخل عليه زواره أكرمهم وأحسن ضيافتهم، فإذا طال

(١) متفق عليه: خ (٦٤١٢/٢٢٩/١١)، م (١٨٠٤/١٤٣/٣)، ت (٣٩٤٧/٣٥٦/٥).
(٢) فتح البارى (٢٣١/١١).
(٣) صحيح: ت (٣٥٣١/١٧٤/٥).
(٤) انظر رسالة ابن الجوزى «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد».

بقاؤهم قال: ألا تنصرفون؟ اللَّه اللَّه عباد اللَّه فى الأوقات، لا تستكثروا أوقاتكم فإن الواجبات أكثر من الأوقات.

الأمر الرابع مما أمر النبى ﷺ باغتنامه: الشباب.

إن الشباب هو فترة البذل والعطاء والجهاد، والشباب هو الفرصة الذهبية فى العمر كله، فمن استغل شبابه فيما ينفعه فاز ونجا، وأظله اللَّه فى ظله يوم لا ظلّ إلا ظلّه، ومن ضيّع شبابه فى الشهوات والملذات خاب وخسر، إن مات فجأة ندم، وإن هرم ندم، لأنه إن مات انقطع عمله، وإن هرم انحنى ظهره، وضعف قدمه، وضعف سمعه وبصره، فلا يقوى على ما يريد من الأعمال الصالحة إن أرادها، ولقد أُثر من أقوال الشيوخ ما يدل على ندمهم على شبابهم، ومنه قول القائل:

ألا ليتَ الشبابَ يعودُ يومًا فأخبـرُه بما فَعَلَ المشيبُ

فيا أيها الشاب:

ليكن نهارك فى الصيام، وليلك فى القيام، وسعيك إلى المساجد، وإياك أن يكون نهارك فى اللهو، وسهرك فى الترف، وسعيك إلى معصية اللَّه. وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك.

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جنَّ ليل هل تعيش إلى الفجر ؟
فكم مِن فتى أمسى وأصبح ضاحكا وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري!
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أجسامهم ظلمة القبر!
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر!
وكم من صحيح مات بغير علة وكم من عليل عاش حينا من الدهر!

الأمر الخامس: الغنى:

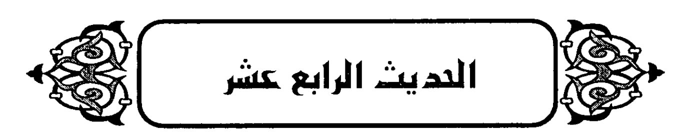
فالغنى من نعم الله، ويجب على من أنعم الله عليه به أن يعرف فضل الله عليه وسرّ هذا الفضل، وقد صرح سليمان عليه السلام بهذا السرّ فى قوله وقد رأى عرش بلقيس بين يديه فقال:

﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ ...﴾ [النمل: ٤٠].

فعلى العبد أن يغتنم فرصة غناه، وأن ينفق من مال الله الذى أتاه، وليحذر كل الحذر من إمساك فضل الله والبخل به، فإن الله تعالى قال:

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

* * *



الحديث الرابع عشر

عَنْ عَبْد اللَّه بن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا : «أنَّ رَجُلاً جَاءَ إلى النَّبي ﷺ فَقَالَ : يا رسول اللَّه أيّ النَّاس أحَبُّ إلى اللَّه ؟ وأيُّ الأعْمَال أحَبُّ إلى اللَّه ؟

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : أحَبُّ النَّاسِ إلى اللَّه تعالى أنفعُهُم للنَّاس ، وأحَبُّ الأعْمَال إلى اللَّه عزَّ وَجَلَّ سُرُورٌ يُدخلُه عَلى مُسْلمٍ ، أوْ يَكْشف عَنْهُ كُربَةً ، أوْ يَقْضي عَنْهُ دَيْنًا ، أوْ يَطرُد عَنْهُ جُوعًا ، ولأنْ أمشي مَعَ أخٍ في حَاجَةٍ أحَبُّ إليّ منْ أنْ أعْتَكفَ في هَذَا المَسْجد (يعني مَسْجدَ المَدينَة) شهراً ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبه ستر الله عَوْرَتهُ ، ومَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ ولَو شَاءَ أنْ يمْضيَهُ أمْضَاهُ ملأ اللهُ قَلبَهُ رَجَاء يوْمَ القيَامَة ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أخيه في حَاجَةٍ حَتّى تتهيَّأ لَهُ أثبتَ الله قَدَمه يوم تَزُولُ الأقْدامُ ، وإنّ سُوءَ الخُلق يُفسدُ العَمَلَ ، كَمَا يُفْسدُ الخلُّ العَسَلَ»[1] .

---

(١) حسن : أخرجه الألباني في «الصحيحة» رقم (٩٠٦) وقال: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/٢٠٩/٢)، وابن عساكر في «التاريخ» (١٨/١/٢) عن عبد الرحمن بن قيس الضبي، نا سكين بن أبي سراج، نا عمرو بن دينار عن ابن عمر . . .».

إن لله عبادًا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
ساروا فيها فلما علموا أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

وهذا رجل من هؤلاء يسأل النبى ﷺ عن أحب الأعمال إلى اللَّه تعالى ليفعلها، ويسأله عن أحب الناس إلى اللَّه تعالى عسى أن يكون منهم، فيجيبه النبى ﷺ بهذا الحديث العظيم الجامع لأنواع الخير وخصال البر، وفى السؤال وجوابه دليل على محبة اللَّه تعالى لأهل الخير من عباده، كما قال اللَّه تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وكما قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والنبى ﷺ فى هذا الحديث يبين أن أحب الناس إلى اللَّه أنفعهم للناس، ومعنى ذلك أن الناس يتفاوتون فى محبة اللَّه عز وجل لهم، وأن أحبهم إليه سبحانه أنفعهم للناس، فكلما كثر نفع العبد لإخوانه المسلمين كلما ازدادت محبة اللَّه تبارك وتعالى له، وكلما نقصت منفعة العبد لإخوانه المسلمين كلما نقصت محبة اللَّه عز وجل له؛ والنفع المذكور فى قوله عليه الصلاة والسلام: «**أحبُّ الناسِ إلى اللَّهِ أنفعُهُم للناسِ**» لا يقتصر على النفع المادى فقط، ولكنه يمتد ليشمل النفع بالعلم، والنفع بالرأى، والنفع بالنصيحة، والنفع بالمشورة، والنفع بالجاه، والنفع بالسلطان، ونحو ذلك، فكل ما استطعت أن تنفع به إخوانك المسلمين فنفعتهم به - فأنت داخل فى الذين يحبهم اللَّه تعالى (أحب الناس إلى اللَّه تعالى أنفعهم للناس).

ولما أخبر النبى ﷺ السائل بمن يحبهم اللَّه من عباده، فقال:

«**أحبُّ الناسِ إلى اللَّهِ أنفعهُم للناسِ**» أشار إلى منزلة عظيمة جدا، ودرجة

عالية رفيـعة، ذلك أن محبة اللَّه للعبد شيء عـظيم، فإن اللَّه إذا أحب عبدًا أحـبّه أهل السـمـاء والأرض، وإن اللَّه إذا أحب عبـدًا لا يعـذبه، كمـا في الحديث عن النبي ﷺ: «**إن اللَّه تَعَالَى إذا أحبَّ عبدًا نادَى جبريلَ فقالَ: يا جبريلُ إني أحبُّ فلانًا فأحبَّه، فيحبـهُ جبريلُ، فينادي جبريـلُ في أهْلِ السماءِ: إن اللَّه يحبُّ فلانًا فأحبُّوهُ، فيحبُّه أهلُ السماءِ، ثم يُوضَعُ له القَبُولُ في الأرضِ**»[1].

وقال ﷺ: «**واللَّهِ لا يُلقى اللَّهُ حبـيَه في النَّارِ**»[2]. ولذلك لما قالت اليهود والنصارى نحن أبناء اللَّه وأحباؤه، أمر اللَّه تعالى النبي ﷺ أن يقول لهم: ﴿**قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم**﴾ [المائدة: ١٨].

فلو كنتم أحبابه ما عذبكم، لأن الحبيب لا يعذب حـبيبه. فقرّ عينًا أيها المسلم الذي يجتـهد في نفع الناس، فإنك إذا نفـعت الناس أحبّك اللَّه، وإذا أحبّك اللَّه أحبّك أهل السماء ووُضع لك القبول في الأرض، وإذا أحبّك اللَّه لا يعذبك اللَّه أبدًا. ثم بعـد ذلك أرشد النبي ﷺ السائل إلى أحب الأعـمال إلى اللَّه عز وجل، فقال عليه الصلاة والسلام: «**وأحبُّ الأعمالِ إلى اللَّهِ سُرورٌ تُدخلُـهُ على مُـسلمٍ**» وهذا يختلف باخـتلاف الأحوال والأفراد، فقـد يتحقق السرور في قلب المسلم بسؤال أخـيه عنه، وقد يتحقق بزيارة أخـيه له، وقد يتحـقق بهدية أخـيه له، وقد يتـحقق بأي شيء سـوى ذلك، والرسول ﷺ يقول: «**أحبُّ الأعمَالِ إلى اللَّهِ سُرُورٌ تُدخِلُهُ على مُسلِمٍ**».

---

(١) صحيح: م (٢٦٣٧/ ٢٠٣٠/٤)، ت (٥١٧١/٣٧٨/٤).

(٢) صحيح: كم (١٧٧/٤).

ويفهم من هذا أن اللَّه إذا كان يحب إدخال السرور على قلب المسلم فإنه يبغض إدخال الحزن على قلب المسلم.

فالواجب على كل مسلم: أن يعمل جاهدًا على إدخال السرور على قلب إخوانه المسلمين.

وواجب على كل مسلم: أن يحذر كل الحذر من إدخال الحزن على قلوب إخوانه المسلمين.

ومن أحب الأعمال إلى اللَّه: «أن تكشف عن مسلم كربة»:

والكربة هى الشدة العظيمة التى توقع صاحبها فى الهمّ والغمّ والكرب، ولقد وعد اللَّه تعالى على لسان رسوله ﷺ أن يرفع كُرب الآخرة عمن يرفع كُرب الدنيا عن المسلمين. ففى الحديث عنه ﷺ أنه قال: **«من نفّس عن مسلم كُربةً من كُرب الدنيا نفّس اللَّه عنه كُربة من كُرب يوم القيامة»**[1].

ومن المعلوم أن كرب الدنيا كلها بالنسبة لكرب الآخرة لا شىء، فإن كرب الآخرة شىء عظيم، يدلك على ذلك قول اللَّه تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾** [الحج: ١، ٢].

وقال تعالى: **﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾** [المزمل: ١٧، ١٨].

---

(١) صحيح: م (٢٦٩٩/ ٢٠٧٤/ ٤)، ت (٤٠١٥/ ٤٦٥/ ٤)، د (٤٩٢٥/ ٢٨٩، ٢٩٠/ ١٣)، جه (٢٢٥/ ٨٢/ ١)

وقال النبى ﷺ: «**إذا كانَ يومُ القيامَة أُدنيت الشمسُ من العبادِ حتى تكونَ قيد ميْل أو اثنينِ**»، قالَ الرَّاوى - لا أدرى أى الميلين عنى، أمسافة الأرض أم الميل الذى يُكحل به العين؟ قال: «**فتصهرُهم الشمسُ، فيكونُونَ فى العَرَق بقدر أعمالِهم فَمِنهُم مَن يأخذُهُ إلى عقبه، ومنهم مَن يأخذُهُ إلى ركبتَيه، ومنهُم مَن يأخذُهُ إلى حَقويه، ومنهُم من يلجمُه إلجامًا**»[١].

وفى حديث الشفاعة أن الناس إذا استشفعوا بالأنبياء يوم القيامة قالوا لكل واحد منهم: «**اشفَعْ لنَا عِندَ ربِّك، أمَا ترَى ما نَحنُ فيهِ! أمَا ترَى مَا قَد بلغَنَا!**»[٢].

فكل هذه النصوص تدل على أن كرب الآخرة شىء عظيم جدًا، وليس هناك من يدفع عنك - أيها المسلم - كرب الآخرة ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

إلا أن تفرج عن المسلمين كرب الدنيا، ففى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «**من فرّج عنْ مُؤمنٍ كُربَةً مِن كُرَبِ الدنيَا فرّج اللّهُ عنه كُربةً مِن كُرَبِ يوم القيامة**»[٣].

فعليك أيها المسلم القادر أن تسعى لإزالة ما يحلّ بالمسلمين من النائبات والمصائب والكرب، فمن ابتلى بمسغبة بذلت له من مالك، أو حثثت الأغنياء على التصدق عليه ومعونته، ومن ابتلى بالعطالة سعيت له فى تحصيل عمل، ومن حاق به ظلم ظالم رددت عنه الظلم ما وجدت إلى ذلك سبيلاً،

---

(١) صحيح: م (٢٨٦٤/٢١٩٦/٤)، ت (٢٤٢١/٣٧/٤) وهذا لفظه.

(٢) متفق عليه: خ (٤٧١٢/٣٩٥/٨)، م (١٩٤/١٨٤ - ١٨٦/١)، ت (٢٥٥١/٤٣ - ٤٥/٤).

(٣) صحيح: د (٤٨٧٢/٢٣٦ و ٢٣٧/١٣)، ت (١٤٥١/٤٤٠/٢).

وبالجملة فأنت أيها المسلم مكلف شرعًا أن تسعى جاهدًا لإزالة النائبات أو تخفيفها عن إخوانك المسلمين، واللَّه سبحانه يعدك على ذلك أن يدفع عنك كرب يوم الدين.

ومن أحب الأعمال إلى اللَّه: «أن تقضى عن مسلم دينًا». إن اللَّه تبارك وتعالى جعل للغارمين نصيبًا فى الصدقات المفروضة، وجعل لهم حقا معلومًا فى مال الأغنياء، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠].

والغارمون هم مَن ركبتهم الديونُ ولزمتهم، ثم لم يجدوا لها وفاء، فأهل الأموال مطالبون شرعًا بقضاء دين الغارمين، ولذلك جاء فى الحديث عن أبى سعيد الخدرى قال: أصيب رجل فى عهد رسول اللَّه ﷺ فى ثمار ابتاعها، فكثرت ديونه، فقال النبى ﷺ: «**تصدَّقُوا عليه**». فتصدق الناس عليه فلم يبلغ وفاء دينه، فقال ﷺ لغرمائه: «**خُذُوا ما وَجَدتُم، وليس لَكُم إلا ذلكَ**»[1].

فعلى أصحاب الأموال وذوى الغنى والثراء أن يتفقدوا الغارمين من الفقراء والأغنياء على حد سواء، فإن الرجل لو أوتى من المال نصيبًا، ثم كان عليه من الدين أكثر مما عنده فهو من الغارمين، فوجب على أصحاب الأموال أن يقضوا عنه دينه، حتى يخرجوه من هذه الكربة التى نزلت به، ولو أن أصحاب الأموال والغنى والثراء، ولو أن رجال الأعمال تفقد بعضهم بعضًا وبحثوا عن الغارمين منهم وقضوا دينهم، لوقف الرجل على رجليه مرة

(١) **صحيح**: م (١٥٥٦/١١٩١/٣)، ت (٦٥٠/٨٣/٢)،نس (٢٦٥/٧)، د (٣٤٥٢/٣٦٢، ٣٦٣/٩)، جه (٢٣٥٦/٧٨٩/٢).

ثانية، وسعى فرزقه اللَّه، ولم يعد يحتاج إلى الناس بعد ذلك؛ ولكن مشكلة الأغنياء أنهم يتغافلون عن الديون التى تلـزم إخوانهم أصحاب الأموال، ولا يفكرون فى قضـائها عنهم، فى حين أن الإسـلام قد جعل قـضاء الدين عن الغارمين من أبواب الصدقات المفروضة.

ومن أحب الأعمال إلى اللَّه عز وجل: «أن تطرد عن مسلم جوعًا» فطرد الجوع عن الجـائعين عـمل من أعمـال البر، يجزى الـلَّه عليه بجنة عـالية، قطوفها دانيـة، فيها من النعيم ما لا عـين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٧) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٨) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (٩) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١٠) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ٥-١٢].

ولقد حث اللَّه تعالى على طرد الجوع عن الجائعين، فقال عز وجل:

﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ [البلد: ١١-١٨].

والرسول ﷺ يقول: «أطعمُوا الجائعَ، وفكُّوا العَانى، وعُودُوا المريضَ»(١).

ويقول ﷺ: «أيها الناسُ! أفشُوا السلامَ، وأطـعمُوا الطعامَ، وصلُوا الأرحَامَ،

---

(١) صحيح: خ (٥٦٤٩/ ١١٢/ ١٠)، د (٣٠٨٩/ ٣٧٠/ ٨).

وصلُّوا والناسُ نيامٌ تدخُلُوا الجنةَ بِسَلامٍ»[١] .

ولقد نفى النبى ﷺ الإيمان عمن بات شبعان وجاره جائع ، فقال ﷺ :

«ليس المؤمنُ بالَّذى يَشبعُ وجَارُهُ جائعٌ إلى جَنبه»[٢] .

وفى الحديث عنه ﷺ أنه قال : «**يقولُ اللَّه تعالى يومَ القيامة: يا بنَ آدمَ استطعمتُكَ فلم تُطعمنى! فيقولُ يارب كيف أطعمُك وأنتَ ربّ العالمينَ؟! فيقولُ عز وجل: استطعمَكَ عَبدِى فلانٌ فلم تُطعمهُ، أما علِمتَ أنكَ لو أطعمتَهُ لوجدتَ ذلكَ عندى؟!**»[٣] .

ولقد بين اللَّه سبحانه وتعالى أن من الأسباب الموجبة لدخول النار عدم طرد الجوع عن الجائعين مع القدرة عليه، قال تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٧].

بل أبلغ من ذلك جعل اللَّه تعالى من أسباب دخول النار ترك الحضّ على إطعام الجائعين. قال اللَّه عز وجل: **﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا**

---

(١) صحيح: جه (٣٢٥١/ ١٠٨٣/ ٢) ، ت (٢٦٠٣/ ٦٥/ ٤) وليس عنده الجملة الثالثة.

(٢) صحيح: أخرجه الألبانى فى (الصحيحة) (١٤٩) وقال : رواه البخارى فى « الأدب المفرد» (١١٢) ، والطبرانى فى « الكبير » (٣/ ١٧٥/ ١) ، والحاكم (٤/ ١٦٧) ، وكذا ابن شيبة فى كتاب « الإيمان » (١٨٩/ ٢) ، والخطيب فى « تاريخ بغداد » (١٠/ ٣٩٢) ، وابن عساكر (٩/ ١٣٦/ ٢) ، والضياء «المختارة» (٦٢/ ٢٩٢/ ١) .

(٣) صحيح: م (٢٥٦٩/ ١٩٩٠/ ٤).

لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٢٥-٣٧].

ومن أحب الأعمال إلى اللَّه عز وجل ما ذكره النبى ﷺ فى قوله:

«**ولأنْ أَمشى مع أخى المسلم فى حاجة أحبُّ إلىّ من أن أعتكفَ فى هذا المسجد** - يعنى مسجد المدينة - **شهرًا**».

ففى قوله ﷺ هذا إشارة إلى فضل المشى مع المسلمين فى قضاء حوائجهم، ولقد كثرت الأحاديث فى الحث على السعى فى قضاء حوائج المسلمين.

ومنها قوله ﷺ: «**واللَّهُ فى عونِ العبدِ ما كان العبدُ فى عَونِ أخيه**»[1]

وقوله ﷺ: «**مَن كانَ فى حاجَةِ أخيهِ كَانَ اللَّـهُ فِى حَاجَتِهِ**»[2].

وكلها تحث على السعى فى قضاء حوائج المسلمين، وتبين أن الوقت الذى ينفقه المسلم فى قضاء حاجة أخٍ له لا يضيع عليه سدى، بل إن اللَّه تبارك وتعالى يعطيه خيرًا مما بذل وأكثر، فإنك لو أعطيت أخاك المسلم قليلاً من وقتك، تسعى معه فى قضاء حاجته، أعطاك اللَّه خيرًا مما أعطيت أخاك المسلم وأكثر مما بذلت له. «**مَن كانَ فى حَاجَةِ أَخيهِ كَانَ اللَّهُ فى حَاجته**» فإن الجزاء من جنس العمل، واللَّه عز وجل يقول: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾ [الرحمن: ٦٠]

---

(١) صحيح: هذا جزء من حديث: «من نفس عن مسلم كربة ..» وقد سبق تخريجه.

(٢) صحيح: هذا جزء من حديث: «من فرج عن مؤمن كربة ..» وقد سبق تخريجه.

فعلى العاقل أن يستعين على قضاء حاجة نفسه بالسعى فى قضاء حاجات المسلمين، فإنك إذا سعيت فى قضاء حاجات المسلمين سعى اللَّه نفسه فى قضاء حاجتك، فأيهما خير لك؟!

أن تسعى فى حاجة نفسك أنت، أم يسعى اللَّه العليم القدير الذى بيده ملكوت كل شىء، وعنده خزائن كل شىء، فى قضاء حاجتك؟

ومن هنا كان السلف الصالح رضوان اللَّه عليهم أشدّ حرصًا من غيرهم على المشى فى قضاء حوائج المسلمين، وأثر عنهم فى ذلك الشىء الكثير، ومنه: أن الحسن البصرى رحمه اللَّه بعث نفرًا من أصحابه فى قضاء حاجة لرجل مسلم، وأمرهم أن يمروا بثابت البنانى فيأخذوه معهم، فأتوا ثابتًا فأخبروه فقال: إنى معتكف، فرجعوا إلى الحسن.

فقال لهم: قولوا له يا أعمش! أما تعلم أن مشيك فى قضاء حوائج المسلمين خير لك من حجة بعد حجة ؟ فرجعوا إلى ثابت فترك اعتكافه وخرج معهم.

ولقد كان عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه يتعاهد الأرامل بالليل يستقى لهن الماء فرآه طلحة رضى اللَّه عنه ليلة يدخل بيت امرأة، فدخل طلحة على المرأة نهارًا فإذا هى امرأة عمياء مقعدة.

فقال لها: يا هذه ما يصنع هذا عندك؟ قالت: إنه منذ كذا وكذا يتعاهدنى، يأتينى بما يصلحنى ويخرج عنى الأذى.

فقال طلحة رضى اللَّه عنه: ثكلتك أمك يا طلحة! أعورات عمر تتبع؟!
وكان كثير من الصالحين إذا خرج فى سفر مع أصحابه يشترط عليهم أن يخدمهم، فإذا خرجوا وأراد أحدهم أن يغسل رأسه أو قميصه قال: هذا

شرطى. فتركه يغسل رأسه وقميصه.

وفى الصحـيحين عن أنس رضى اللَّه عنـه قال: كنا مع النبى ﷺ فــى سفر، فنزلنا منزلاً فى يوم شديد الحرّ، أكثرنا ظلاً من يستظل بكساء، ومنا من يتـقى الشمس بيـده، وكان منا الصـائم ومنا المفطر، فنزل الصـائمون، وقـام المفطرون فضربوا الأبنية وسـقوا الركائب، فقال النبى ﷺ: **«ذهبَ المفطِرُونَ اليومَ بالأجْرِ»**[1]؛ لأنهم كانوا فى خدمة إخوانهم الصائمين وقضاء حوائجهم.

وفى الحديث الذى مـعنا يقول النبى ﷺ: **«ومَن مَشَى مَعَ أخيـه فِى حَاجَة حتى تتـهيَّأَ له ثبَّتَ اللَّهُ قَدَمَـهُ يومَ تَزِلُّ الأقدامُ»** والمراد بالحاجة أى حـاجة كانت: مالية أو علمية أو أدبية، أو دينية أو دنيوية، والمراد بقوله ﷺ «ثبتَ اللَّهُ قدمَه يومَ تَزِلُّ الأقدامُ» أن الذى يمشى فى حـاجة أخيه المسلم حتى يثبـتها له ثبت اللَّه قـدمه يوم القـيامـة على الصـراط، الذى هو مدحـضة مـزلة، أرق من الشـعر، وأحدّ من الـسيف، وعلى جنبـتيـه كلاليب وخطاطيف، تتـخطف الناس.

فيا أخا الإسلام:

اقض الحــوائج مـا اسـتطعت   وكـن لـهـمّ أخـيـك فــارج
فلخيــــر أيـــام الـفــــتى   يـــوم قـضـى فيــه الحـوائـج

اقض الحوائج مـا استطعت، واسع فى حـوائج المسلمين مـا استطعت، وتذكر أن ما بك من نـعمة فإنما أنعم اللَّه بهـا عليك لتنفع المسلمين، وتمشى فى حوائجهم، فـإن أنت فعلت أتمّ اللَّه عليك نعمـته وزادك منها، وإن أنت

(١)متفق عليه: خ (٢٨٩٠/ ٨٤/ ٦) ، م (١١١٩/ ٧٨٨/ ٢) ، نس (١٨٢/ ٤) .

بخلت وقعدت عن المشى فى قضاء حوائج المسلمين ذهبت عنك نعمة اللَّه تبارك وتعالى.

ولذلك قال النبى ﷺ: **«إن للَّه تعالى أقوامًا يختصُّهم بالنعمِ لمنافعِ العبادِ، ويثبتُها عندَهم ما نفعُوهم، فإذا هم لم ينفعوهم حوّلها عنهم إلى غيرِهم»**(١).

ثم يقول النبى ﷺ: **«ومَن كفّ غضبَهُ سترَ اللَّه عورتَهُ، ومن كظمَ غيظَهُ ولَوْ شاء أن يُمضيَهُ أمضاهُ ملأَ اللَّه صَدرَهُ رضًا يومَ القيامَةِ»**.

وفيه إرشاد إلى ما يجب أن يأخذ المسلم به نفسه وقت الغضب، من كف الغضب وكظم الغيظ، ولذلك جاء فى الحديث عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه، أن رجلا قال: يا رسول اللَّه، أوصنى. فقال: **«لا تغضبْ»**. قال: زدنى. قال: **«لا تغضبْ»**. فردد مرارًا فقال ﷺ: **«لا تغضبْ»**(٢).

قال العلماء: معنى قوله ﷺ: **«لا تغضبْ»** لا تعمل بمقتضى الغضب إذا أصابك، بل إذا غضبت فجاهد نفسك على كف الغضب وكظم الغيظ ولا تعمل بغضبك، فإن الإنسان إذا غضب كان الغضب آمره وناهيه.

ولقد بين الرسول ﷺ فضيلة كف الغضب فقال: **«ومَن كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَورتَهُ»** ذلك أن الرجل إذا غضب ولم يكف غضبه ظهر منه ما كان يخفيه من الحماقة والجهالة وسوء الخلق، ونحو ذلك، ولو أنه كف غضبه لستر اللَّه هذه العورات، ومن ستره اللَّه فى الدنيا ستره فى الآخرة ولابد فما

---

(١) حسن: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» (١٦٩٢) وقال: أخرجه ابن أبى الدنيا فى «قضاء الحوائج» (رقم ٥)، والطبرانى فى «الأوسط» (٥٢٩٥)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٦/ ١١٥ و١١٦/ ٢١٥)، والخطيب فى «التاريخ» (٩/ ٤٥٩).
(٢) صحيح: خ (٦١١٦/ ٥١٩/ ١٠)، ت (٢٠٨٩/ ٢٥٠/ ٣).

كان للَّه أن يستر عبدًا فى الدنيا ويفضحه فى الآخرة. «ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ اللَّه صدره رضًا يوم القيامة».

وفى الحديث الآخر يقول عليه الصلاة والسلام: «**مَن كَظَمَ غيظًا وهُوَ قَادرٌ على أن ينفذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رءُوسِ الخلائقِ يومَ القيَامَة حتى يُخيِّرهُ مِنَ الحُورِ العينِ مَا شَاءَ**» (١).

فيا عبد اللَّه إذا أغضبت فكف غضبك، وإذا أغظت فاكظم غيظك، فإن اللَّه تعالى قد وصف أحبابه أهل رضوانه وجنته بقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ**﴾ [الشورى: ٣٧].

وبقوله تعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ولقد أرشدك النبى ﷺ إلى ما به تدفع عن نفسك الغضب، فقال ﷺ: «**إذا غَضِبَ أحدُكُم فليَسْكُت**» (٢).

وقال ﷺ: «**إذا غَضِبَ أحدُكُم وهُوَ قَائمٌ فليقعُدْ، فإنْ ذَهَبَ عنهُ الغضبُ وإلا فَلْيَضطجع**» (٣).

وقال ﷺ: «**إذا غضِبَ الرجلُ فقالَ أعوذُ باللَّهِ سَكَنَ غَضَبُه**» (٤).

وفى الصحيحين عن سليمان بن صرد رضى اللَّه عنه أنه قال: «استب

---

(١) ت (٢٠٩٠/٢٥١/٣)، د (٤٧٥٦/ ١٣٥ و١٣٦/١٣)، جه (٤١٨٦/ ١٤٠٠/٢).

(٢) صحيح لغيره: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» (١٣٧٥) وقال: رواه البخارى فى «الأدب المفرد» (رقم ١٢٣٠)، وأحمد (١/ ٢٣٩، ٢٨٣، ٣٦٥)، وابن عدى (٢٢٧/٢)، والقضاعى فى «مسند الشهاب» (ق ٦٦/ ١).

(٣) صحيح: د (٤٧٦١/ ١٤٠/ ١٣).

(٤) صحيح أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» (١٣٧٦) وقال: أخرجه السهمى فى «تاريخ جرجان».

رجلان عند النبى ﷺ فغضب أحدُهُمَا حتى احمرَّ وجهه وانتفخَتْ أوداجُهُ فقال النبى ﷺ : «**إنى لأعلمُ كلمةً لو قالَهَا لذَهَبَ عَنهُ مَا يَجدُ ،لو قال: أعوذُ بالله من الشيطانِ الرجيمِ لَذَهَبَ عَنهُ مَا يَجدُ**»(١) .

ولما أرشد النبى ﷺ السائل إلى أحب الأعمال إلى اللَّه تعالى ختم هذا الإرشاد بقوله: «**وإن سوءَ الخلُقِ يُفسدُ العمَلَ كَمَا يُفسدُ الخلُّ العَسَلَ**» .

وكأن النبى ﷺ يقول للسائل: إذا علمت ما ذكرته لك من أحب الأعمال إلى اللَّه وهديت إليها كلها أو بعضها ـ فاجتنب سوء الخلق، فإن سوء الخلق يحبط الأعمال ويضيع الثواب، فأنت تجتهد فى الأعمال وتنصب رجاء برها وذخرها يوم القيامة ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ**﴾ [الشعراء: ٨٨] .

ثم إذا كنت سيئ الخلق لن ترى ثوابها وبرّها وذخرها يوم القيامة، لأن سوء الخلق من محبطات الأعمال، كما قال النبى ﷺ ، وقد دلت على ذلك أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ لأصحابه يومًا: «**أتدرونَ مَن المُفلسُ؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار.

فقال ﷺ : «**المفلسُ من أمتى من يأتى يومَ القيَامَة بصَلاة وصدقة ونُسُك ويأتى وقد شَتَمَ هذا، وقذَفَ هذا، وأكَلَ مَالَ هَذَا، وضَرَبَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هَذَا، فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسَنَاته، فإن فَنيتْ حسناتُه قبلَ أن يَقضى ما عليه أُخذَ من سيئاتِ المظلومينَ فَطُرحَت عليه ثم طُرحَ فى النَّار**»(٢) .

وفى الحديث عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه، أن رجلاً قال: يا رسول اللَّه!

---

(١) متفق عليه: خ (٦١١٢/ ٥١٨/ ٥١٩/ ١٠) ، م (٢٦١٠/ ٢٠١٥ / ٤) ، د (٤٧٥٩/ ١٣٨/ ١٣) .

(٢) صحيح: م (٢٥٨١/١٩٩٧/٤)، ت (٢٥٣٣/٣٦/٤).

إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها. فقال ﷺ: «**هى فى النار**».

قال: يا رسول الله! إن فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها وصدقتها، ولكنها لا تؤذى جيرانها بلسانها. فقال ﷺ: «**هى فى الجنة**»(١).

«**إن المؤمنَ ليدركُ بحُسنِ خُلُقه درجةَ الصائمِ القائمِ**»(٢) وإن العبد المؤمن ليحبط عمله بسوء خلقه. فاللَّه اللَّه عباد اللَّه! إياكم وسوء الخلق، فإن الغاية من الأعمال الصالحة تتميم مكارم الأخلاق.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال النبى ﷺ: «**الصومُ جُنة، فإذا كان يومُ صومِ أحدكُم فلا يرفُثْ ولا يصخبْ، فإن شاتمهُ أحدٌ أوْ قَاتَلَهُ فليَقُل إنى صَائِمٌ إنى صَائِمٌ**»(٣). فالغاية من العبادات كلها أن تتمم بها مكارم الأخلاق، فإذا اجتهد العبد فى فعل الخيرات وعمل الصالحات وكان مع ذلك سيئ الأخلاق فإن سوء الخلق يذهب بثواب عمله كله. فاللَّه اللَّه عباد اللَّه! إياكم وسوء الخلق، واستعينوا باللَّه على محاسن الأخلاق وادعوه بدعوة النبى ﷺ:

(١) صحيح: أ (١٩/٢١٩/٣٤)، حب (٥٠٢/٢٠٥٤، ٥٠٣).
(٢) صحيح: د (١٣/١٥٤/٤٧٧٧).
(٣) متفق عليه: خ (٤/١١٨/١٩٠٤)، م (١١٥١ - ١٦٣ - /٢/٨٠٧).

«اللَّهُمَّ كما حسّنت خَلْقى حسّن خُلُقى»(١).

«اللهم اهدنا لأحسنِ الأخلاقِ فإنَّهُ لا يَهدِى لأحسَنِهَا إلا أنتَ، واصْرِفْ عنَّا سيئَهَا فإنهُ لا يصرفُ عنا سيئَهَا إلا أنتَ»(٢).

«اللهمَّ آتِ نُفُوسَنَا تَقوَاهَا، وزَكِّهَا أنتَ خَيرُ مَن زَكَّاها، أنت وليها ومولاَها»(٣).

* * *

---

(١) صحيح: قال الألبانى فى «الإرواء» (١١٥/ ١): رواه أحمد (٦/ ٨٦، ١٥٥) بإسناد صحيح.

(٢) صحيح: رواه النسائى فى «استفتاح الصلاة» بنحو هذا اللفظ (١٢٩/ ٢).

(٣) صحيح: رواه: م (٢٧٢٢/ ٢٠٨٨/ ٤)، نس (٢٦٠/ ٨).



الحديث الخامس عشر

عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

كُنْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟

قَالَ: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا».

قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟

قَالَ: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ»[1].

هذا حديث جامع من جوامع كلمه ﷺ، وفيه من خصال الخير والبرّ ما إن تمسَّك به أحدٌ فاز ونجا. ولقد أحسن السائل حيث سلم قبل أن يتكلم، وإنما أخذ هذا الأدب من رسول اللَّه ﷺ، فقد صحّ عنه ﷺ قوله: **«السَّلامُ قَبلَ السؤال فمنْ بَدَأَكُم بالسؤالِ قبلَ السلامِ فَلا تُجِيبُوهُ»**[2]. فلما سلّم السائل سأل: «أيّ المؤمنينَ أفضل؟» فقال ﷺ: **«أحسنُهم خُلُقًا»**.

---

(١) حسن: جه (٤٢٥٩/١٤٢٣/٢).

(٢) حسن: أخرجه الألباني في «الصحيحة» (٨١٦) وقال: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/٣٠٣).

وفى حديث آخر قال النبى ﷺ: «**أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهم خُلقًا**»[١].

ولو ذهبنا نتتبع أقواله ﷺ فى الأخلاق الحميدة وفضلها لخرجنا بسفر لا يعرف مثله لعظيم من أئمة الإصلاح، وحسبنا أن نذكر من هذه الأقوال نذْرًا يسيرًا، نتبين منه مدى حرص النبى ﷺ على تحلّى أمته بمكارم الأخلاق، فمن ذلك:

قوله ﷺ: «**إن خيارَكم أحاسنُكم أخلاقًا**»[٢]. وقوله: «**البرّ حُسن الخلق**»[٣]. وقوله ﷺ: «**إن من أحبّكم إلىّ وأقربكم منى مَجلسًا يومَ القيَامة أحاسنَكم أخلاقًا**»[٤]. وقوله ﷺ: «**ما من شىء أثقلُ فى الميزانِ من حُسنِ الخُلقِ**»[٥]. «**إن المؤمنَ ليدركُ بحسنِ خلقِه درجةَ الصائمِ القَائمِ**»[٦].

وسئل ﷺ عن خير ما أُعطى الإنسان فقال: «**الخُلق الحسن**»[٧].

وسئل ﷺ عن أكثر ما يُدخل الإنسان الجنة فقال: «**تقوى اللّه وحُسنُ الخلقِ**»[٨]. ويغنى عن هذا كله قوله ﷺ: «**إنما بُعثتُ لأتممَ مَكَارِمَ الأخلاقِ**»[٩].

فكأن الرسالة التى خطت مجراها فى تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهدًا

---

(١) صحيح: ت (١١٧٢/٣١٥/٢)، د (٤٦٥٧/٤٣٩/١٢).

(٢) متفق عليه: خ (٦٠٣٥/٤٥٦/١٠)، م (٢٣٢١/١٨١٠/٤)، ت (٢٠٤١/٢٣٥ و٢٣٦/٣).

(٣) صحيح: م (٢٥٥٣/١٩٨٠/٤)، ت (٢٤٩٧/٢٣ و٢٤/٤).

(٤) حسن: ت (٢٠٨٧/٢٤٩ و٢٥٠/٣).

(٥) صحيح: ت (٢٠٧١/٢٤٥/٣)، د (٤٧٧٨/١٥٥/١٣).

(٦) صحيح: د (٤٧٧٧/١٥٤/١٣).

(٧) صحيح: جه (٣٤٣٦/١١٣٧/٢).

(٨) صحيح: ت (٢٠٧٢/٢٤٥/٣).

(٩) صحيح: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» (٤٥) وقال: رواه البخارى فى «الأدب المفرد» (رقم ٢٧٣)، وابن سعد فى «الطبقات» (١/ ١٩٢)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، وأحمد (٢/ ٣١٨)، وابن عساكر فى «تاريخ دمشق» (٦/ ٢٦٧/ ١) من طريق ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعاً.

كبيرًا في مدّ شعاعها وجمع الناس حولها - لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم حتى يسعوا إليها على بصيرة.

لكن حسن الخلق لا يؤسس فى المجتمع بالتعاليم المرسلة، أو الأوامر والنواهى المجردة، إذ لا يكفى فى طبع النفوس على الفضائل أن يقول المعلم لغيره: افعل كذا أو لا تفعل كذا، فالتأديب المثمر يحتاج إلى تربية طويلة، ويتطلب تعهدًا مستمرًّا، ولن تصلح تربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة، فالرجل السيئ لا يترك فى نفوس من حوله أثرًا طيبًا، وإنما يتوقع الأثر الطيب ممن تمتد العيون إلى شخصه فيروعها أدبه، ويسبيها نبله، وتقتبس بالإعجاب الكامل من كلامه وتمشى بالمحبة الخالصة فى آثاره، ولذا كان النبى ﷺ بين أصحابه مثلاً أعلى للخلق الذى يدعو إليه، فهو يغرس بين أصحابه هذا الخلق السامى بسيرته العاطرة قبل أن يغرسه بما يقول من حكم وعظات.

عن عبد اللَّه بن عمرو رضى اللَّه عنهما قال: إن رسول اللَّه ﷺ لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: «**خياركم أحاسنكم أخلاقًا**»[١].

وعن أنس رضى اللَّه عنه قال: «خدمت النبى ﷺ عشر سنين، واللَّه ما قال لى أُف قط، ولا قال لشىء لِمَ فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟»[٢].

وحسبك شهادة ربّه فيه، حيث قال: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤]، ﴿ **وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا** ﴾ [الفتح: ٢٨].

---

(١) سبق.

(٢) متفق عليه: م (٢٣٠٩/ ١٨٠٤/ ٤) واللفظ له، خ (٦٠٣٨/ ٤٥٦/ ١٠). وانظر مقدمة (خلق المسلم) للغزالي.

وقد أمر اللَّه المسلمين أن يقتدوا به ﷺ فى طيب شمائله وعريق خلاله فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقد اختلفت عبارات السلف فى تفسير حُسن الخلق:

فعن الحسن قال: حُسن الخلق: الكرم والبذل والاحتمال.

وعن ابن المبارك: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

وعن الإمام أحمد: حُسن الخلق أن لا تغضب، ولا تحقد.

وإذا علمنا أن النبى ﷺ كان المثل الأعلى فى حسن الخلق، وقد سئلت عائشة رضى اللَّه عنها عن خلقه فقالت: «كان خلقه القرآن»[1] ـ علمنا أن حسن الخلق هو التخلق بأخلاق القرآن، والتأدب بآدابه، والتحلى بفضائله ومكارمه، اقتداء فى ذلك به ﷺ، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

(١) صحيح: رواه: م (٧٤٦/ ٥١٢ - ٥١٤/ ١)، د (١٣٢٨/ ٢١٩ - ٢٢٢/ ٤)، نس (١٩٩ - ٢٠١/ ٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٦][1].

وقوله تـعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورىٰ: ٣٧-٤٠].

فمن أراد أن يعـرف أين هو من حسن الخلق فليـعرض نفـسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سـوء الخلق، ووجود بعـضـها دون الـبعض يدل على البـعض دون البـعض فليشـتغل بحفظ ما وجـده، وتحصيل ما فـقده، وعليه أن يستـعين باللَّه على

(١) انظر تفصيل القول فيها في كتابي «صفات المتقين».

تحسين خلقه، بأن يسأله ذلك، ويلحّ عليه فى السؤال: «اللهم كما حسّنت خَلْقى حَسِّن خُلقى»[١].

ثم سأل السائل: «أىُّ المؤمنين أكيس؟» أى: أعقل. والْكَيْسُ: العقل. والكيِّس: العاقل. فقال ﷺ: **«أكثرُهم للموت ذكرًا»**.

ولقد كان النبى ﷺ يوصى بالإكثار من ذكر الموت، فكان ﷺ يقول: **«أكثرُوا ذكرَ هاذِمِ اللذاتِ الموتَ»**[٢].

قال العلماء: هذا كلام مختصر وجيز، قد جمع التذكرة، وأبلغ فى الموعظة، فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة، ومنعه من تمنيها فى المستقبل وزهده فيما كان منها يؤمل، ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ، وتزويق الألفاظ.

ولقد كان السلف الصالح رضوان اللَّه عليهم أكثر ذكرًا للموت من غيرهم:

فكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه كثيرًا ما يتمثل بهذه الأبيات:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجرى الريح له ... والإنس والجن فيما بينهما ترد

أين الملوك التى كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد

حوض هنالك مورود بلا كذب ... لابد من ورده يوما كما وردوا

---

(١) صحيح: قال الألبانى فى «الإرواء» (١/١١٥) أخرجه أحمد (١/٤٠٣)، وابن سعد فى «الطبقات» (١/٣٧٧)، وأبو يعلى فى «مسنده» (٢/٢٤٣، ١/٢٤٩) من طريق عوسجة بن الرماح عن عبد الله بن أبى الهذيل عن ابن مسعود.

(٢) حسن صحيح: ت (٢٤٠٩/٣٧٨ و٣/٣٧٩)، جه (٤٢٥٨/١٤٢٢/٢)، نس (٤/٤).

وكان أمـير المؤمنين عـمر بن عبـد العزيز رضى الله عنه يجـمع العلماء فيتذاكرون الموت والقيامة فيبكون حتى كان بين أيديهم جنازة.

وكان يزيد الرقاشى يقول لنفسه: ويحك يا يزيد! من ذا يصلى عنك بعد الموت؟!

من ذا يصوم عنك بعد الموت؟!

من ذا يرضى ربك عنك بعد الموت؟!

ثم يقول: أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم؟!

مَن الموت طالبه، والقبـر بيته، والتراب فراشـه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله...؟!

ثم يبكى حتى يسقط مغشيًا عليه.

وكان بعـض الصالحيـن ينادى بليل بسور المدينة: الرحـيل الرحيل فـلما توفى فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه فقيل إنه مات، فقال:

مـا زال يلهج بالرحـيل وذكـره ... حـتى أناخ بيـابه الجمـــــال
فـأصـــابه متـيقــظا مـتشـمرا ... ذا أهـبة لم تلهـه الآمـــال[1]

ولقد كان رحمه الله فى ندائه هذا مقتديًا برسول الله ﷺ، فعن أبىّ بن كعب رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: **«يا أيها الناسُ! اذكرُوا الله، اذكـرُوا اللهَ، جاءت الراجفةُ، تتبعُها الرادفةُ، جاءَ الموتُ بما فيه»**[2].

(١) التذكرة للقرطبى (٨ و٩/ ١).
(٢) حسن: ت (٢٥٧٤/٥٣/٤).

ومما يعين على ذكر الموت:

١ - زيارة القبور:

فقد قال ﷺ: **«كنتُ نهيتكُم عَن زِيَارة القُبُور فزُوروهَا فإنهَا تذكِّركم الآخرةَ»**[١].

فإذا رأيت قسوةً فى قلبك، وجمودًا فى عينك، وطولاً فى أملك، فبادر بزيارة القبور، فسلّم عليهم، ثم اعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، فجاءه الموت فى وقتٍ لم يحتسبه، وهولٍ لم يرتقبه.

وتأمّل حال من مضى من إخوانك، ودرج من أقرانك، الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت فى القبور أجزاؤهم، وترمّل بعدهم نساؤهم، وشمل ذلّ اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريقهم وبلادهم، وتذكر تردّدهم فى المآرب، وحرصهم على ترسل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب، واعلم أنك صائر إلى ما صاروا إليه، ومقدم على ما أقدموا عليه[٢].

فخيّل لنفسك يا ابن آدم إذا أخذت من فراشك إلى لوح مغتسلك فغسلك الغاسل، وأُلبست الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران وبكت عليك

---

(١) صحيح: رواه: أحمد فى الزوائد (٨/١٥٧/٣٢٨) وهذا لفظه، نس (٨/٣١١)، د (٣٦٨٠/١٦٢/١٠)، م (١٩٧٧/١٥٦٣/٣) بدون الجملة الأخيرة.

(٢) التذكرة (١٣، ١٨٤).

الأصحاب والإخوان، ثم خرجوا بك على الأعناق: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠] فإن كنت صالحًا وعُرض عليك مقعدك من الجنة قلت بصوت يسمعه كل من على وجه الأرض إلا الإنسان: قدّمونى قدّمونى. وإن كنت غير ذلك قلت: يا ويلها!! أين تذهبون بها[١]؟!

ثم صلّوا عليك، وساروا بك حتى أسلموك لبيت: التراب فراشه، والدود أنيسه، فإن كنت صالحًا وُسّع عليك، وإن كنت غير صالح ضيق عليك حتى تختلف أعضاؤك.

فباللَّه عليك! اعمل لهذه الساعة عملاً يؤنس وحشتك، بعد أن يرجع عنك أهلك ومالك وأولادك، وإنك لتسمع قرع نعالهم إذا ولوا عنك مدبرين.

قال ﷺ: «**يتبعُ الميتَ ثلاثةٌ: أهلُهُ ومالُه وعملُه، فيرجعُ اثنانِ ويَبقَى واحدٌ، يرجعُ أهلُه ومالُه ويَبقَى عملُه**»[٢].

فإن كان صالحًا: «يأتيه فى صورة رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرّك أبشر برضوان من اللَّه وجنات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذى كنت توعد. فيقول له: وأنت فبشرك اللَّه بخير، من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فواللَّه ما علمتك إلا كنت سريعًا فى طاعة اللَّه، بطيئًا فى معصية اللَّه، فجزاك اللَّه خيرًا. ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك لو عصيت اللَّه، أبدلك اللَّه به هذا. فإذا رأى ما فى الجنة قال: ربّ

---

(١) التذكره للقرطبى.

(٢) متفق عليه: رواه: خ (٦٥١٤/٣٦٢/١١)، م (٢٩٦٠/٢٢٧٣/٤)، ت (٢٤٨٥/٧).

عجّل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلى ومالى.

فيقال له: اسكن».

وإن كان العمل غير صالح فإنه: «يأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذى يسوءك، هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول: وأنت فبشرك اللَّه بالشر! من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالشر! فيقول: أنا عملك الخبيث، فواللَّه ما علمتك إلا كنت بطيئًا عن طاعة اللَّه، سريعًا إلى معصية اللَّه فجزاك اللَّه شرًّا»[1].

٢- الثانى مما يعين على ذكر الموت: مشاهدة المحتضرين:

فإن فى النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته ما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمنع الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد فى الاجتهاد والتعب.

* * *

(١) سبق.



الحديث السادس عشر

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «خَيْرُ النَّاسِ ذُو الْقَلْبِ الْمَخمُومِ واللِّسَانِ الصَّادقِ».

قيلَ: مَا الْقَلْبُ الْمَخمُومُ؟

قَالَ: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِى لا إِثْمَ فِيهِ وَلاَ بَغْيَ وَلاَ حَسَدَ».

قيلَ: فَمَنْ على أَثَرِهِ؟

قَالَ: «الَّذِى يَشْنَأُ الدُّنْيَا وَيُحِبُّ الآخِرَةَ».

قيلَ: فَمَنْ عَلَى أَثَرِهِ؟

قَالَ: «مُؤْمِنٌ فِى خُلُقٍ حَسَنٍ»[1].

قال اللَّه تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فقد أشار اللَّه سبحانه فى هذه الآية إلى أن الشعوب والقبائل والأحساب والأنساب والأموال ونحوها من قيم الناس لا تزن عند اللَّه جناح بعوضة،

---

(١) صحيح: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» (رقم ٩٤٨) وقال: رواه ابن ماجه (٤٢١٦/٤٠٩، ٢/١٤١)، وابن عساكر (١٧/٢٩/٢). وأشار إلى أن رواية ابن ماجه منتهية إلى قوله « ولا حسد»، وهو كذلك.

وإنما الميزان الذى يزن اللَّه به الناس ويرفعهم به فى الدنيا والآخرة هو ميزان التقوى ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾.

وهذا الحديث يؤكد هذا المعنى، ويبين باختصار شديد أن الخيرية مردّها إلى تقوى اللَّه وحسن الخلق، وأنه على قدر حظ العبد منهما يكون حظه من الخيرية، فكلما زاد حظه من التقوى وحسن الخلق زاد حظه من الخيرية، وكلما نقص حظه منهما نقص حظه منها.

فالرسول ﷺ يقول: «**خيرُ الناسِ ذو القلبِ المخمومِ واللسانِ الصادقِ**». واللسان الصادق معروف ولذا لم يسألوا عنه. والصدق فضيلة عظيمة، ومنقبة جليلة، جعله اللَّه من صفات المتقين فقال فى حقهم: ﴿**الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ**﴾ [آل عمران: ١٧].

وأمرنا أن نكون مع أهله فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال النبىّ ﷺ: «**عليكُم بالصدق فإنَّ الصدقَ يهدى إلى البرّ، وإن البرّ يهدى إلى الجنة، ولا يزالُ الرجلُ يصدقُ ويتحرّى الصدقَ حتى يُكتب عند اللَّه صدّيقاً**»(١).

والصديقية درجة فوق درجة الشهادة ودون درجة النبوّة، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: ٦٩].

وكما مدح اللَّه الصدق وأهله ذمّ الكذب وأهله، وجعل الكذب من صفات المنافقين والكافرين، فقال تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**

---

(١) متفق عليه: خ (٦٠٩٤/٥٠٧/١٠)، م (٢٦٠٧/٢٠١٢/٤)، د (٤٩٦٨/٣٣٣/١٣)، ت (٢٠٣٨/٢٣٤/٣).

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

وقد نعى اللَّه تعالى على أقوام جَـرْيَهم وراء الظنون التى ملأت عقولهم بالخرافات وأفسدت عليهم حاضرهم ومستقبلهم، فقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]

أى: فأعرضـوا عنه. وقال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

وقال النبىُّ ﷺ: «إياكُم والظنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحَديث»[١].

وقـال ﷺ: «دَع مَا يَريبُكَ إلى مـا لا يريبُك، فإنَّ الصدقَ طـمأنينةٌ، والكذبَ ريبـةٌ»[٢]. وقـال ﷺ: «وإياكُم والكَذبَ، فإنَّ الكذبَ يهـدى إلى الفجور، وإن الفجـورَ يهدى إلى النارِ، ولا يزالُ الرجلُ يكـذبُ ويتحرى الكذبَ حـتى يُكتبَ عندَ اللَّه كذّابا»[٣].

فـعلى المسلميـن أن يعظموا الصـدق ويتـحرّوه فى كل أقـوالهم، وأن يحذروا الكذب ويجتـنبوه على كل حال، فإن اللَّه وعد الصـادقين بالجنة، وتوعد الكاذبين بالنار، قـال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ

(١) مـتـفق عليـه: خ (٥١٤٣/١٩٨/٩)، م (٢٥٦٣/١٩٨٥/٤)، د (٤٨٩٦/٢٥٩/١٣)، ت (٢٠٥٥/ ٢٤٠/٣).

(٢) صحيح: ت (٢٦٣٧/٧٧/٤)، نس (٣٢٧/٨).

(٣) هو جزء من الحديث رقم (٣).

وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٢-٣٥].

وأما **القلب المخموم**: فقد سأل عنه الصحابةُ رسولَ اللَّه ﷺ فقال: «**هو التقيّ النقيّ الذى لا إثمَ فيه ولا بغيَ ولا حسدَ**». وإنما وُصف القلبُ بالتقوى لأنه محلها، كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج: ٣٢].

وكما قال النبيُّ ﷺ: «**التقوى ها هنا**» وأشار إلى صدره[١].

ولذا كان القلب محلَّ نظر اللَّه تعالى، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللَّه لا ينظرُ إلى صورِكم ولا إلى أجسامِكم، ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُم**»[٢]. وكان صلاح الجسد متوقفاً على صلاح القلب، كما قال النبيُّ ﷺ: «**ألا إنَّ فى الجسد مُضْغةً إذا صَلحَتْ صَلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهى القلبُ**»[٣].

فإذا امتلأ القلب بالتقوى فقد صلح وصلح بصلاحه الجسد كلُّه، وإذا خلا القلب من التقوى فقد فسد وفسد بفساده الجسد كلُّه.

فاتقوا اللَّه عباد اللَّه، وجملوا قلوبكم بتقوى اللَّه، فإنها لباسها، كما أن الثياب لباس البدن قال اللَّه تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾ [الأعراف: ٢٦].

---

(١) صحيح: م (٢٥٦٤/١٩٨٦/٤)، ت (١٩٩٢/٢١٨/٣).

(٢) صحيح: م (٢٥٦٤/١٩٨٦/٤).

(٣) متفق عليه: خ (٥٢/١٢٦/١)، م (١٥٩٩/١٢٢٠/٣).

ومما يُفسد القلبَ دنايا الأخلاق وقبيحُ الصفات، وأعظمها: الإثم، والبغى، والحسد، ولذا حرّم الإسلام هذه الأخلاق، قال اللَّه تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال النبيُّ ﷺ: «**لا تحاسَدُوا ولا تناجشُوا ولا تباغضُوا ولا تدابرُوا ولا يبعْ بعضُكم على بيعِ بعضٍ، وكونوا عباد اللَّه إخواناً**»[١].

وقد أخبر النبى ﷺ أن هذه الأخلاق الدنيئة ستصيب الأمة، وتحدث فيها البغى والعدوان، فقال ﷺ: «**سيصيبُ أمتى داءُ الأممِ**». قالوا: وما داءُ الأمم؟ قال: «**الأشرُ والبطرُ والتكاثرُ والتشاحنُ فى الدُّنيَا، والتباغُض والتحاسُد، حتى يكون البغيُ**»[٢].

فاللَّه اللَّه عبْاد اللَّه، إياكم وهذه الأخلاق الدنيئة، والصفات القبيحة، فإنها تنافى الإيمان، لأن الحسد من صفات الكفرة الفجرة. قال تعالى عنهم: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النساء: ٥٤].

واعلموا ـ عباد اللَّه ـ أن سلامة الصدر من هذه الأخلاق الدنيئة هى سبب دخول الجنة.

عن أنس بن مالك رضى اللَّه عنه قال: كنا جلوساً مع رسول اللَّه ﷺ فقال: «**يطلعُ عَلَيكُم الآنَ رَجُلٌ من أهلِ الجنّة**» فطلع رجلٌ من الأنصار تنطفُ لحيتُه من وضوئه، قد تعلّق نعلاه فى يده الشمال. فلما كان الغد قال النبىّ ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجلُ مثل المرة الأولى. فلما كان اليومُ الثالثُ

(١) هو صدر الحديث رقم (١).
(٢) حسن: كم(١٦٨/٤).

قال النبى ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثال حاله الأولى.

فلما قام النبىُّ ﷺ تبعه عبد اللَّه بن عمرو بن العاص فقال: إنى لاحيت أبى فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت. قال: نعم. قال أنس: فكان عبد اللَّه يحدّث أنه بات معه تلك الليالى الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعارّ (أى استيقظ) وتقلب على فراشه ذكر اللَّه عز وجل وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر.

قال عبد اللَّه: غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً. فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد اللَّه إنى لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجرٌ ثمَّ، ولكن سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول لك ثلاث مرار: «**يطلعُ عليكُم الآنَ رجلٌ من أهلِ الجنة**» فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوى إليك لأنظر عملك فأقتدى به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذى بلغ بك ما قال رسول اللَّه ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت. قال: فلما ولّيت نادانى فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشًّا ولا أحسد أحداً على خيرٍ أعطاه اللَّه إياه. فقال عبد اللَّه: هذه التى بلغت بك، وهى التى لا نطيق[1].

هذا هو «خير الناس، ذو القلب المخموم واللسان الصادق».

قيل: فمن على أثره؟ قال: «**الذى يَشنَأُ الدنيَا ويُحبُّ الآخرةَ**» ومعناه الذى يكره الدنيا ويحب الآخرة.

---

(١) **صحيح** : أحمد (١٠٩/ ٢٣٧/ ١٩) وقال البنانى فى (الفتح الربانى) ، أورده المنذرى فى الترهيب والترغيب وقال: رواه أحمد بإسناد على شرط البخارى ومسلم والنسائى ورواته احتجا بهم أيضا شيخه سويد بن نصر وهو ثقة .

وقد ذمّ اللَّه تعالى من يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة، فقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴾ [الإنسان: ٢٧].

فإذا ذمّ اللَّهُ تعالى من أحب الدنيا فقد دلّ ذلك على مدح من لا يحبها. وقال بعضهم: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لآثرت العقول ما يبقى على ما يفنى، فكيف والدنيا لا تزن عند اللَّه جناح بعوضة.

وقال النبى ﷺ: **«من كانت الدنيا همّه فرّق اللَّه عليه أمره، وجعلَ فقرهُ بين عينيه، ولمْ يأته منَ الدنيَا إلا ما كُتب له. ومَن كانت الآخرةُ نيّته جمعَ اللَّهُ عليه أمرَهُ، وجعلَ غنَاهُ فى قَلبِه، وأتتهُ الدنيا وهى راغمةٌ»**(١).

وقال بعضهم: الدنيا والآخرة فى القلب ككفّتى الميزان، ما ترجح إحداهما حتى تخفّ الأخرى.

وقال آخر: إنما الدنيا والآخرة كرجل له امرأتان إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى.

والأحاديث فى ذمّ الدنيا وتحقيرها كثيرة جدا، ومنها:

عن جابر رضى اللَّه عنه عن النبى ﷺ: أنه مرّ بالسوق والناس كنفيه فمرّ بجدى أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه فقال: **«أيكُم يحبُّ أنَّ هَذَا لَهُ**

---

(١) صحيح: جه (٤١٠٥/ ١٣٧٥/ ٢)

بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشىء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبونَ أنَّهُ لكُم؟» قالوا: واللَّه لو كان حيًّا لما رغبنا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «واللَّه! للدُّنيَا أهونُ على اللَّهِ من هَذَا عَلَيكُم»(١).

وعنه ﷺ أنه قال: «ما الدنيا فى الآخرةِ إلا كما يجعلُ أحدُكم أُصبعَه فى اليمّ، فلينظر بماذا يرجع؟»(٢).

وقال ﷺ: «لو كانتِ الدنيَا تعدلُ عندَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعوضَةٍ ما سقى كافراً منها شربةَ ماءٍ»(٣).

ثم قيل: فمن على أثره؟ قال: «مؤمنٌ فى خُلُقٍ حَسَنٍ».

إن حسن الخلق عنوان كمال الإيمان، وسوء الخلق دليل النقصان، ولذا قال النبى ﷺ: «أكملُ المؤمنينَ إيماناً أحسنُهم خُلُقاً»(٤).

ولقد كانت تزكية النفس من دنايا الأخلاق وقبيح الصفات غايةً من غايات بعثته ﷺ. قال اللَّه تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال النبى ﷺ: «إنما بُعثت لأتممَ مكارمَ الأخلاق»(٥).

والناظر فى أصول العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج يجدها كلها

---

(١) صحيح: م (٢٩٥٧/ ٢٢٧٢/ ٤).
(٢) صحيح: م (٢٨٥٨/ ٢١٩٣/ ٤)، ت (٢٤٢٥/ ٣٨٤/ ٤)، جه (٤١٠٨/ ١٣٧٦/ ٢).
(٣) صحيح: ت (٢٤٢٢/ ٣٨٣/ ٤).
(٤)، (٥) سبق.

تجتمع على تهذيب النفس وتنمية الأخلاق الحميدة فيها:

قال تعالى عن الصلاة: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال عن الصيام: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال عن الزكاة: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال عن الحج: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾ [البقرة: ١٩٧].

فلا غرابة بعد ذلك إذا رأينا النبى ﷺ يشيد بالأخلاق الحميدة ويرفع من شأنها وشأن أهلها: يقول النبيُّ ﷺ: «**إن العبدَ ليبلغُ بحُسنِ خُلُقه درجةَ الصائمِ القائم**»[١].

ويقول ﷺ: «**ما مِن شيءٍ أثقلُ فى ميزانِ العبدِ يومَ القيامَة من حُسنِ الخُلق**»[٢].

ويقول ﷺ: «**إن أحبَّكم إليّ وأقربَكُم منى مَجلساً يومَ القيامَة أحاسنُكم أخلاقاً**»[٣].

وسئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «**تقوى اللّه وحسن الخلق**»[٤].

بل بلغ من عنايته ﷺ بحسن الخلق أن جعل حسن الخلق يدخل الإنسان

(١ ـ ٤) سبق.

الجنة وإن قلّ عمله، وجعل سوء الخلق يدخل الإنسان النار وإن كثر عمله.

عن النبى ﷺ أن رجلاً قال له: يا رسول اللَّه! إن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها.

فقال: «**هى فى النار**». ثم قال: يا رسول اللَّه! فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط ولا تؤذى جيرانها.

قال: «**هى فى الجنة**»(١).

فاللَّه اللَّه عباد اللَّه!

زكوا أنفسكم، وحسّنوا أخلاقكم، واسألوا اللَّه من فضله أن يهديكم لأحسن الأخلاق، وألظوا بـ : اللهم كما حسّنت خلقنا حسّن أخلاقنا(٢).

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها(٣).

* * *

(١ ـ ٣) سبق.



الحديث السابع عشر

**عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:
«إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقاً، وَإِنَّ خُلُق الإِسْلامِ الْحَيَاءُ»[1].**

هذا حديث عظيم، بيّن فيه النبىّ ﷺ أن الغالب على أهل كلّ دين سجيّة سوى الحياء، والغالب على أهل ديننا الحياء، لأنه متمّم لمكارم الأخلاق، وإنما بُعث النبىّ ﷺ لإتمامها.

ولما كان الإسلام أشرف الأديان أعطاه اللَّه سبحانه أسنى الأخلاق وأشرفها وهو الحياء.

ولقد كان النبىّ ﷺ المثل الأعلى فى الحياء:

فعن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه عنه قال:

«كان رسولُ اللَّه ﷺ أشدّ حياءً من العذراء فى خِدْرها، وكان إذا كره شيئاً عُرِف ذلك فى وجهه»[2].

ولقد كثرت الأحاديث عن النبىّ ﷺ فى مدح الحياء والحثّ عليه وبيان منزلته من الدين.

---

(١) حسن: جه (٢/١٣٩٩/٤١٨٢).

(٢) متفق عليه: خ (١٠/٥١٣/٦١٠٢)، م (١٨٠٩/٢٣٢٠، ٤/١٨١٠)، جه (٢/١٣٩٩/٤١٨٠).

عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ شُعبةً، فأفضلُها قولُ لا إله إلا اللَّهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ**»[١].

وعن ابن عمر رضى اللَّه عنهما: أن النبىّ ﷺ مرّ برجلٍ وهو يعظ أخاه فى الحياء، فقال ﷺ: «**دَعْه، فإنَّ الحَيَاءَ منَ الإيمانِ**»[٢].

وعنه رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الحياءُ والإيمانُ قُرِنَا جميعاً، فإذا رُفع أحدُهما رُفعَ الآخرُ**»[٣].

وعن ابن مسعود رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن مما أدركَ الناسُ من كلامِ النّبوّة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنَع ما شئتَ**»[٤].

وقد اختلفت عبارات العلماء فى الإعراب عن معنى الحياء:

فقيل: هو خُلُق يبعث على فعل الحسن وترك القبيح.

وقيل: هو انقباض النفس خشيةَ ارتكاب ما يكره.

وقال الزمخشرى: هو تغيُّرٌ وانكسار يعترى الإنسانَ من خوف ما يُعاب به ويُذم.

وقال الراغب: الحياء انقباض النفس من القبيح.

---

(١) **صحيح**: م (٣٥ - ٥٨ -/٦٣/١)، د (٤٦٥١/ ٤٣٢ و٤٣٣/ ١٢)، جه (٥٧/ ٢٢/ ١)، نس (١١٠/٨)، وأخرجه البخارى بلفظ: «**الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان**» (٩/ ٥١/ ١) وهى رواية لمسلم إلا أنه قال: «وسبعون».

(٢) **متفق عليه**: خ (٢٤/ ٧٤/ ١)، م (٣٦/ ٦٣/ ١)، ت (٢٧٤٨/ ١٢٤/ ٤)، د (٤٧٧٤/ ١٥١/ ١٢)، نس (١٢١/٨)، جه (٥٨/ ٢٢/ ١).

(٣) **صحيح**: كم (٢٢/ ١).

(٤) **صحيح**: خ (٦١٢٠/ ٥٢٣/ ١٠)، د (٤٧٧٦/ ١٥٣/ ١٢)، جه (٤١٨٣/ ١٤٠٠/ ٢).

وهو من خصائص الإنسان ليرتدع عن ارتكاب كل ما يشتهى فلا يكون كالبهيمة. وهو مركبٌ من جُبْنٍ وعفّةٍ، فلذلك لا يكون المستحى فاسقاً، وقلّما يكون الشجاع مستحياً.

فالحياء خلق الكرام، وسمة أهل المروءة والشرف، وعنوان الفضل والعقل، من حُرمه حُرِم الخير كلّه، ومن تحلّى به ظفر بالعزّة والكرامة ونال الخير أجمع.

والحياء أمارة صادقة على طبيعة الإنسان، فهو يكشف عن قيمة إيمانه ومقدار أدبه. فعندما ترى الإنسان يشمئز ويتحرج من فعل ما لا ينبغى، أو ترى حمرة الخجل فى وجهه صابغة إذا بدر منه ما لا يليق، فاعلم أنه حىّ الضمير، نقىّ المعدن، زكىّ العنصر. وإذا رأيت الرجل لا يكترث ولا يبالى بما يبدر منه فهو امرؤ لا خير فيه، وليس له وازع يمنعه من ارتكاب الجرائم، واقتراف الآثام والدنايا[1].

وقد جعل العلماءُ الحياءَ قسمين:

الأول: الحياء من الناس:

ومنه: أن يطهّر الإنسان فمه من الفحش، وأن يعزّ لسانه عن العيب، وأن يخجل من ذكر العورات، فإن من سوء الأدب أن تفلت الألفاظ البذيئة من المرء غير عابئ بمواقعها وآثارها.

ومنه: أن يقتصد المسلم فى تحدّثه بالمجالس، فإن بعض الناس لا يستحيون من امتلاك ناصية الحديث فى المحافل الجامعة، فيملئون الأفئدة

(١) خلق المسلم (ص ١٧٤).

بالضجر من طول ما يتحدثون.

ومنه: أن يخجل الإنسان من أن يؤثر عنه سوء، وأن يحرص على بقاء سمعته نقيّة من الشوائب، بعيدة عن الإشاعات السيئة.

ومنه: أن يعرف لأصحاب الحقوق منازلهم، وأن يؤتى كلّ ذى فضلٍ فضله، فللغلام مع من يكبرونه، وللتلميذ مع من يعلمونه مسلك يقوم على التأدب والتقديم، فلا يسوغ أن يرفع فوقهم صوته، ولا أن يجعل أمامهم خطوه.

وأما القسم الثانى من الحياء فهو الحياء من اللَّه عزّ وجل:

فنحن نطعم من خيره، ونتنفس فى جوّه، وندرج على أرضه، ونستظل بسمائه، والإنسان بإزاء النعمة الصغرى من مثله يخزى أن يقدم إلى صاحبها إساءة، فكيف لا يخجل الناس من الإساءة إلى ربهم الذى تغمرهم آلاؤه من المهد إلى اللحد، وإلى ما بعد ذلك من خلود طويل؟

إن حقّ اللَّه على عباده عظيم، ولو قدروه حق قدره لسارعوا إلى الخيرات يفعلونها من تلقاء أنفسهم، ولابتعدوا عن السيئات خجلاً من مقابلة الخير المحض بالجحود والخسّة.

ولقد بيّن النبى ﷺ كيف يكون الحياء من اللَّه:

فعن ابن مسعود رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ ذات يوم لأصحابه: «**استحيُوا منَ اللَّه حَقَّ الحياء**». قالوا: إنا نستحيى من اللَّه يا رسول اللَّه والحمد للَّه. قال: «**ليسَ كَذَلك. ولكنْ من استحيا من اللَّه حقَّ الحياء فليحفظ الرأسَ ومَا وَعَى، والبطنَ ومَا حَوَى، وليذكُرِ الموتَ والبِلَى، ومَن أَرَادَ**

الآخرةَ تَرَكَ زينةَ الحياةِ الدنيا، فمَن فعلَ ذلكَ فقَد استحيا من اللَّه حقَّ الحياء»[١] .

وهكذا بيّن ﷺ أن حقيقة الحياء من اللَّه تكون بمجموع هذه الأمور، وأن من ترك منها شيئاً نقص حياؤه على قدر ما ترك منها.

وأول هذه الأمور: حفظ الرأس:

وحفظ الرأس مجـملاً عبارة عن التنزه عن الشرك، فلا يضع رأسـه لغير اللَّه ساجداً، ولا يرفعـه على عباد اللَّه تكبّراً، فإن السجـود لغير اللَّه شرك، قـــــال ﷺ : « **لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تَسجُدَ لزَوجِهَا**»[٢] .

والتكبر على عباد اللَّه كبيرة، وكلاهما من موجبات النار.

قال تعـالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال النبيّ ﷺ : «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كَانَ فى قلبِه مثقالُ ذرّةٍ من كبر**»[٣] .

وأما تفصيلاً: فحفظ الرأس مـعناه: أن يحفظ العبد الرأس وما وعاه من الحواس كالفم واللسان، والعين والأذن.

أما الفمّ: فحفظه يكون باجتناب أكل الحرام وما فيه شبهة، فإن النبيّ ﷺ قال: «**كلُّ جسدٍ نبتَ من سحتٍ فالنَّارُ أولَى بِه**»[٤] .

---

(١) حسن: ت (٢٥٧٥/٥٣ و٤/٥٤).

(٢) صـحيح: ت (١١٦٩/٣١٤/٢) من حـديث أبى هريرة، جه (١٨٥٢/٥٩٥/١) من حـديث عائشة.

(٣) صحيح: م (٩١/٩٣/١)، ت (٢٠٦٧/٢٤٣ و٢٤٤/٣).

(٤) صحيح: أخرجه السيوطى فى «الجامع الصغير» وصححه الألبانى (٤٣٩٥)

وأكل الحرام يمنع قبول الدعاء كما في الحديث: «**إنَّ اللَّهَ تَعَالى طيّب لا يقبلُ إلا طيباً، وإنَّ اللَّه أمَرَ المُؤمنينَ بما أَمَرَ به المُرسَلينَ، فقَال تَعَالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّه إن كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** [البقرة: ١٧٢].

ثمَّ ذَكَرَ الرجلَ يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: ياربِّ! ياربِّ ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنى يستجابُ لذلك؟»[(١)].

وأما اللسان فإمساكه عن الحرام والشرّ واجب، وقد كثرت الأحاديث في الأمر بصيانة اللسان، منها:

قوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللَّهِ وَاليَوْمِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو ليَصْمُتْ**»[(٢)].

ولما أرشد النبيّ ﷺ معاذ بن جبل ودلّه على أبواب الخير كلّها قال: «**ألا أدلكَ علَى مِلاكِ ذلكَ كُلّه؟** قال: بلى يا رسول اللَّه. قال: **أمسكْ عَلَيكَ لسَانَك**»[(٣)].

وقال ﷺ لسفيان الثقفي وقد قال له: «ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ ﷺ بلسان نفسه وقال: «**هَذَا**»[(٤)].

وإنما كان اللسان بهذه المنزلة من الخطر: لأن به يكون الشرك باللَّه، والكفر به، وبه يكون الكذب، والغيبة، والنميمة، وشهادة الزور، وبه يكون القول على اللَّه بغير علم، وكلّ ذلك من الموبقات.

---

(١) صحيح: م (١٠١٥/٧٠٣/٢)، ت (٤٠٧٤/٢٨٨/٤).
(٢) صحيح: خ (٦٤٧٥/٣٠٨/١١)، ت (٢٦١٧/٧٠/٤).
(٣) صحيح: ت (٢٧٤٩/١٢٤ و١٢٥/٤)، جه (٣٩٧٣/١٣١٤ و١٣١٥/٢).
(٤) صحيح: ت (٢٥٢٢/٢٢/٤)، جه (٣٩٧٢/١٣١٤/٢).

وأما العين فقد أُمر المسلم بحفظها عن النظر إلى ما متَّع اللَّهُ به الكفارَ من متاع الحياة الدنيا.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «انظرُوا إلى مَن هو أسفلَ منكُم، ولا تَنظُرُوا إلى مَن هُوَ فوقَكُم، فهوَ أجدرُ أن لا تَزدَرُوا نعمةَ اللَّهِ عَلَيكُم»[١].

وقد أمر اللَّه تعالى أيضاً المؤمنين والمؤمنات بغض البصر عما لا يحل النظر إليه.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وقال ﷺ لعليّ رضي اللَّه عنه: «يا عليّ! لا تُتْبِع النظرةَ النظرةَ، فإنَّ لكَ الأُولى وعليكَ الثانيةَ»[٢].

وسئل ﷺ عن نظر الفجأة؟ فقال: «اصرفْ بصرَك»[٣].

---

(١) صحيح: م (٢٩٦٣/ ٢٢٧٥/ ٤)، ت (٢٦٣٢/ ٧٥/ ٤)، جه (٤١٤٢/ ١٣٨٧/ ٢).

(٢) حسن: ت (١٩٢٧/ ١٩١/ ٤)، د (٢١٣٥/ ١٨٦/ ٦).

(٣) صحيح: م (٢١٥٩/ ١٦٩٩/ ٣)، د (٢١٣٤/ ١٨٦/ ٦)، ت (٢٩٢٦/ ١٩١/ ٤).

وقال ﷺ: «**إياكُم والجلوسَ فى الطرقَاتِ**»! قالوا: يا رسول اللَّه! ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها!

فقال ﷺ: «**فإذا أَبَيتُم إلا المجلسَ فأعطُوا الطريقَ حقَّه**». قالوا: وما حقّ الطريق يا رسول اللَّه؟ قال: «**غضّ البصرِ، وكفّ الأذَى، وردّ السَّلامِ، والأمرُ بالمعروفِ والنهىُ عنِ المُنكَرِ**»[1].

وإنما شدّد الإسلام فى النظرة لأنها بريد الشهوة ورائد الفجور، ولقد أحسن من قال:

كلُّ الحوادث مبداها النظرُ	ومعظمُ النار من مستصغر الشَّرر
والمرءُ ما دامَ ذَا عين يقلبها	في أعينِ الغيد موقوفٌ علَى الخطر
كمْ من نظرة فَعَلتْ في قَلبِ صَاحبها	فعْلِ السِّهَام بلا قوس ولا وتَرِ
يسرّ ناظرُ مَا ضرّ خاطره	لا مرحبًا بسرور جَاء بالضرر

● **ومما يجدر التنبيه عليه**: أنه لا فرق فى النظرة بين أن تكون مباشرة أو غير مباشرة، فالنظرة إلى الصورة فى الورق أو فى المجلة أو على الشاشة حرام كالنظر إلى المرأة.

أما الأذن: فحفظها يكون بترك الاستماع إلى الخنا والفجور، وبترك الاستماع إلى القينات والمعازف، وبترك الاستماع إلى كل ما حرّم اللَّه الاستماع إليه، فإن المسلم مخاطب بتغيير المنكر إذا رآه أو سمعه، فإذا استمع الإنسان للمنكر ألفه قلبه، حتى لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

وقد جعل النبى ﷺ استماع الأذنين زناً كزنا العينين، فقال ﷺ: «**كُتب**

(١) متفق عليه: خ (٦٢٢٩/٨/١١)، م (٢١٢١/١٦٧٥/٣)، د(٤٧٩٤/ ٦٧ و١٦٨/ ١٣)

على ابنِ آدمَ نصيبُه من الزنا، مُدركٌ ذلك لا محالةَ، فالعينان زنَاهُما النظرُ، والأذنان زناهُما الاستماعُ، واللسانُ زناه الكلامُ، واليدُ زناها البطشُ، والرِّجْل زناها الخُطا. والقلبُ يهوى ويتمنّى، ويصدّقُ ذلك الفرجُ ويكذّبه»(١) .

ويدخل فى حفظ الرأس حفظه عن نظر من لا يجوز له النظر إليه، فرأس المرأة عورة، و «**الأذنان من الرأس**»(٢)، كما قال النبى ﷺ، فلا يجوز لامرأة تؤمن باللَّه واليوم الآخر أن تكشف رأسها بحضرة الأجانب ينظرون إليه، فضلاً عن أن يمسّوه. كما يدخل فى حفظ الرأس حفظ الوجه من تغيير خلق اللَّه، فلا يجوز لرجل أو امرأة الاعتداء على الوجه بتغيير خلق اللَّه.

أما الرجل فقد فطره اللَّه على أن يكون ذا لحية قد تكثف وقد تخف، فلا يجوز للرجل أن يعتدى على لحيته بالإزالة، أو بالأخذ منها أخذاً يشبه الإزالة، فقد أمر النبى ﷺ بإعفاء اللحية وتوفيرها، فقال ﷺ: «**اعفُوا اللحى**»(٣). «**وفِّرُوا اللّحى**»(٤). «**أرخُوا اللّحى**»(٥). فمن حلق لحيته فقد خالف أمره ﷺ، واللَّه عز وجل يقول: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣].

أما المرأة فقد خلقها اللَّه لا لحية لها، لكنها قد ينبت فى وجهها شعر خفيف، وقد يثقل فيُرى، وفى هذه الحالة لا يجوز لها إزالة هذا الشعر، فإن

---

(١) متفق عليه: م (٢٦٥٧/ ٢٠٧٤/ ٤) ،واللفظ له ،خ (٦٣٤٣/ ٢٦/ ١١) ، د (٢١٣٨/ ١٨٨/ ٦).

(٢) صحيح : ت (٣٧/ ٢٨/ ١) ،د (١٣٤/ ٢٢٣/ ١) ،جه (٤٤٤/ ١٥٢/ ١) .

(٣) متفق عليه :خ (٥٨٩٣/ ٣٥١/ ١٠) ،م(٢٥٩/ ٢٢٢ / ١) ،ت(٢٩١٣/ ١٨٧/ ٤) ،نس (١٦/ ١).

(٤) متفق عليه:خ (٥٨٩٢/ ٣٤٩/ ١٠) ، م(٢٥٩_٥٤ / ٢٢٢/ ١) بلفظ « أفوا» .

(٥) صحيح: م (٢٦٠/ ٢٢٢/ ١) .

فعلت فهى ملعونة على لسان محمد ﷺ، فقد لعن النامصة والمتنمصة.

وأما حفظ البطن: فأول ما يدخل فيه حفظه عن الحرام وما فيه شبهة، كما سبق فى حفظ الفم، كما يدخل فيه حفظه عن أن يمتلئ بالمباح، فإن اللَّه تعالى يقول: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال النبى ﷺ: «**مَا مَلأَ ابنُ آدمَ وعَاءً شَراًّ من بطنه، فإنْ كانَ لابد فاعلاً فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشَرَابه، وثلثٌ لنفسه**»[١].

وأمّا ما حواه البطن فالمراد به الفرج، وحفظ الفروج قد أمر اللَّه به فقال: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

ومدح الحافظين فروجهم فقال: ﴿**وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وحفظ الفرج يكون بحفظه من الوطء الحرام، والنظر الحرام، واللمس الحرام، وقد قال ﷺ: «**لا ينظرُ الرجلُ إلى عَورةِ الرجلِ، ولا تَنظُرُ المرأةُ إلى عَورَةِ المرأة**»[٢] واللمس أشدّ من النظر.

ومما يحزن القلب تساهل المؤمنات فى الذهاب إلى الأطباء الرجال لأتفه الأسباب، وتمكينهم من الكشف على العورة المغلظة والنظر إليها ولمسها من غير ضرورة. فاتقين اللَّه معشر المسلمات، واحفظن فروجكن، واعلمن أن الحياء والإيمان قرناء، إذا رفع أحدهما رفع الآخر. ورحم اللَّه الداية!!

---

(١) صحيح: ت (٢٤٨٦/١٨/٤)، جه (٣٣٤٩/١١١١/٢).

(٢) صحيح: م(٣٣٨/٢٦٦/١)، (٣٩٩٩/٥٨/١١)، ت(٢٩٤٥/١٩٦و١٩٧/٤).

ويدخل فى حفظ ما حوى البطن:

حفظ الرجلين عن السعى بهما إلى الحرام، وتختص المرأة بحفظ رجليها عن نظر من لا يجوز له النظر إليهما، فرجلا المرأة عورة، ومعنى ذلك أن المرأة التى تلبس جلباباً فوق الكعبين لم تحفظ رجليها ولم تستح من ربها حق الحياء، فكيف بالتى تلبس الملابس التى دون الركبتين أو فوقهما حتى تبدو رجلاها، لا بل فخذاها! إى واللّه فخذاها، فماذا تستر هذه الجيبة الضيقة القصيرة المفتوحة من الخلف، وإنا للّه وإنا إليه راجعون. اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، ولا تهلكنا بما فعل المبطلون.

ومن حقيقة الاستحياء من الرب: ذكر الموت، لأن من ذكر أن عظامه تصير بالية، وأعضاءه متمزقة، هان عليه ما فاته من اللذات العاجلة، وأهمه ما يلزم من طلب الآجلة، وعمل على إجلال اللّه وتعظيمه.

ومن أراد الآخرة أى الفوز بنعيمها ترك زينة الدنيا، لأن الآخرة خُلقت لحظوظ الأرواح، وقرّة عين الإنسان، والدنيا خُلقت لمرافق النفوس، وهما ضرتان، إذا أرضيت إحداهما أغضبت الأخرى، فمن أراد الآخرة وتشبّث بالدنيا كان كمن أراد أن يدخل دار ملك وعلى عاتقه جيفة، والملك بينه وبين الدار، لابد أن يمرّ عليه، فكيف يكون حينئذ؟ فكذا مريد الآخرة مع تمسكه بالدنيا، فآثروا ما يبقى على ما يفنى.

* * *

الحديث الثامن عشر

عَنْ أبى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:

«مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائماً؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أنا. قال: فمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ: فمَنْ أطْعم منكُمُ الْيَوْمَ مسكينًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا. قَالَ: فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضاً؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: مَا اجْتَمَعْنَ فِى امْرِئٍ إلاَّ دَخَلَ الْجَنَّة»[1].

تضمّن الحديث أربع أعمال من أعمال البرّ والخير التى يحبّها اللَّه عز وجل، أخبر النبى ﷺ أنهنّ ما اجتمعن فى عبدٍ إلا دخل الجنة.

أوّلها: الصيام:

ومعلوم أن المراد به صيام التطوع.

إن اللَّه تعالى فرض علينا صيام رمضان، وسنّ لنا النبىّ ﷺ صيام أيام طوال العام ليظلّ المسلم متلبِّساً بهذه العبادة، موصولاً بها، لأنها من أحبّ

(١) صحيح: م (١٠٢٨/٧١٣/٢).

العبادات إلى اللَّه عز وجل، بل هى العبادة التى اختصّها اللَّه لنفسه، كما قال النبيّ ﷺ: «**قالَ اللَّهُ عَزَّ وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به**»[١].

ولذا أخبر النبيّ ﷺ أن «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. قال اللَّه تعالى: **إلا الصوم فإنهُ لِى وأنَا أَجزِى بِه، يدع شَهوتَهُ وطَعَامَهُ مِن أجْلِى**»[٢].

ومعنى ذلك أن ثواب الصيام يضاعف أكثر من سبعمائة ضعف كثرة لا يعلمها إلا اللَّه الكريم الذى عنده خزائن كل شىء ﴿**وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً**﴾ [الإسراء: ٢٠].

وقد كثرت الأحاديث عن النبيّ ﷺ فى فضل صيام التطوع، منها:

قوله ﷺ: «**مَا من عَبد يَصُومُ يَوماً فى سَبِيلِ اللَّه إلا باعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ اليومَ وَجهَهُ عَنِ النارِ سَبعِينَ خَرِيفاً**»[٣].

وقوله ﷺ: «**إن فى الجنة بَاباً يُقَالُ له الريّان، يَدخُلُ منه الصائمُونَ يومَ القيامة، لا يدخُلُ منهُ أحدٌ غيرُهم، يُقال: أين الصائمونَ؟ فيقُومُونَ لا يدخلُ منهُ أحدٌ غيرُهُم، فإذا دَخَلُوا أُغلق فلم يَدخُل منهُ أَحَد**»[٤].

وعن أبى أمامة رضى اللَّه عنه قال: «أتيتُ النبيّ ﷺ فقلت: مرنى بعمل

---

(١) متفق عليه: خ (١٩٠٤/١١٨/٤)، م (١١٥١ - ١٦٣ -/٨٠٧/٢).
(٢) صحيح: (١١٥١ - ١٦٤ - /٨٠٧/٢)
(٣) متفق عليه: خ (٢٨٤٠/٤٧/٦) ، م (١١٥٣/٨٠٨/٢) ، ت (١٦٧٣/ ٩٠/٣) ، نس (١٧٣/٤) ، جه (١٧١٧/٥٤٧/١).
(٤) متفق عليه: خ (١٨٩٦/١١١/٤)، م (١١٥٢/٨٠٨/٢).

يدخلنى الجنة. قال: «**عليك بالصوم فإنه لا عدل له**». ثم أتيته الثانية فقال: «**عليك بالصيام**»[١].

ولقد رغّب ﷺ فى صيام أيام بعينها:

منها: الاثنين والخميس:

وقال فيهما: «**تُعرضُ الأعمالُ يومَ الاثنينِ والخميسِ فأحبُّ أن يُعرض عملى وأنا صائمٌ**»[٢].

ومنها: ثلاثة أيام من كل شهر:

وقال فيها: «**صيامُ ثلاثة أيامٍ من كُلِّ شهرٍ صومُ الدهرِ**»[٣].

وأرشد أن تكون أيام البيض، فقال لأبى ذرّ رضى اللّه عنه:

«**إذا صمتَ منَ الشهرِ ثلاثاً فصُم ثلاثَ عَشرة، وأربَع عشْرة، وخمسَ عشرة**»[٤].

ومنها: صيام يوم عرفة: وسئل ﷺ عنه فقال: «**يكفرُ ذنوبَ سنتينِ: الماضِية والباقيةِ**»[٥].

ومنها: عشر ذى الحجة: فقد كان ﷺ يصومها[٦].

ومنها: يوم عاشوراء: فقد صامه ﷺ وأمر بصيامه، وسئل عنه فقال: «**يكفّر ذنوبَ السنةِ الماضِيَةِ**»[٧].

---

(١) صحيح: نس (١٦٥/ ٤).
(٢) صحيح: نس (٢٠٢/ ٤)..
(٣) حسن: نس(٢٢١/ ٤)
(٤) حسن: ت (٧٥٨/ ١٣٠/ ٢)، نس (٢٢٢/ ٤)
(٥، ٦، ٧) سبق.

ويستحبّ أن يكون معه تاسوعاء، لأنه ﷺ عزم على صيامه فتُوفى قبل أن يدركه[١].

ومنها: الإكثار من الصيام فى شعبان:

فقد كان ﷺ يفعله، حتى قالت عائشة رضى اللَّه عنها:

«كان ﷺ يصوم شعبان إلا قليلاً»[٢].

الثانى من الأعمال: اتباع الجنائز، وقد جعله النبىّ ﷺ حقًّا من حقوق المسلم على المسلم، فقال ﷺ:

«حق المسلم على المسلم خمس: ردُّ السلامِ، وعيادةُ المريضِ، واتباعُ الجنائزِ، وإجابةُ الدعوةِ، وتشميتُ العاطسِ»[٣].

وقال ﷺ: **«عودُوا المريضَ، واتبّعوا الجنائزَ تُذكركُمُ الآخرةَ»**[٤].

واتباع الجنائز على مرتبتين:

الأولى: اتباعها من عند أهلها حتى الصلاة عليها.

والثانية: اتباعها من عند أهلها حتى يفرغ من دفنها.

ومما لا شك فيه أن المرتبة الثانية أفضل من الأولى، لقوله ﷺ: **«مَن شهدَ الجنازةَ حتى يُصلّى عليها فلهُ قيراطٌ، ومَن شَهِدَها حتى تُدفَنَ فلهُ قِيراطَانِ»**. قيل: وما القيراطان؟ قال: **«مثلُ الجبلين العظيمين»**[٥].

---

(١) صحيح: م (١١٣٤/٧٩٦/٢)، د (٤٢٨/ ١١٠/٧)..

(٢) صحيح: م (١١٥٦/ ١٧٦/ ٨١١/ ٢) ،ونس (١٩٩/ ٢٠٠/ ٤).

(٣) متفق عليه: خ (١٢٤٠/ ١١٢/ ٣) ، م (٢١٦٢/ ١٧٠٤/ ٤) ، د (٥٠٠٩/ ٣٧٢/ ١٢).

(٤) صحيح: الأدب المفرد (٤٠٣/ ١٩٦) و حب (٧٠٩/ ١٨٢).

(٥) متفق عليه: خ (١٣٢٥/ ١٧٦/ ٣) ، م (٩٤٥/ ٦٥٢/ ٢) ، نس (٧٧/ ٤).

ومما لا شك فيه أن هذا الفضل العظيم في اتباع الجنائز إنما هو لمن شهدها لله لا لغيره، كما جاء في رواية أخرى: «**مَن اتبعَ جنازةَ مسلم إيماناً واحتساباً وكانَ مَعَهَا حتى يُصلَّى عليها ويُفرغُ من دَفنهَا فإنهُ يرجعُ من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أُحُد، ومَن صلّى عليها ثُم رَجَعَ قبل أن تُدفنَ فإنهُ يرجعُ بقيراطٍ**»[١].

كما أن هذا الفضل إنما هو للرجال دون النساء، لأن النساء منهياتٌ نهى تنزيه عن اتباع الجنائز، كما قالت أم عطية رضي الله عنها: «نهانا النبيّ ﷺ عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا»[٢].

ومتّبع الجنازة بالخيار في المشى أمامها وخلفها، وعن جنبيها، لكن المشى خلفها أفضل من المشى أمامها لأنه مقتضى قوله ﷺ: «**اتبعُوا الجنائزَ**»[٣]. ويؤيّده قولُ عليّ رضي الله عنه: «المشى خلفها أفضل من المشى أمامها كفضل صلاة الرجل في جماعة على صلاته فذًّا»[٤].

ومما ينبغي التنبيه عليه: أن النبيّ ﷺ نهى عن اتباع الجنائز برفع الصوت بالبكاء، واتباعها بالبخور، فقال ﷺ: «**لا تتبعْ الجنازَةَ بصوتٍ ولا نَارٍ**»[٥].

ويلحق بذلك رفع الصوت بالذكر ونحوه، كما قال الإمام النووي[٦] رحمه الله تعالى: «واعلم أن الصواب والمختار ما كان عليه السلف رضي الله عنهم من السكوت في حال السير مع الجنازة، فلا يرفع صوت بقراءة ولا

---

(١) صحيح: خ (خ (٤٧/ ١٠٨/ ١).

(٢) متفق عليه: خ (١٢٧٨/ ١٤٤/٤)، م (١٩٨٣/ ٦٤٦/ ٢)، د (٣١٥١/ ٤٤٩/ ٨)، جه (١٥٧٧/ ٥٠٢/ ١)

(٣) سبق قريبا.

(٤) حسن: انظر الجنائز (٧٤) أخرجه إبن أبي شيبة في المصنف (١٠١/٤) والطحاوي (١/ ٢٧٩) وغيرهما.

(٥) حسن: انظر الجنائز (٧٠)، د (٢/ ٦٤)، أ (٢/ ٤٢٧/ ٥٢٨، ٥٣٢)

(٦) الأذكار: ص ١٤٥.

ذكر ولا غير ذلك. والحكمة فيه ظاهرة، وهى أنه أسكن لخاطره وأجمع لفكرة فيما يتعلق بالجنازة، وهو المطلوب فى هذا الحال».

الثالث من الأعمال: إطعام مسكين:

وهومن الأعمال التى أمر اللَّه بها وحضّ عليها، وجعلها من أسباب النجاة، قال تعالى: ﴿ **فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ** ﴾ [البلد: ١١-١٦].

ومدح اللَّه تعالى المطعمين فقال: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا**﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

وذمّ أهل البخل الذين لا يطعمون المسكين، وبين أنهم أصحاب الجحيم، فقال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ**﴾ [المدثر: ٣٨-٤٤].

بل ذمّ اللَّه ترك الحضّ على طعام المسكين، فقال تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ [الماعون: ١-٣].

وقال تعالى فى حقّ صاحب الشمال: ﴿ **خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٤].

فالواجب على من عنده فضل مالٍ أن يعود به على من لا فضل عنده، والواجب على من عنده فضل طعام أن يعود به على من لا فضل عنده، فقد قال ﷺ: «**يا بنَ آدمَ إنكَ إن تبذُلَ الفضلَ خيرٌ لَكَ، وإن تُمسكْهُ شرٌّ لك، ولا تُلام على**

كفاف، وابدأ بمن تَعُولُ»[1]، فإذا استطعمت فأطعم، وإلا فإنك ملام، فقد جاء فى الحديث عن ربّ العزّة سبحانه أنه يقول للعبد يوم القيامة: «يا بنَ آدمَ استطعمتُك فلم تُطعمنى. فيقولُ: ياربِّ كيفَ أُطعمكَ وأنت ربُّ العالمينَ؟ فيقول: استطعمكَ عبدى فُلان فلم تُطعمه، أما علمتَ أنكَ لو أطعمتَهُ لوجدتَ ذلك عندى؟»[2].

وقد بيّن سبحانه أن عدم إطعام المساكين يذهب بالنعمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٠].

فإياكم عباد اللَّه والبخل، لا تحسبوه خيراً لكم بل هو شر لكم. قال تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. أنفقوا وتصدّقوا وأطعموا، فـ «إن فى الجنة غُرفاً يُرى ظاهرُها من باطنِهَا، وباطنُها من ظاهرِهَا، أعدّها اللَّهُ لمن ألانَ الكَلامَ، وأطعمَ الطعامَ، وتابعَ الصيام، وصلّى بالليلِ والناسُ نيامٌ»[3].

الرابع من الأعمال: عيادة المريض:

وهى من حق المسلم على المسلم كما سبق فى الحديث.

فعودوا المريض فإن اللَّه يلوم على تركها، ففى الحديث عن النبى ﷺ أن اللَّه يقول للعبد يوم القيامة: «يا بنَ آدمَ مَرِضتُ فلم تَعدْنى! فيقولُ: كيف أعودكَ ياربّ وأنتَ ربّ العالمينَ؟ فيقولُ: مَرِضَ عَبدى فُلانٌ فلم تَعُدْه، أما علمتَ أنك لو عدتهُ لوجدتَنى عِندَهُ؟»[4].

---

(١) صحيح: م(٢/٧١٨/١٠٣٦)، ت (٢٤٤٦/٤/٤).
(٢، ٤) صحيح: م (١٩٩٠/ ٤).
(٣) حسن: أ (٢٦/ ٢٧/ ١٩)، حب (٦٤١/ ١٦٨)

وقد جاء فى فضل العيادة أحاديث كثيرة ، منها:

قوله ﷺ: «من عادَ مريضاً لم يزل فى خرفةِ الجنة حتى يرجعَ»[١]. والخرفة: ما يخترف منها، والمعنى: أنه يمشى فى طريق مفضيةٍ إلى الجنة، كأنه يمشى فى طريق وسط الجنة يجنى من ثمارها ما شاء.

وقوله ﷺ: «من عادَ مريضاً أو زارَ أخاً له فى اللَّه ناداهُ منادٍ أن طبتَ وطابَ ممشاكَ، وتبوّأت من الجنة مَنزِلاً»[٢].

وقوله ﷺ: «ما من رجل يعودُ مريضاً ممسياً إلا خرجَ معه سبعونَ ألف ملك يستغفرُون له حتى يصبحَ، وكان له خريفٌ فى الجنة. ومن أتاهُ مُصبحاً خرج معهُ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ يستغفرونَ له حتى يُمسِي، وكانَ لهُ خَرِيفٌ فى الجنة»[٣].

وقوله ﷺ: «خمسٌ مَنْ فعلَ واحدةً منهن كان ضامناً على اللَّه (يعنى أن يدخله الجنة): من عادَ مريضاً، أو خرجَ غازياً، أو دخلَ على إمامه يُريد تعزيرَه وتوقيرَه، أو قعدَ فى بيتِهِ فَسَلِمَ الناسُ منه، وسَلِمَ من الناس»[٤].

ويستحب للعائد:

أن يدعو للمريض بالشفاء والعافية، وأن يوصيه بالصبر والاحتمال وأن يقول له الكلمات الطيبة التى تطيّب نفسه وتقوّى روحه.

كما يستحب تخفيف العيادة وتقليلها ما أمكن حتى لا يشق طول الجلوس عنده عليه، إلا إذا رغب المريض فى ذلك، أو علم الزائر أن المريض

---

(١) صحيح : م (٢٥٦٨/ ١٩٨٩/ ٤) ، ت (٩٧٤/ ٣٢١/ ٢) .
(٢) حسن لغيره : ت (٢٠٧٦/ ٢٤٦/ ٣) ، جه (١٤٤٣/ ٤٦٤/ ١) .
(٣) صحيح : د (٣٠٨٢/ ٣٦٢/ ٨) ، ت (٩٧٧/ ٢/٢٢٢) .
(٤) صحيح: رواه أحمد والطبرانى كما قال الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٣٢٥٣) .

يحب زيارته وطول الجلوس عنده.

ومن الأدعية المشروعة:

قراءة الفاتحة[١]، والإخلاص، والمعوذتين[٢].

اللهم ربّ الناس، أذهب البأس، اشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً. ثلاثاً[٣].

أُعيذك بكلمات اللَّه التامّة من كلّ شيطان وهامّة، ومن كلّ عيْن لامّة. ثلاثا[٤]. أسأل اللَّه العظيم ربّ العرش العظيم أن يشفيك. سبعاً[٥].

ومن أهمّ ما ينبغى للعائد تذكير المريض به ما يجب عليه من المحافظة على الصلاة مهما كانت حاله، وأنه يجب عليه أن يتوضأ، فإن لم يستطع تيمم، فإن لم يستطع صلى بغير وضوء ولا تيمم. كما يجب عليه أن يصلى قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب.

ولا يغره عدم طهارة ثوبه أو بدنه أو فراشه، وإن عجز عن استقبال القبلة **﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾** [البقرة:١١٥]. نسأل اللَّه لجميع مرضى المسلمين الشفاء والعافية.

وبعد:

فإن فى هذا الحديث منقبة عظيمة لأبى بكر رضى اللَّه عنه، حيث أنه الذى اجتمعت فيه هذه الخصال الأربع فى يوم واحدٍ دون غيره.

---

(١) متفق عليه: خ (٥٧٣٦/١٩٨/ ١٠)،م (٢٢٠١/ ١٧٢٧/ ٤)،د (٣٨٨٢/ ٣٩٣/ ١٠).
(٢) متفق عليه: خ (٥٧٣٥/ ١٩٥/ ١٠) ، م (٢١٩٢/ ١٧٢٣/ ٤) ، د (٣٨٨٤/ ٣٩٥/ ١٠)
(٣) متفق عليه: خ (٥٧٤٢/ ٢٠٦/ ١٠) ، م (٢١٩١/ ١٧٢٢/ ٤) .
(٤) صحيح: (٧٤١١/ ٦٢/ ١٣)
(٥) صحيح: د (٣٠٩٠/ ٣٧٠١/ ٨) ، ت (٢١٦٥/ ٢٧٧/ ٣) .

ومناقبه رضى اللَّه عنه كثيرة، فلنذكر منها نبذة، فنقول:

أبو بكر: هو عبد اللَّه بن عثمان بن عامر القرشى التيمى. كنيته أبو بكر، وكنية أبيه أبو قُحافة، ولقبه الصّديق لكثرة تصديقه للنبىّ ﷺ.

وُلد بعد الفيل بثلاث سنين. وقيل قبله بثلاث سنين. وُلد بمنى، ونشأ بمكة. وهو أول من أسلم من الرجال، وأسلم بإسلامه خلقٌ كثير، منهم: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة ابن عبيد اللَّه.

صحب النبىّ ﷺ قبل البعثة، واستمر معه طول إقامته بمكة، ورافقه فى الهجرة وكان ثانى اثنين فى الغار. وشهد مع النبى ﷺ المشاهد كلها إلى أن مات. وكانت الراية معه يوم تبوك، وحج بالناس فى حياة النبى ﷺ سنة تسع، واستخلف بعد وفاة النبىّ ﷺ، ولقبه المسلمون خليفة رسول اللَّه ﷺ.

قال ابن إسحاق: كان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش وأعلمهم بما كان منها من خير أو شرّ. وكان تاجراً ذا خلق ومعروف وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته.

عن هشام بن عروة قال: أخبرنى أبى قال: أسلم أبو بكر وله أربعون ألف درهم. قال عروة: وأخبرتنى عائشة أنه مات وما ترك ديناراً ولا درهماً، أنفقها كلّها فى سبيل اللَّه، وأعتق سبعة كلهم كان يعذب فى اللَّه.

وكان رضى اللَّه عنه أحب الرجال إلى رسول اللَّه ﷺ، وقال فيه رسول اللَّه ﷺ: «**إن من أمنّ الناسِ علىّ فى صحبتهِ ومالهِ أبا بكرٍ، ولو كنتُ متّخذاً خَليلاً غيرَ ربّى لاتخذتُ أبا بكرٍ خَليلاً، ولكنْ أخوة الإسلامِ ومودته، لا يبقينّ فى**

المسجد باب إلا سُدَّ إلا بابَ أبى بَكْرٍ»[١] .

وكانت بين أبى بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عمر مغضباً، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل،حتى أغلق بابه فى وجهه، فأقبل أبو بكر إلى النبىّ ﷺ، قال أبو الدرداء: ونحن عنده، فقال ﷺ: «**أمّا صاحبكُم فَقَد غَامَرَ**»، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلّم وجلس إلى النبىّ ﷺ فقصّ عليه الخبر، فغضب رسول اللَّه ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: واللَّه يا رسول اللَّه لأنا كنت أظلم.

فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هَل أنتُم تَارِكُونَ لى صَاحِبى؟** - مرتين -. **إنى قلتُ: يا أيها الناسُ إنى رَسُولُ اللَّه إليكُم جَمِيعًا، فقُلتُم كَذبتَ، وقالَ أبو بكرٍ صَدَقتَ**»[٢] .

ومناقبه رضى اللَّه عنه كثيرة جداًّ، وقد أفردها جماعة بالتصنيف، ومن أعظم مناقبه التى لا يشاركه فيها غيره قول اللَّه تعالى: ﴿**إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة: ٤٠].

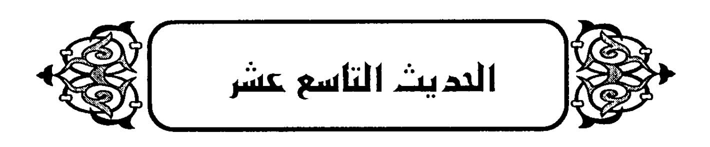
رضى اللَّه عنه وعن سائر الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين لهم بإحسان أجمعين.

* * *

---

(١) متفق عليه: خ (٣٦٥٤/ ١٢/ ٧) ، م (٢٣٨٢/ ٨٥٤/ ٤) ، ت (٣٧٤٠/ ٣٧٠/ ٥)

(٢) صحيح: خ (٣٦٦١/ ١٨/ ٧) .



الحديث التاسع عشر

عَنْ أبى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمؤمِنَ مِنْ عَمَله وحَسنَاته بَعْدَ مَوْته: علْماً علَّمَهُ ونَشَرَهُ، وولَداً صَالحاً تَركَهُ، ومُصْحَفاً ورَّثَهُ، أَوْ مسجداً بناهُ، أوْ بَيْتاً لابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْراً أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَها منْ مَاله فى صحته وحَيَاته تَلْحَقُهُ منْ بَعْد مَوْته»[1].

يقول اللّـه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]

فذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أربعة أشياء: أنه يحيى الموتى. وأنه يكتب ما قدّموا فى دار الدنيا. وأنه يكتب آثارهم. وأنه أحصى كلّ شىء فى إمام مبين أى كتاب بيّن واضح.

أمّا الأول وهو كونه يحيى الموتى بالبعث فقد جاء فى آيات كثيرة، وأقسم عليه اللَّهُ بربوبيته لمحمد ﷺ، وأمر نبيّه أن يقسم عليه:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ [مريم: ٦٦-٦٨].

---

(١) حسن: جه (٢٤٢/٨٨ ، ١/٨٩).

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ...﴾ [التغابن: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ...﴾ [سبأ: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ...﴾ [يونس: ٥٣].

وأما الثاني: وهو كونه سبحانه يكتب ما قدّموا فى دار الدنيا، فقد جاء فى آيات كثيرة: قال تعالى: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٧٩، ٨٠].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

وأما الثالث: وهو كونه سبحانه يكتب آثارهم: فالآثار تشمل الحسيّة وهى الخطى، والمعنوية وهى ما يتركونه فى الناس من أثر خيْر أو شرّ. وكلّها تكتب.

أما الدليل على كتابة الآثار الحسية فقوله تعالى فى حق الغزاة: ﴿وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١].

فهذا يستلزم أن تكتب لهم خطاهم التى قطعوا بها الوادى فى غزوهم.

ويدل عليه أيضاً قوله ﷺ لبنى سلمة وقد بلغه أنهم يريدون أن ينتقلوا قرب المسجد، فقال لهم: «**ديارכم تكتب آثاركم. دياركم تكتب آثاركم**»[١] أى الزموا دياركم البعيدة تكتب آثاركم أى خطاكم إلى المسجد، كلّ خطوة ترفع

---

(١) صحيح: م (٦٦٥/ ٤٦٢/ ١).

الماشى درجة، وتحطّ عنه خطيئة.

وأما الدليل على كتابة الآثار المعنوية فقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥].

وقوله ﷺ: «منْ سنّ في الإسْلام سنّةً حسنةً فلهُ أجرُها وأجرُ من عملَ بهَا منْ بعْده، من غير أنْ ينقصَ منْ أجورهم شىءٌ، ومنْ سنّ فى الإسْلام سنّةً سيئةً فعليْه وزرُها ووزرُ منْ بعْده، منْ غير أنْ ينقصَ منْ أوزارهمْ شىءٌ»[1].

أما الرابع: وهو كونه سبحانه أحصى كل شىء فى كتاب بيّن واضح فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وهكذا أفادت هذه الآية أن اللَّه سبحانه يحصى على العباد ما باشروه بأنفسهم من أعمال حال حياتهم، وما تركوه فى الناس من أثر خير أو شرّ بعد مماتهم، وأنه سبحانه يسجّل ذلك فى كتاب مكنون، ثم يجزى كلّ عامل بعمله يوم يلقاه.

والنبى ﷺ وهو الرءوف الرحيم بأمته يرشدهم فى هذا الحديث إلى أنواع من وجوه البرّ والخير التى يلحقهم أجرها بعد موتهم.

---

(١) صحيح: م (١٠١٧/٧٠٤، ٢/٧٠٥)، نس (٧٥، ٧٦/٥).

وأول هذه الأنواع: عِلْمٌ عَلَّمَهُ ونشره:

إن الإسلام حث على العلم ورغّب فيه، وجعل طلبه فرضاً على التعيين أو الكفاية، وهذا يقتضي أن يكون هناك علماء يعلّمون، وطلاب علم يتعلمون.

وقد أخذ اللَّه الميثاق على العلماء أن يعلّموا العلم ولا يكتموه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وتوعّد الذين يكتمون فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (١٥٩) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

ولقد أرشد اللَّه تعالى العلماء إلى ما ينبغى أن يكونوا عليه، فقال سبحانه:

﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

والربانىّ هو من تعلم العلم، وعمل به فى نفسه، وعلّمه غيره، فمن تعلّم وعمل وعلّم فذلك العالم الرّبانىّ الذى يُدعى فى ملكوت السموات عظيمًا.

ومن تعلّم العلم ولم يعمل به فى نفسه، ولم يعلّمه غيره، فذلك مثل السوء الذى قال اللَّه فيه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى

﴿الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

ولقد كان ﷺ يرغب فى نشر العلم وتعليمه، فكان يقول:

«بلِّغوا عنِّى ولوْ آيةً»(١). «نضَّر اللهُ امرأً سمعَ منّا شيئاً فبلّغه كمَا سمعهُ، فربّ مبلّغ أوعَى منْ سامعٍ»(٢). «منْ دعَا إلَى هدىً كانَ لهُ منَ الأجْر مثْل أُجور منِ اتَّبعه لاَ ينقصُ ذلكَ منْ أجورهم شيئاً»(٣).

«الدُّنيا ملعُونةٌ، ملعونٌ مَا فيها، إلاَّ ذكر الله ومَا والاَه، وعالماً أوْ متعلِّماً»(٤).

«إنَّ اللهَ وملائكتَه وأهلَ السَّموات والأرْض، حتَّى النَّملةَ فى جُحرهَا، وحتَّى الحوتَ، ليصلُّون علَى معلّمى النَّاس الخيرَ»(٥).

فيا شباب الإسلام: تعلّموا وعلّموا، فإن هذا واللّه جهاد عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢].

وقال معاذ بن جبل رضى اللّه عنه: تعلّموا العلم فإن تعلّمه للّه خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة.

---

(١) صحيح: خ (٣٤٦١/٤٩٦/٦)، ت (٢٨٠٧/١٤٧/٤).
(٢) صحيح: ت (٢٧٩٤/١٤١/٤)، جه (٢٣٢/٨٥/١).
(٣) صحيح: م (٢٦٧٤/ ٢٠٦٠/٤)، جه (٢٠٦/٧٥/١)، ت (٢٨١٤/١٤٩/٤)، د (٤٥٨٥/ ١٢/٣٦٢).
(٤) حسن: جه (٤٤١٢/١٣٧٧/٢)، ت (٢٤٢٤/٣٨٤/٣).
(٥) صحيح: ت (٢٨٢٦/١٥٤/٤).

واللَّهِ ـ يا طالب العلم ـ لأن يهدى اللَّه بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم[١] وهنيئاً لك تموت ويظلّ أجرُ ما قدّمت من التعليم، وما أخّرت من العلم، يأتيك إلى يوم القيامة.

النوع الثانى: ولد صالح تركه، وهذا الإطلاق يفيد انتفاع الوالد بولده الصالح سواء دعا له أم لا. كمن غرس شجرةً فأكل منها الناس، فإنه يحصل له بنفس الأكل ثوابٌ، سواء دعا له من أكل أم لم يدع. فالوالد ينتفع بصلاح ولده مطلقاً، وكلّ عمل صالح يعمله الولد فلأبويه من الأجر مثل أجره، من غير أن ينقص من أجره شيء، لأن الولد من سعى أبيه وكسبه، كما قال النبىّ ﷺ: «**إنَّ أطيبَ مَا أكلَ الرجلُ من كسبه، وإنَّ ولدَه منْ كسبه**»[٢]. واللَّه عز وجل يقول: ﴿**وأَن لَّيْسَ للإنسَانِ إلاَّ مَا سَعَى**﴾ [النجم: ٣٩].

وهذا يوجب على الآباء أن يجتهدوا فى تربية أبنائهم، وإصلاح أحوالهم، حتى ينتفعوا بصلاحهم، وإلا فمجرد وجود الولد بعد الوالد لا ينفعه فى آخرته، فإن لم يكن الولد صالحاً لم ينفع أباه ولم يضره، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، لكن إن صلح انتفع أبوه بصلاحه، وذلك فضل اللَّه، والأول عدله.

فاتقوا اللَّه عباداللَّه فى أنفسكم، واتقوا اللَّه فى أولادكم: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) متفق عليه: خ (٣٧٠١/ ٧٠/٧)، م (٢٤٠٦/ ١٨٧٢/ ٤).

(٢) صحيح: جه (٢١٣٧/ ٧٢٣/ ٢)وهذا لفظه، د (٣٥١١/ ٤٤٤/ ٩)، ت (١٣٦٩/ ٤٠٦/ ٢)، نس (٢٤١/ ٧).

و«**مُروا أولادَكم بالصَّلاة وهُم أبناءُ سبعِ سنِين واضْـربُوهم عليهَا وهمْ أبناءُ عـشر، وفـرِّقوا بينهمُ فى المضَـاجعِ**»(١) توجهوا إلى الـلَّه بالدعاء أن يصلحكم ويصلح لكم أولادكم، وقـــولوا ﴿**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٤].

النوع الثـالث: مصحفٌ ورّثه: فمن اشترى مصـحفاً ووضعه فى البيت ليقرأ فيـه أولاده أو وضعه فى المسجد وَوَقَفَه للَّه تعـالى، فإنه يأتيه من ثواب ذلك المصـحف بعد مـوته ويلحق بالمصـحف كـتب العلم الشـرعى، ككتب العقـيدة الصحيـحة، والتفسـير، والحديث، والفقـه، ونحو ذلك من العلوم الشرعية، إذا اشترى الرجل كتباً منها ووضـعها فى بيته ليقرأ فيها أولاده، أو وضعها فى المسجد ووقفها للَّه تعالى، فإنه لا يزال يأتيه من ثواب هذه الكتب إلى يوم القيامة.

فـاحـرصـوا ـ رحمكـم اللَّه ـ على إنشـاء مكتـبـات فى بيـوتكم وفى مساجـدكم، وساهموا فيهـا بشراء المصاحف والكتب، فإنها ممـا ينفعكم بعد موتكم.

النوع الرابع: مسجد بناه، إن اللَّه تعالى اتخذ فى الأرض بيوتاً لعبادته:

﴿**يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وقد جعل اللَّه تعالى عـمارة المساجد عنوان الإيمان، فقـال سبحانه: ﴿

---

(١) صحيح: د (٤٩١/ ١٦٢/٢).

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

ولقد كان النبيّ ﷺ يرغّب فى بناء المساجد فيقول: «**منْ بنَى مسْجداً يبتغى به وجهَ الله بنَى اللهُ لهُ مثلَه فى الجنّة**»[١].

فجودوا ـ رحمكم اللَّه ـ على بيوت اللَّه ولا تبخلوا، فما تضعونه فى بيوت اللَّه من أموالكم يأتيكم ثوابه بعد موتكم، وتجدون برّه وثوابه يوم الدين: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ**﴾ [الشعراء: ٨٨].

ويلحق بالمساجد المدارس ونحوها مما يعود نفعه على المسلمين.

النوع الخامس: بيتٌ لابن السبيل بناه، فمن بنى بيتاً ووقفه على ابن السبيل يأوى إليه وينزل فيه فى سفره فإنه يأتيه من ثواب ذلك بعد موته.

ومعنى ذلك أن الإسلام يرغب فى بناء بيوت المسافرين ـ التى تعرف بالفنادق ـ تطوّعاً، لينزل فيها المسافرون مجاناً، لأن الغالب على المسافرين الحاجة وقلة المال، ولذا كثر فى القرآن الكريم الوصية بابن السبيل.

النوع السادس: **نهر أجراه**، إن قيمة الماء فى الحياة لا تخفى على أحد، فقد جعل اللَّه من الماء كل شىء حى.

والإسلام يرغّب فى العمل على توفير الماء للمحتاجين فمن أجرى نهراً يشرب منه الناس ويستقون، فإن له الجنة، كما فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «**منْ حفرَ رومةَ فلهُ الجنّةُ**»[٢]. و لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء،

---

(١) متفق عليه: خ (٤٥٠/٥٤٤/١)، م (٥٣٣/٣٧٨/١).
(٢) صحيح: خ تعليقاً (٢٧٧٨/٤٠٦، ٤٠٧/٥).

وكان لرجل من بنى غـفار عيْن يقال لهـا رومة، وكان يبيع منهـا القرْبة بمد، فقال له النبى ﷺ: «**تَبيعنيها بعينٍ فى الجنَّة؟**» فقال: يا رسول اللَّه! ليس لى ولا لعيالـى غيرها. فبلغ ذلك عـثمان بن عفان فـاشتراها بخمـسة وثلاثين ألف درهم ثم أتى الـنبى ﷺ فقال: أتجعل لى فيهـا ما جعلته له؟ فقال: «**نعـم**». قال: قد جعلتها فى المسلمين»[١].

فـمن استطاع منكم أن يجـرى نهـراً، أو يحفـر بئراً ـ ولا سـيمـا فى الصحراء ـ ويجعلها للمسلمين فليفعل وله مثل ذلك فى الجنة.

النوع السابع: **صدقةٌ أخرجها مـن ماله فى صحته وحياته**، حالة كـونه يخشى الفقر ويأمل الغنى، فإن هذه الصدقة يأتيه من ثوابها بعد موته.

هذه سبعة أنواع من أعمال الخير التى ينتفع بها الميت.

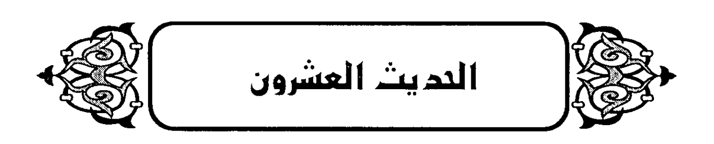
وقـد يسأل سـائل: عن الصلاة عن الميت والصـوم عنه والحج، وقراءة القرآن وإهداء ثوابها إليه.

والجواب: أنه لا يصلّى أحدٌ عن أحد، فمن مات وعليه صلاة لا يجزئه أن يصليها عنه غيره، لأن الصلاة من الفروض العينية التى لا يقوم أحدٌ مقام أحدٍ فيها، وكذلك صوم رمضـان، لا يصوم أحدٌ عن أحدٍ، فمن مات وعليه صومٌ من رمضان أُطعم عنه عن كل يوم مسكيناً، ولا يجوز أن يصوموا عنه. لكن إن مات وعليـه صوم نذر فالنذر ديْن، ولما كان أهل الميت يقـضون ديْنه فديْن اللَّه أحق بالقضاء، فمن مات وعـليه صوم نذر صام عنه وليّه. أما الحج فيجوز أن يحج الولد عن أبيه بعد أن يحج عن نفسه. أما قراءة القرآن وإهداء

(١) ذكره الحافظ فى «الفتح» (٤٠٧، ٤٠٨/٥) وعزاه للبغوى فى «الصحابة».

ثوابها للأموات فإن ذلك لا ينفعهم، لأنه ليس من سعيهم، والله تعالى يقول: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾ لكن الوالد ينتفع بقراءة ولده من غير أن يهديه ثوابها ولا يهبه له، لأنه كما سبق الولد من سعي أبيه، فكل عمل صالح يعمله الولد فلأبويه من الأجر مثل أجره، من غير أن ينقص من أجره شيء. والله تعالى أعلم.

* * *



الحديث العشرون

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قال: «ثلاث مُهْلِكَات، وَثَلاَث مُنْجِيَات، وَثَلاَث كَفَّارات، وَثَلاث دَرَجَات.

فَأَمَّا الْمهْلِكَاتُ فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمرْءِ بِنَفْسِه.

وَأَمَّا الْمنْجِيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِى الْغَضَبِ والرِّضَا، والْقَصْدُ فِى الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَخَشْيَةُ الله فِى السِّرِّ والْعَلاَنِيَةِ.

وَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ: فَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِى السَّبَرات، وَنَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجمَاعَات.

وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطَّعَام، وَإِفْشَاء السَّلاَمِ، وَالصَّلاَةُ بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيَامٌ»[١].

---

(١) حسن: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» رقم (١٨٠٢) وقال: روى عن أنس بن مالك، وعبد الله بن عباس، وأبى هريرة، وعبد الله بن أبى أوفى، وعبد الله بن عمر. ثم تكلم عليها وقال: أما حديث ابن عمر، فقال الهيثمى فى «المجمع» (١/ ٩١): رواه الطبرانى فى «الأوسط»، وفيه ابن لهيعة ومن لا يعرف». ثم قال الألبانى: وبالجملة الحديث بمجموع هذه الطرق حسن على أقل الدرجات إن شاء الله تعالى، وبه جزم المنذرى» أهـ.

هذا حديث عظيم، بيّن فيه النّبىُّ ﷺ لأمته ما يهلكها وما يُنجيها، وما يكفّر خطاياها ويرفع درجاتها، فذكر من كلٍّ ثلاثاً:

«**فأما المهلكات**» أى: الموقعات لفاعلها فى المهالك «فشح مطاع»والشّحُّ هو حرص النفس على ما ملكت وبُخلُها به.

وهو من لوازم النفس مستمد من أصل جبلتها، ولا يذمّ الإنسان عليه إلا إذا كان مطيعاً له، بحيث يمنع الحقوق التى أوجبها اللَّه فى ماله، فإن أطاعه هلك. ولذا أخبر النبىُّ ﷺ أن الشحّ ينافى الإيمان، فقال ﷺ: «**لا يجتمع الشحُّ والإيمانُ فى قلب عبد أبداً**»[١].

وقال ﷺ: «**شرُّ ما فى الرجل شُحٌّ هالعٌ، وجبنٌ خَالعٌ**»[٢].

وقال ﷺ: «**اتقوا الظلم فإن الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامة، واتقوا الشحَّ فإنه أَهْلَكَ من كان قبلكم، حَمَلَهُم على أن سَفَكُوا دماءَهُم واستحلّوا محارمَهَم**»[٣].

إن البُخلَ خُلُقٌ ذميم، ومرض خبيث، يجب على كل مسلم أن يتطهر منه، فإن البخل لا يعود على البخيل بخير فى الدنيا ولا فى الآخرة، بل البخل شؤم على صاحبه فى الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ**

---

(١) صحيح: نس (٦/١٣).

(٢) صحيح: د (٢٤٩٤/١٨٧/٧).

(٣) صحيح: م (٢٥٧٨/١٩٩٦/٤).

وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

ذلك شؤم البخل فى الآخرة، وأما شؤمه فى الدنيا فإنه يذهب بالنعمة، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ⟨١٧⟩ وَلا يَسْتَثْنُونَ ⟨١٨⟩ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ⟨١٩⟩ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧-٢٠].

والثانى من المهلكات: «هوىً متّبع»: أى يتبعه صاحبه فى كل ما يأمر به، حتى إنه ليطيعه فى معصية اللَّه، وحينئذ يكون إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ولقد حكم اللَّه تعالى على متبعى الهوى بالضلال المبين، والظلم العظيم، قال اللَّه تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

فإياكم واتباع الهوى، فإن جميع المعاصى إنما تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة اللَّه ورسوله، كما أن البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا يسمى أهلها أهل الأهواء.

قال الشعبى: إنما سُمِّى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه فى نار جهنم. وقال ابن عباس رضى اللَّه عنهما: ما ذكر اللَّه الهوى فى كتابه إلا ذمَّه. والسعيد من خالف هواه، واتبع مرضاة اللَّه قال تعالى: **﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾** [النازعات: ٤٠، ٤١].

والثالث من المهلكات: «**إعجاب المرء بنفسه**»، والعجب داء عضال، وهو نظر العبد إلى نفسه بعين العز والاستعظام، ونظره لغيره بعين الاحتقار، وقد يكون سبب العجب المال أو الولد، أو الحسب أو النسب، أو العلم أو الرأى، ونحو ذلك. وثمرة العجب أن يقول المرء (أنا خير منه) كما قالها إبليس وأتباعه، فقد قال تعالى لإبليس: **﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾** [ص: ٧٥].

وقال صاحب الجنتين لصاحبه: **﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾** [الكهف: ٣٤].

ونهاية العجب الهلاك، فقد قال تعالى لإبليس: **﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾** [ص: ٧٨].

وأما صاحب الجنتين فقد أهلك اللَّه جنتيه **﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾** [الكهف: ٤٢].

ولما أعجب قارون بماله، ونسى فضل اللَّه عليه

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. كانت عاقبته **﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾** [القصص: ٨١].

عن النبى ﷺ قال: «**بينما رجلٌ يتبخترُ فى بردينِ وقد أعجبتْه نفسُه خسفَ اللهُ به الأرضَ فهو يتجلجلُ فيها إلى يومِ القيامة**»[(١)].

وأما المنجيات فأولاها: «العدل فى الغضب والرضا»:

إن اللَّه تعالى خلق السموات والأرض بالحق، وأنزل الكتاب بالحق والميزان، وأرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان، والميزان هو العدل، سُمِّى العدلُ ميزاناً لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية، والعدل يدعو إلى الألفة والمحبة، ويبعث على الطاعة، وبه تعمر البلاد، فيكثر النسل، ويأمن السلطان لحصول الأمن العام.

والرسول ﷺ يأمر بالعدل فى الغضب والرضا، وهذا كقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: ٨].

ولقد ضرب الخلفاء الراشدون فى ذلك المثل الأعلى: فقد جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه يأخذ رزقه، وكان جنديًا من جنود المسلمين، ولكنه كان فى الجاهلية قد قتل أخاً لعمر، فلما رآه عمر اربد وجهه وقال له: يا هذا، إنى لا أحبّك حتى تحبَّ الأرضُ الدم. فقال الرجل: أَوَ مانعى ذلك عندك حقًّا من حقوق اللَّه؟ فقال عمر: لا. فقال الرجل: ما يضيرنى بغضك، إنما يأسى على الحب النساء.

فقد عرف الرجل من ورع عمر رضى اللَّه عنه ودينه أن شدّة غضبه

(١) متفق عليه: م (٢٠٨٨ - ٥٠ -/١٦٥٤/٤) وهذا لفظه، خ (٥٧٨٩/٢٥٨/ ١٠).

وغيظه وحتفه عليه وكراهيته له لا يخرج به عن العدل إلى الظلم، فلما علم بعدله ووثق بدينه أَمِنَ من بطشه.

ويدخل فى ذلك عدل الآباء مع الأبناء، فإن الحب والبغض ذو أثر عظيم فى الجور والظلم، فكثيراً ما نسمع أن فلاناً كتب ماله لولده فلان لأنه أحب أبنائه إليه، وكثيراً ما نسمع أن فلانة حرمت ابنها فلاناً لأنها تبغضه وهذا ظلم عظيم يوبقها ويهلكها، ولا ينجيها من عذاب اللَّه إلا العدل فى الغضب والرضا.

عن عامر قال: «سمعت النعمان بن بشير رضى اللَّه عنهما وهو على المنبر يقول: أعطانى أبى عطية، فقالت عمرةُ بنت رَواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول اللَّه ﷺ فأتى رسول اللَّه ﷺ فقال: إنى أعطيت ابنى من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتنى أن أشهدك يا رسول اللَّه. قال: «**أعطيتَ سائرَ ولَدكَ مِثلَ هذَا؟**» قال: لا. قال: «**فاتقُوا اللَّهَ واعْدِلُوا بينَ أولادِكُم**». قال: فرجع فردّ عطيته»[(١)].

والثانية من المنجيات: «**القصد فى الفقر والغنى**» وذلك من صفات المكرمين عباد الرحمن، كما قال تعالى فى وصفهم: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٧].

أى: ليسوا بمبذرين فى إنفاقهم فيصرفون فوق حاجتهم ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون فى حقهم، ولا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿**وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾ وهذا منهم تأدب بأدب

---

(١) متفق عليه: خ (٢٥٨٧/٢١١/٥)، م (١٦٢٣/١٢٤٢/٣).

اللَّه وتعظيم لأمره، حيث قال سبحانه: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].

إن المسلم ليس حرًّا فى إنفاق أمواله الخاصة يصرفها كيف يشاء، إنما هو مقيد بالتوسط فى الأمرين الإسراف والتقتير، فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله، فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً فى المحيط الاجتماعى والمجال الاقتصادى وحبس الأموال يحدث أزمات، ومثله إطلاقها بغير حساب، ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق، والإسلام وهو ينظم هذا الجانب من الحياة يبدأ به من نفس الفرد فيجعل الاعتدال سمة من سمات الإيمان ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[1].

وثالثة المنجيات: «خشية اللَّه فى السرّ والعلانية»:

وإنما قدّم السرّ لأن تقوى اللَّه فيه أعلى درجة من العلن، لما يخاف من شوب رؤية الناس، وهذه درجة المراقبة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]. ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

فإذا كان اللَّه رقيباً على العباد وجب على العباد أن يراقبوه، وهذه المراقبة تمنع العبد من ارتكاب المنهيات، وتحثه على فعل الواجبات،

ولا يزال العبد يجتهد فى المراقبة حتى يعبد اللَّه كأنه يراه، وهذا هو الإحسان، وهو أعلى درجات الدين، وهؤلاء لهم أجر عظيم، كما قال

(١) الظلال (٦/١٨٤).

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].
وقد أمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ أن يبشرهم بهذا الأجر فقال:
﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾
[يس: ١١].

فيا عبد اللَّه: اعلم أن اللَّه ناظر إليك، ومطلع عليك، سميع لأقوالك، عليم بنياتك وأفعالك. فـ

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قلْ عليَّ رقيب
ولا تحسبن اللَّه يغفل ساعة ولا أن ما تخفى عليه يغيب

نسأل اللَّه تعالى أن يرزقنا خشيته فى السرّ والعلانية.

أما الكفّارات: فهى الخصال التى من شأنها أن تكفّر (أى تستر) الخطيئة وتمحوها. وأولاها: «انتظار الصلاة بعد الصلاة»

وقد جاء فى فضل ذلك أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ

«ألا أدُلُّكُم على ما يمْحُو اللهُ به الخَطَايا ويَرْفَعُ به الدَّرجاتِ؟» قالوا بلى يا رسول الله !

قال: «إسْبَاغُ الوضوءِ على المكَاره، وكثْرةُ الخُطا إلى المساجِد، وانتظارُ الصلاةِ بعد الصلاةِ، فذلكم الرِّبَاطُ، فذلكم الرِّبَاطُ»(١).

وقوله ﷺ: «لا يزالُ أحدُكُم فى صلاةٍ ما دامتِ الصلاةُ تَحْبِسُه، لا يمنعهُ أن يَنقَلبَ إلى أهْلِه إلا الصلاةُ»(٢).

---

(١) صحيح: م (٢٥١/٢١٩/١)، ت (٥١/٣٦/١)، نس (٨٩ و ٩٠/١).
(٢) متفق عليه: خ (٦٥٩/١٤٢/١)، م (٦٤٩ - ٢٧٥ -/ ٤٦٠/١).

وعن أنس رضى اللَّه عنه: أن رسول اللَّه ﷺ أخّر ليلة صلاة العشاء إلى شطر الليل، ثم أقبل علينا بوجهه بـعد ما صلى فقال: «**صلَّى الناسُ ورَقَـدُوا ولَم تَزَالُوا فِى صَلاة مُنذُ انتظرتُمُوهَا**»[(١)].

وثانية الكفارات: «**إسباغ الوضوء على السبرات**»

والمراد شدة البرد، فإسباغ الوضوء فى شدة البرد من كفارات الخطايا.

والثالثة: «**نقل الأقدام إلى الجماعات**».

وقد ورد فى فضل المشى إلى المساجد أحاديث كثيرة، منها:

«**مَنْ غَدَا إلى المسجدِ أوْ راح أعدّ اللهُ له فى الجنّة نُزُلاً كلّما غدا أو رَاح**»[(٢)].

«**مَنْ تَطَهَّر فى بيتـه ثم مضى إلى بيتٍ من بيوت الله ليقضى فـريضةً من فرائضَ الله كانت خُطُواتُه إحداها تَحطُّ خطيئةً، والأخرى تَرفعُ درجة**»[(٣)].

«**إن أعظمَ الناسِ أجْرًا فى الصلاة أبعدُهُم إليها مَمشىً فأبعدهم**»[(٤)].

وعن أبىّ بن كعب رضى اللَّه عنه قال: كان رجلٌ لا أعلم رجـلاً أبعد من المسجـد منه، وكان لا تخطئه صلاة، فـقيل له أو فقيل له: لو اشـتريت حماراً تركبه فى الظلماء وفى الرمضاء؟ فقال: ما يسرّنى أن منزلى إلى جنب المسجد، إنى أريد أن يُكتب لى ممشاى إلى المسـجد ورجوعى إذا رجعت إلى أهلى، فقال رسول الله ﷺ: «**قد جمعَ اللهُ لك ذلك كلّه**»[(٥)].

---

(١) متفق عليه: رواه خ (٦٦١/١٤٨/٢)، م (٦٤٠/٤٤٣/١)، نس (٢٦٨/١).
(٢) متفق عليه: خ (٦٦٢/١٤٨/٢)، م (٦٦٩/ ٤٦١/١).
(٣) صحيح: م (٦٦٦/ ٤٦٢/١).
(٤) صحيح: رواه: م (٦٦٣/ ٤٦٠/١) وهذا لفظه، د (٥٥٣/ ٢٦٢/٢) بمعناه.
(٥) صحيح: م (٦٦٣/ ٤٦٠ و٤٦١/١)، د (٥٥٣/٢٦٢/٢).

وعن جابر رضى اللَّه عنه قال: أراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ فقال لهم:

«إنه قد بَلَغَنى أنكم تُرِيدون أن تنتقلوا قربَ المسجدِ؟».

فقالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك.

فقال: **«بنى سلمة، ديارَكم تُكتبْ آثارُكم. ديارَكم تُكتبْ آثارُكم»**[(١)].

وأما الدرجات فهى:

«إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام».

وقد سبق الكلام عنها فى الحديث.

* * *

---

(١) صحيح: م (٦٦٥/٤٦٢/١).



عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ: فَقَرَأَهَا ﷺ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. فَقُلْتُ: خَابُوا وَخَسِرُوا. مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»[1].

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]

ما ترك ﷺ خيراً يقرّبكم من اللَّه والجنّة إلا أرشدكم إليه، وما ترك شرًّا يقرّبكم من سخط اللَّه والنار إلا حذركم منه.

وقد اشتمل هذا الحديث على ثلاثة أمور مما يقرِّب من سخط اللَّه والنار، حذر منها النبي ﷺ أمته ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وقوله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يكلمُهم اللهُ يومَ القيامة ولا ينظرُ إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم**» هو على لفظ الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ

---

(١) صحيح: م (١/١٠٢/١٠٦)، د (١٤٤/٤٠٦٩ و١٤٥/١١)، ت (١٢٢٩/٣٤٢/٢)، نس (٧/٢٤٥).

ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

ومعنى: «لا يكلمهم اللَّه» أى: لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا يكلمهم كلاماً ينفعهم ويسرّهم. وإلا فعموم الكلام ثابت بقوله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه ربّه ليس بينه وبينه ترجمان»(١).

ومعنى «ولا ينظر إليهم» أى: لا ينظر إليهم نظر رحمة.

ومعنى «لا يزكيهم» أى: ولا يطهرهم من دنس الذنوب، بل يأمر بهم إلى النار.

«ولهم عذاب أليم» وهو الذى يخلص إلى قلوبهم وَجَعُهُ، كما قال تعالى: **﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾** [الهمزة: ٤-٧].

وفى هذا الوعيد دليل على أن هؤلاء الثلاثة من أهل الكبائر، وأن هذه الأفعال المذكورة من الكبائر، لأن الكبيرة كما عرّفها ابن عباس رضى اللَّه عنهما: ما ترتّب عليه حدٌ فى الدنيا أو عقوبةٌ فى الآخرة.

وأوّل هؤلاء الثلاثة: «المسبل»: وهو المرْخى إزاره أسفل من كعبيْه.

إن اللَّه تعالى يقول: **﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾** [الأعراف: ٢٦].

ففى هذه الآية بيّن سبحانه ما منّ به على عباده حيث أنزل عليهم ثلاثة

(١) متفق عليه: (١٣/٤٧٤/٧٥١٢)، م (١٠١٦ - ٦٣ -/٧٠٣/٢)، ت (٢٥٢٩/٣٥/٤)، جه(١/٦٦/١٨٥).

أنواع من الألبسة، نوعين حسّيين ونوع معنوى.

فأمّا الحسّيان فهمـا لباسٌ ضرورى يُوارى الإنسان به سـوأته، ويستر به بدنه. ولباسٌ للجمال والزينة وهو الزائد عن الضرورى.

وأمـا المعنوى فهـو لباس التـقوى، تـقوى اللَّه عـزّ وجل بامتـثال أمـره واجتناب نهـيه. وهذا اللباس خيـرٌ من النوعين الحسّيـين، لأنه يوارى سوءة الإنسان فى الدنيا والآخرة.

واللباس الحسّى هو الزينة التى أخرج اللَّه لعباده وأحلّها لهم، وأنكر على من يحرّمهـا بدون برهان، قال اللَّه تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفى إضافة الزينة إلى اللَّه ووصـفها بأنه الذى أخرجهـا لهم أكبر برهان على أنه ليس من حـقّنا أن نـتحكـم بهذه الـزينة فى تحليل أو تحـريم، وإنما حكمها إلى اللَّه وحده؛ لأنه الذى أخرجها لعباده وحده.

وليس من حقّنا كذلك أن نستعملها كـما نشاء وإنما نستعملها على الوجه الذى حُدد لنا بدون تعدّ ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا**﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ولقد حدّد اللَّه لنا استعمال هذا اللباس نوعاً وكيفاً، حـلاً وحُرْمةً، لئلا نتجاوز بها إلى حدّ لا يليق بنا.

ومما حرم علـى المسلم لباسـه: ما نزل عن الكعـبين من قمـيص وبنطال وسروال ونحو ذلك. ولقد كثرت الأحاديث فى النهى عنه:

«**من جرّ ثوبَه خُيلاء لم ينظرِ اللهُ إليه يومَ القيامةِ**»[١].

---

(١) متـفق عليه: خ (٥٧٨٤/ ٢٥٤/ ١٠)، م (٢٠٨٥/ ١٦٥١، ١٦٥٢/ ٣)، ت (١٧٨٤/ ١٣٧/ ٣)، نس (٢٠٦/ ٨) د (٤٠٦٧/ ١٤١/ ١١)، جه (٣٥٦٩/ ١١٨١/ ٢).

«ما أسفل من الكعبينِ من الإزارِ ففى النار»[١].

قال الخطابى: يريد ﷺ أن الموضع الذى يناله الإزار من أسفل الكعبين فى النار. فكنى بالثوب عن لابسه ومعناه أن ما دون الكعبين من القدم يعذب عقوبة.

وقد لاحظ بعض الناس الفرق بين الحديثين من حيث الإطلاق والتقييد فقالوا: يحمل المطلق على المقيّد، ويثبت أنه لا يحرم الإسبال إلا إذا كان خيلاء.

وقد ردّ أهلُ العلم هذا القولَ وقالوا: هذا ليس بصحيح، فإن الوعيد فيهما مختلف وسببه مختلف. الوعيد فيمن جرّ ثوبه خيلاء أن اللَّه لا ينظر إليه. والوعيد فيمن نزل ثوبه عن كعبيه أن ما نزل فى النار. فالعقوبة جزئية، والعقوبة الأولى أن اللَّه لا ينظر إليه، وهى أعظم من تعذيب جزء من بدنه بالنار.

وأما السبب فمختلف أيضاً، فأحدهما أنزله إلى أسفل من الكعبين، والثانى جرّه خيلاء، وهذا أعظم، ولذلك كانت عقوبته أعظم.

وقد قال علماء الأصول: أنه إذا اختلف السبب والحكم فى الدليلين لم يحمل أحدهما على الآخر، فلا يحلّ للرجل أن ينزل شيئاً من ثيابه تحت الكعبين، فإن فعل فعقوبته أن يعذب موضع النازل بالنار، ولا يحل له أن يجرّ شيئاً من ذلك خيلاء، فإن فعل فعقوبته أن لا ينظر اللَّه إليه.

---

(١) صحيح: خ (٥٨٨٧/٢٥٦/ ١٠)، نس (٢٠٧/٨).

وقال الحافظ ابن حجر فى «الفتح»[١] ما معناه: وقد يتجه المنع من الإسبال من جهة الإسراف، حيث إن ما أسفل من الكعبين قدرٌ زائدٌ على لابسه، والإسراف حرام. قال ابن العربى: لا يجوز للرجل أن يجاوز بثوبه كعبه ويقول: لا أجرّه خيلاء، فإنها دعوى غير مسلمة.

قال الحافظ: وحاصله أن الإسبال يستلزم جرَّ الثوب، وجرُّ الثوب يستلزم الخيلاء ولو لم يقصد اللابس الخيلاء، ويؤيده حديث ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: «**وإيّاك وجرَّ الإزار فإن جرّ الإزارِ من المَخْيَلة**»[٢].

وقد يستدل على الحرمة من التشبه بالنساء، حيث أن الذيل الطويل من خصائص النساء، فإذا أطال الرجل ذيله فقد تشبّه بالنساء. ولبس لباسهن، وقد «**لعن النبىُّ ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء**»[٣] و «**لعن الرجلَ يلبس لبسة المرأة**»[٤].

فإياك يا عبد اللّه وإسبال الإزار فإنه من المخيلة، ومن جرّ ثوبه خيلاء لا ينظر اللّه إليه.

واعلم أن المستحب من الثياب ما كان إلى نصف الساق، وما تحته إلى الكعبين جائز بلا كراهة، وما نزل عن الكعبين فمحرم، كما قال ﷺ: «**أزرة المسلم إلى نصف الساق، ولا حرج فيما بينه وبين الكعبين، فما كان أسفل الكعبين فهو فى النار**»[٥].

---

(١) فتح البارى (٢٦٣ و٢٦٤/ ١٠).
(٢) صحيح: د (٤٠٦٦/ ١٣٧ - ١١/١٤٠).
(٣) صحيح: خ (٥٨٨٥/ ٣٣٢/ ١٠)، ت (٢٩٣٥/ ١٩٤/ ٤).
(٤) صحيح: د (٤٠٨٠/ ١٥٦ و١١/١٥٧).
(٥) صحيح: د (٤٠٧٥/ ١٥٢ و١١/١٥٣)، جه (٣٥٧٣/ ١١٨٣/ ٢).

والثانى من أهل الوعيد: المنّان.

وهو الذى لا يعطى شيئاً إلا منّ به على مَنْ أعطاه، وقد يمنّ الإنسان على الله وقد يمنّ على أخيه الإنسان، وكلاهما مذموم، والأول أشدّهما ذمًّا. ومنه قول اللَّه تعالى فى جماعة من الأعراب: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الحجرات: ١٧].

ولقد نهى اللَّه تعالى نبيّه ﷺ عن المنّ منذ أن كلّفه بالدعوة، لتكون أعماله كلّها من أوّل ساعة للَّه عزّ وجل، قال تعالى: ﴿**وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِر**﴾ [المدثر: ٦].

وفى هذا النهى وجوه من التفسير:

الأول: أن اللَّه تعالى أمره ﷺ قبل هذا النهى بأربعة أشياء: إنذار القوم، وتكبير الرّب، وتطهير الثياب، وهجر الرجز، ثم قال: ﴿**وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِر**﴾ أى: لاتمنن على ربك بهذه الأعمال الشاقة كالمستكثر لما تفعله، بل اصبر على ذلك كلّه لوجه اللَّه، متقرّباً بذلك إليه، غير ممتنٍ به عليه.

قال الحسن: لا تمنن على ربّك بحسناتك فتستكثرها.

فالربّ سبحانه يوجّه نبيّه ﷺ فى أول مقام الدعوة إلى إنكار ذاته، وعدم المنّ بما يقدّمه من الجهد أو استكثاره أو استعظامه، إنه سيقدّم الكثير، وسيبذل الكثير، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء، ولكن ربّه يريد منه ألا يظلّ يستعظم ما يقدّمه ويستكثره ويمنّ به؛ لأن هذه الدعوة لا تستقيم فى نفسٍ تحسّ بما تبذل فيها، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس

إلا حين تنساه، بل حين لا تستشعره من الأصل، لأنها مستغرقة فى الشعور باللَّه، شاعرة بأن كلّ ما يقدمه هو من فضل اللَّه ومن عطاياه، فهو فضلٌ يمنحها إياه، وعطاء يختارها له، ويوفّقها لنيله، وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر للَّه لا المنّ والاستكثار[1].

الثانى: لا تمنن على الناس بما تعلّمهم من أمر الدين والوحى كالمستكثر لذلك الإنعام فإنك إنما فعلت ذلك بأمر اللَّه فلا منّة لك عليهم.

الثالث: أن معنى قوله (لا تمنن) لا تعط، يقال: مَنْتُ فلاناً كذا، أى أعطيته. قال تعالى لسليمان عليه السلام: ﴿**هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [ص: ٣٩].

أى: فأعط أو أمسك.

وأصله أن من أعطى فقد مَنّ، فسميت العطية بالمنّ على سبيل الاستعارة.

فالمعنى: ولا تعط مالك لأجل أن تأخذ أكثر منه، بل الواجب أن يكون عطاؤُك للَّه، خالياً عن انتظار العوض والتفات الناس إليه.

وهذا كما قال تعالى فى حقّ الأبرار: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً**﴾ [الإنسان: ٩].

وكما قال فى حقّ الصدّيق رضى اللَّه عنه: ﴿**الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ**﴾ [الليل: ١٨-٢١].

(١) الظلال (٨/٣٦٠).

فعليك يا عبد الله بإخلاص النية للَّه، فإذا أعطيت عطيّة فلا تنتظر من الناس جزاء ولا شكورًا، ولا تذكر ما أعطيت فتمنّ به، فإن اللَّه تعالى أخبرنا أن المنّ يبطل ثواب العطاء، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ**﴾ [البقرة: ٢٦٤].

أما الثالث من أهل الوعيد فهو: «المنفق سلعته بالحلف الكاذب»:

إن اللَّه تعالى قال: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ [التغابن: ١٥].

وقال النبي ﷺ: «**لكل أمّة فتنة، وفتنة أمتى المال**»[١].

ولقد رأينا منَ الناس مَنْ أصبح المال أكبر همّه، وشغل قلبه، إن قام فهو يفكر فيه، وإن قعد فهو يفكر فيه، وإن نام كانت أحلامه فيه، فالمال ملء قلبه، وبصر عينه، وسمع أذنه، وشغل فكره يقظة ومناماً، حتى عباداته لم تسلم، فهو يفكر في ماله في صلاته وفي قراءته وذكره، كأنما خُلق للمال وحده، ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ**﴾ [المجادلة: ١٩].

وجرّأهم على المعاملة المحرّمة، فارتكبوا محارم اللَّه وهم يعلمون، وتجرءوا على الإثم كأنهم لا يعقلون، ومنّاهم الكسبَ وكثرةَ المال فبئس ما يصنعون، لقد جرّأهم الشيطان على الأيمان الكاذبة والحلف باللَّه كذباً وهم يعلمون، فراجت سلعهم، وكثرت أموالهم، وهم عن الآخرة هم غافلون.

لقد قال ﷺ: «**إيّاك وكثرة الحلف في البيع، فإنه ينفّق ثم يمحق**»[٢].

وقال ﷺ: «**الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب**»[٣].

---

(١) صحيح: ت (٣/٣٨٩/٤٣٩).
(٢) صحيح: م (٣/١٢٢٨/١٦٠٧)، نس (٧/٢٤٦).
(٣) متفق عليه: خ (٤/٣١٥/٢٠٨٧)، م (٣/١٢٢٨/١٦٠٧)، د (٩/١٨٤/٣٣١٩)، نس (٨/٢٤٦) وهذا لفظه، وعند غيره «للبركة» بدلاً من «الكسب».

وقال ﷺ: «**البيّعان بالخيار ما لم يتفرّقا، فإن صَدَقا وبيّنا بُورك لهما فى بيعهما، وإن كذَبَا وكتَمَا مُحقَتْ بركةُ بيعهما**»[١].

ولقد خرج ﷺ إلى المصلّى فرأى الناس يتبايعون، فقال: «**يا معشرَ التجار!**» فاستجابوا ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: «**إنّ التجارَ يُبعثون يوم القيامة فُجّارًا إلا من اتقى اللَّه وبرّ وصدق**»[٢] ومعناه: إلا من اتقى اللَّه بأن لم يرتكب كبيرة ولا صغيرة من غشٍّ وخيانة، وبرّ: أى أحسن إلى الناس فى تجارته، وقام بمواساة الفقراء فتجاوز لهم، وصدق: أى فى يمينه وسائر كلامه.

ولما كان الغرض من التجارة هو جمع المال كان الشأن أن يغفل التجار عن مرضاة اللَّه وعن حسابه، فندر منهم البرّ الصادق، وكان الغالب عليهم التهالك على ترويج السلع بما ينفقها لهم من الأيمان الكاذبة ونحو ذلك: حكم عليهم بالفجور واستثنى منهم البار وهو من اتقى وبرّ وصدق فى نيته وقوله وعمله.

فيا معشر التجار ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة:١١٩].

و «**عليكم بالصِّدْق فإن الصدق يهدى إلى البرّ، وإنَّ البرَّ يهدى إلى الجنَّة وما يزال الرجلُ يصدق ويتحرّى الصدقَ حتى يكتب عند الله صدِّيقًا. وإياكم والكذب فإن الكذبَ يهدى إلى الفجور وإنَّ الفجورَ يهدى إلى النَّار وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرّى الكذبَ حتى يكتبَ عند الله كذَّابا**»[٣].

---

(١) متفق عليه: خ (٢٠٧٩/٣٠٩/٤)، م(١٥٣٢/١١٦٤/٣)، د (٣٤٤٢/ ٣٣٠/٩)، ت (٢٦٤/٣٥٩/٢)، نس (٢٤٤/٧).

(٢) صحيح: جه (٢١٤٦/٧٢٦/٢).

(٣) متفق عليه: خ (٦٠٩٤/٥٠٧/ ١٠)، م (٢٦٠٧/٢٠١٢/٤)، د (٤٩٦٨/٣٣٣/١٣)، ت (٢٠٣٨/ ٢٣٤/٣)



الحديث الثانى والعشرون

عنْ عَبْد الله بن حَنْظَلَةَ غَسيل الْملائكَة رَضى اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «دِرْهَمُ رِباً يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعلمُ أَشَدُّ عنْدَ الله تعَالَى من ستٍّ وَثَلاثِينَ زَنْيَةً»[1].

إن الصدقة هى الوجه المشرق الصالح للمعاملة التى يتعامل بها الناس، ويقابلها الوجهُ الكالح الطالح وهو الربا، وشتّان بين الوجهين:

فالصدقة عطاء وسماحة، وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل.

والربا شحٌّ وقذارة ودنس، وأثرة وفردية.

والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا ردّ.

والربا استرداد للدْين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه، من جهده إن كان قد عمل بالمال الذى استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكدّه، ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستربحه شيئاً.

---

(١) صحيح: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» (١٠٣٣) وقال: رواه الطبرانى فى «الأوسط» (١/ ١٤٢-١٤٣)، والدارقطنى (٢٩٥) عن ليث بن أبى سُلَيم عن ابن أبى مليكة عن عبد الله ابن حنظلة الراهب مرفوعاً، ومن هذا الوجه رواه ابن عساكر (٩/ ٧٤/ ٢).

ولهذا تحـدث القرآن عن الصـدقة ثم أتبعـها بالحديث عـن الربا، الوجه الآخر الكالح الطالح، وكـشف عما فى عملية الربا مـن قبح وشناعة، ومن جفافٍ فى القلب وشرٍّ فى المجتمع، وفسادٍ فى الأرض وهلاكٍ للعباد.

ولم يبلغ من تفظيع أمرٍ أراد الإسلامُ إبطالَه من أمـور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا، ولا بلغ من التهديد فى اللفظ والمعنى ما بلغ من التهديد فى أمر الربا.

ولما كان الربا قد شاع فى عصرنا هذا شيـوعاً كثيراً جعل السلامة منه من الصعوبة بمكان، كـان لابد من الحديث عن الربا وبيان خطره وخطر عـقوبته لعلّ المرابين يتقون أو يحدث لهم ذكراً. فنقول وبالله التوفيق:

الربا فى اللغة: الزيادة.

قال تعـالى: ﴿ **وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ [الحج: ٥].

وهو فى الشـرع: الزيادة فى الديْن على رأس المال قلّت أو كَـثُرت. وهو حرام بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

قـــال تعـــالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً**﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وليس القيد هنا لإفادة الشرطية، ولكنـه لبيان الواقع فلا يعتد به، بدليل قوله تعالى: ﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وقال النبى ﷺ: «**اجتنبوا السبعَ الموبِقَات ...**» وعدّ منها الربا[١].

(١) متفق عليه: خ (٢٧٦٦/٣٩٣/٥)، م (٨٩/٩٢/١)، د (٢٨٥٧/٧٧/٨)، نس (٢٥٧/٦).

وقال ﷺ: «الربا بضعٌ وسبعون باباً، أهونُها مثلُ إتيانِ الرجل أمّهُ»[١].

وقال ﷺ: «ما أحد أكثر من الرّبا إلا كان عاقبةُ أمره إلى قلة»[٢].

وفى حديث الرؤيا الطويل عند البخارى «أن النبى ﷺ أتى على نهرٍ أَحْـمَرَ مثل الدم، وإذا فى النهر رجلٌ سابحٌ، وإذا على شطِّ النَّهرِ رجلٌ قد جمع عنده حجارةً كثيرةً، وإذا ذلك السابحُ يسبحُ ما يسبحُ ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارةَ فيفْغَرُ له فاه فيلقمه حجراً، فـينْطَلق يسبحُ ثم يرجع إليه، كلّما رَجَعَ فغر له فاه فألقَمَه حجراً. فقال ﷺ: ما هذا؟ فقيل له: إنه آكل الربا»[٣].

ولقد شنّ القرآن الكريم حملةً شديدة عنيـفة على المرابين نسوقها بلفظها ثم نأتى عليها بالبيان.

قـال تعـالى: ﴿الَّذينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ

(١) صحيح: كم (٣٧/ ٢).
(٢) صحيح: جه (٢٢٧٩/ ٧٦٥/ ٢).
(٣) صحيح: خ (٧٠٤٧/ ٤٣٨ و٤٣٩/ ١٢).

(٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥ـ٢٨١].

إنها الحملة المفزعة، والتصوير المرعب ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ وما كان أى تهديد معنوى ليبلغ إلى الحسّ مبلغ هذه الصورة المجسمة الحيّة المتحركة، صورة الممسوس المصروع، وهى صورة معروفة معهودة للناس. والنص يستحضرها لتؤدى دورها الإيحائى فى إفزاع الحسّ لاستجاشة مشاعر المرابين، وهزّها هزّةً عنيفة تخرجهم من مألوف عادتهم ومن حرصهم على ما يحققه لهم من الفائدة.

والذين يأكلون الربا ليسوا هم الذين يأخذون الفائدة الربوية وحدهم، إنما هم كلّ المتعاونين على إجراء العملية الربوية:

عن جابر بن عبد اللَّه قال: **«لعن رسولُ الله ﷺ آكلَ الرّبا، ومُوكلَه، وشاهديه وكاتبه، وقال: هم سواء»**[1].

والقرآن يصفهم بأنهم ﴿لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾.

إنهم لا يقومون فى الحياة ولا يتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب القلق المتخبط الذى لا ينال استقراراً ولا طمأنينة ولا راحة، وهذا أمرٌ أصبح مشاهداً فى هذا العصر، فالناس مع الحضارة والرقىّ والتقدم والرخاء قلقون خائفون مضطربون، قد فشت فيهم الأمراض العصبية والنفسية، والسبب هو

---

(١) صحيح: م (١٥٩٨/١٢١٩/٣).

خواء الأرواح من زاد الإيمان، الذى هو سبب الطمأنينة والسكينة والهدوء والراحة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وحين يشقى العالم وهو فى رخاء مادّى لابد أنْ يعلم أنّ السبب هو فقد الغذاء الروحى، الذى سببه الإعراض عن ذكر اللّه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طـه: ١٢٤] ولكن القوم لا يستحضرون هذا السرّ، ولا يهتدون إليه سبيلاً، لأن ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولقد اعترض المرابون فى عهد رسول اللّه ﷺ على تحريم الربا وتحليل البيع ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] وكانت الشبهة التى ركنوا إليها هى أن البيع يحقق فائدة وربحاً، كما أن الربا يحقق فائدة وربحاً، وهى شبهةأوهى من بيت العنكبوت

فالعمليات التجارية قابلة للربح والخسارة، أما العمليات الربوية فهى محدودة الربح فى كل حالة، هذا هو مناط التحريم والتحليل: إن كل عملية يضمن فيها الربح على أيّة وضع هى عملية ربوية محرمة، بسبب ضمان الربح وتحديده، ولا مجال للمماحلة فى هذا ولا للمداراة، ولذا ﴿أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ولما كان اللّه تعالى لا يُؤاخذُ إلا بعد إقامة الحجة قال: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] فمن سمع موعظةً من ربّه فلا يُكلّف بردّ ما أخذ من الناس قبل ذلك، وحسبه أن لا يزيد عليهم بعد الموعظة، لكن انظر إلى خطر الأمر وهو قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ ليظلّ

متوجّساً من الأمر خائفاً منه يقول: كفانى ما مضى، ولعل اللَّه أن يغفر لى إذا تبت وأنبت ولم أقع فيه بعد ذلك.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد بيان اللَّه وتذكيره وتوعّده لأكلة الربا ﴿فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وفى هذا التصريح بأن أكلة الربا فى النار خالدون إلا من مات منهم على التوحيد، فإن خلوده ليس كخلود الكافرين، وإنما ينفعه التوحيد يوماً ما، كما عُلم من النصوص الأخرى.

ولما علم اللَّه أن من عباده من لا يقيم وزناً ليوم الحساب، ويسقطه من حسابه، فقد أنذرهم بالمحق فى الدنيا ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٦]

والمحق: هو محو الشيء والذهاب به، وقد اشتهر هذا حتى عرفه العامّة، فكم من آكل ربا ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيا﴾ [المائدة: ٣٣].

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧].

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

واللَّه سبحانه يعقّب على هذا الوعيد فيقول: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦] والكفّار هو الذى كفر نعمة اللَّه وجحد منّة ربّه. والأثيم من أثم بإصراره على المعصية. وفى هذا النص إشارة إلى أن اللَّه يحب الشاكرين ويحب التّوابين.

ثم أدخل هذه الآية وهى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا

الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٧] أدخلها بين آيات الربا ليبين أن أكبر الأسباب التى تعين على ترك الربا الإيمان، وأن آكل الربا لا يأكل الربا وهو مؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: صدّقوا تصديق إذعان بما جاء من عند اللَّه فى هذه المسألة وغيرها ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التى تصلح بها نفوسهم وشأن من يعيش معهم، ومنها مواساة المحتاجين، والرحمة بالبائسين وإنظار المعسرين، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾ التى تذكّر المؤمن باللَّه فتزيد فى إيمانه وحبّه لربّه، ومراقبته له، حتى تسهل عليه طاعته فى كلّ شىء ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ التى تزكى النفس من رذيلة البخل والحرص، وتمرّنها على أعمال البر حتى تسهل عليها ويكون ترك أكل أموال الناس بالربا أسهل.

وإنما ذكر الصلاة والزكاة لأنهما أعظم العبادة النفسية والمالية، فمن أتى بهما كاملتين سَهَلَ عليه كلّ عمل صالح.

واللَّه يَعدُهُم بأن ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يحفظه لهم ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فهو وعد بالأمن فلا يخافون، وبالسعادة فلا يحزنون، فى الوقت الذى يتوعد فيه أكلة الربا بالمحق والسحق، وبالتخبط والضلال، وبالقلق والخوف.

وفى ظلّ هذا الرخاء الآمن الذى يعد اللَّه به الجماعة المسلمة التى تنبذ الربا من حياتها فتنبذ الكفر والإثم، وتقيم هذه الحياة على الإيمان والعمل الصالح والصلاة والزكاة، فى ظلّ هذا الرخاء الآمن يهتف بالذين آمنوا بالهتاف الأخير ليحولوا حياتهم عن النظام الربوى الدنس المقيت، وإلا فهى الحرب المعلنة من اللَّه ورسوله بلا هوادة ولا إمهال ولا تأخير:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] فوصفهم بالإيمان، وذكّرهم بالتقوى، ثم انتقل إلى الأمر بترك ما بقى من الربا لمن كانوا يرابون.

ثم وصل ذلك بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن كان إيمانكم تامًا شاملاً لجميع ما جاء به محمد ﷺ من الأحكام فذروا بقايا الربا.

ويؤخذ من هذا أن من لم يترك ما بقى من الربا بعد نهى اللَّه تعالى عنه وتوعده عليه فلا يُعدّ من أهل هذا الإيمان التام الشامل.

وهكذا يأخذهم بالترغيب أولاً، ثم ثنىّ بالترهيب الذى يقصم الظهور، ويزلزل القلوب:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

أى: إن لم تتركوا ما بقى لكم من الربا كما أمرتم فاعلموا واستيقنوا بأنكم على حرب من اللَّه ورسوله.

ويا للهول: حرب من اللَّه ورسوله!! إن الخصم ليعرف أن عدوّه يعدّ العدّة لشنّ الغارة عليه فلا يهدأ ولا ينام، مع احتمال أن يدفع عن نفسه، وأن يكون هو المنتصر. فكيف إذا أُعْلِمَ بالحرب من اللَّه ورسوله؟! وهى حرب رهيبة معروفة المصير، مقررة العاقبة، لا هوادة فيها، وأين الإنسان الضعيف الفانى من تلك القدرة الجبّارة الساحقة الماحقة؟!

وهذه الحرب المعلنة أعمّ من القتال بالسيف والمدفع. إنها حرب على الأعصاب والقلوب، وحرب على البركة والرخاء، وحرب على السعادة والطمأنينة، حرب يسلط اللَّه فيها بعض العصاة على بعض، حرب المطاردة والمشاكسة، حرب الغبن والظلم، حرب القلق والخوف، وأخيراً حرب

السلاح بين الأمم والجيوش، والدول، إنها الحرب المشبوبة دائماً، وقد أعلنها اللَّه على المرابين، وهى مسعرة الآن تأكل الأخضر واليابس، والبشرية غافلة عما يُفعل بها.

ثم عرّض بالتوبة فقال: ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ يعنى من المعاملات الربوية ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩] الناس بأخذ الربا ﴿وَلا تُظْلَمُونَ﴾ ببخسكم رءوس أموالكم. فكل من تاب من الربا: فإن كانت معاملات سالفة فله ما سلف لا يكلّف ردّه ولا إضاعته، وأمره إلى اللَّه ينظر فيه.

وإن كانت معاملات موجودة وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة فقد تجرأ على الربا.

ثم يرشد صاحب المال إلى ما يجب عليه نحو الذى عليه الدّيْن فيقول:

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

إنها السماحة النديّة التى يحملها الإسلام للبشرية. إنه الظلّ الظليل الذى نادى إليه البشرية المتعبة فى هجير الأثرة والشح والطمع والتكالب، إنها الرحمة للدائن والمدين، وللمجتمع الذى يظل الجميع.

إن المعسر فى الإسلام لا يطارد من صاحب الديْن أو من القانون والمحاكم، إنما يُنْظَرُ حتى يوسر، ثم إن المجتمع المسلم لايترك هذا المعسر وعليه دين، فاللَّه يدعو صاحب الديْن أن يتصدق بدْينه إن تطوع بهذا الخير، وهو خير لنفسه كما هو خير للمدين، وهو خير للجماعة كلها ولحياتها المتكافلة ولو كان يعلم ما يعلمه اللَّه من سريرة هذا الأمر.

وقد كثرت الأحاديث في الترغيب في إنظار المعسر والتجاوز عنه، ومنها:

قوله ﷺ: «**من أنظرَ معسراً أو وضَعَ عنهُ أظلّه اللهُ في ظلّه**»[١].

وعن حذيفة رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**أتى اللهُ بعبد من عبيده يومَ القيامة قال: ماذا عـملت لي في الدُّنيا؟ فقال: ما عملتُ لك يارب مثقالَ ذرة في الدّنيا أرجوك بها ـ قالهـا ثلاث مرات ـ ثم قال عند آخرها: يارب إنك كنتَ أعطيتني فَضْلَ مال، وكنتُ رجـلاً أبايع الناسَ، وكان من خُلُقى الجوازُ، فكنت أيسِّرُ على الموسرِ وأُنظرُ المُعْسرَ. فقال اللّه عزّ وجلّ: أنا أحقُّ من ييسر،ادخلْ الجنةَ**»[٢].

ثم يجيء التعقيب العميق الإيحاء الذى ترجف منه النفس المؤمنة وتتمنى لو تنزل عن الديْن كلّه ثم تمضى ناجيةً من اللّه يوم الحساب:

﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ**﴾ فأنجع شيء لمرض القـلوب تذكر يوم الدِّين وهو يوم عسير، له في قلب المؤمن وقع شديد

﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٨١][*].

كان هذا التحذير من ربا النسـيئة: وهو الزيادة في الثمن من أجل الزيادة في الأجل.

ومن باب سدّ الذرائع حرّم الإسلام نوعاً آخر من الربا وهو ربا الفضل. وربا الفضل معناه: بيع جنسٍ بجنسه متفاضلاً.

---

(١) صحيح: م (٣٠٠٦/ ٢٣٠١ و٢٣٠٢/ ٤).

(٢) متفق عليه: رواه: م (١٥٦٠ - ٢٩ -/ ١١٩٥/ ٣) واللفظ له، خ (٢٠٧٧/ ٣٠٧/ ٤).

(*) راجع الظلال(٤٦٥ـ٤٩/ ١).

وهو محصور فى أصناف ستّة، بيّنها قوله ﷺ:

«الذهبُ بالذهبِ، والفضّةُ بالفضّةِ، والبُرُّ بالبُرِّ، والشعيرُ بالشعيرِ، والتمرُ بالتمرِ، والملحُ بالملحِ، مثلاً بمثل، سواءً بسواء، يداً بيد، فإذا اختلفتْ هذه الأصنافُ فبيعوا كيفَ شئتم إذا كان يداً بيد»[1].

فهذه الأصناف الستة لا يجوز بيع الجنس منها بجنسه متفاضلاً: فلا يجوز بيع مائة جرام ذهباً قديماً بتسعين جراماً ذهباً جديداً، وكذلك الفضة. ولا يجوز بيع كيلتيْن من قمح ردىء بكيلة من قمح جيد، وهكذا بقية الأصناف.

ولا يجوز التأخير فى القبض وإن كان هناك تماثل، بل لابد من التقابض فى المجلس.

فإن اختلفت الأجناس والعلة جاز البيع والشراء متفاضلاً وجاز التأخير، كأن تشترى قمحاً بنقد، أو ملحاً بنقد.

وإن اختلفت الأجناس واتحدت العلة جاز التفاضل دون التأخير: فيجوز أن تشترى عشرين جراماً ذهباً بمائة فضة مثلاً. أو تشترى كيلتيْن قمحاً بأربع شعيراً، أو تشترى مائة ريال سعوديًّا بتسعين جنيهًا مصريًّا، فهذا التفاضل جائزشريطة التقابض فى المجلس. فلا يجوز أن تشترى مائة ريال بتسعين جنيهاً وتبقى لك أو عليك بقية.

وكذلك لا يجوز أن تشترى ذهباً بنسيئة، ولا أن تدفع بعض القيمة ويبقى عليك بعضها، بل لابد من دفع القيمة كلها نقداً قبل مغادرة المجلس.

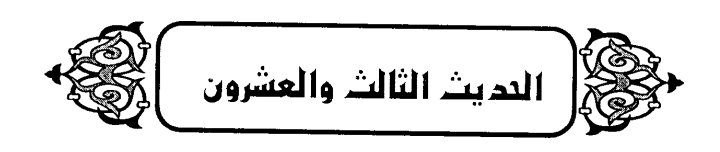
---

(١) صحيح: م (١٥٨٧ - ٨١ -/١٢١١/٣).

ومن الخطأ الذى يقع فيه كثير من الناس عند استبدال الذهب القديم بجديد أنهم يبيعون القديم ولا يقبضون ثمنه، ثم يشترون الجديد ويدفعون الفرق، وهذا داخل فى ربا الفضل، والصحيح أن تبيع ما معك وتقبض ثمنه، ثم تشترى الجديد وتدفع ثمنه.

﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِى الأَبْصَارِ**﴾ [الحشر: ٢] وخذوا حذركم، وتفقهوا فى دينكم، فإنه «**من يرد الله به خيراً يفقّهه فى الدين**».

* * *



الحديث الثالث والعشرون

عَنْ كَعْب بنِ مَالكٍ الأنْصَارِىّ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبىِّ ﷺ قَالَ:

«مَا ذئْبانِ جَائعَانِ أُرْسِلاَ فِى غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمرْءِ عَلَى الْمَالِ والشَّرَفِ لدينه»[1].

هذا مثل عظيم جدًّا، ضربه النبى ﷺ لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف فى الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين، يأتيان فى الغنم وقد غاب عنهـا رعاؤها ليلاً، فهما واكلان فى الغنم ويفتـرسان فيهـا، ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفسـاد الذئبين المذكورين والحالة هذه إلا قليل.

فأخبر النبى ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنـم، بل إمّا أن يكـون مـساوياً، وإمّا أكثر، يشير أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف فى الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلا القليل.

---

(١) صحيح: ت (٢٤٨٢/١٦/٥) وهذا الشرح مختصر لشرح ابن رجب لهذا الحديث، وهو مدون بهامش «جامع بيان العلم وفضله» (١٦٧ - ١٨٣/١).

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شرّ الحرص على المال والشرف فى الدنيا.

فأما الحرص على المال فهو على نوعين:

أحدهما: شدّة محبة المال مع شدّة طلبه من وجوهه المباحة، والمبالغة فى طلبه، والجد فى تحصيله واكتسابه من وجوهه مع الجهد والمشقة. ولو لم يكن فى ذلك إلا تضييع العمر الشريف فى الذى لا قيمة له، وقد كان يمكن صاحبه اكتساب الدرجات العلى والنعيم المقيم، فضيعه بالحرص فى طلب رزق مضمون مقسوم، لايأتى منه إلا ما قُدر وقُسم، ثم لا ينتفع به، بل يتركه لغيره ويرتحل عنه، ويبقى حسابه عليه، ونفعه لغيره، فيجمع لمن لا يحمده، ويقدم على من لا يعذره، لو لم يكن فى الحرص على المال إلا هذا لكفى ذمًّا للحرص على المال.

وقد قيل لبعض الحكماء: إن فلاناً جمع مالاً. فقال: فهل جمع أياماً ينفقه فيها؟ قيل: لا. قال: ما جمع شيئاً. وفى هذا المعنى قيل:

يا جَامعًا مَانعًا والدهرُ يرمُقُه ... مفكِّرًا أي باب منه يغلقه
جمعتَ مالاً ففكرْ هل جمعتَ له ... يا جامعَ المال أيامًا تُفَرِّقه
المالُ عندك مخزونٌ لوارثه ... ما المالُ مالكَ إلا يوم تنفقُه
إن القناعةَ من يَحْلُلْ بساحَتِهَا ... لم يألُ في طلب مما يؤرقه

وكتب بعض الحكماء إلى أخ له كان حريصاً على الدنيا:

أما بعد: فإنك أصبحت حريصاً على الدنيا، تخدمها وهى تخرجك عن نفسها بالأعراض والأمراض والآفات والعلل، كأنك لم تر حريصاً محروماً،

وزاهداً مرزوقاً، ولا ميتاً عن كثير، ولا متبلغاً من الدنيا باليسير.

والنوع الثانى من الحرص على المال: أن يزيد على ما سبق ذكره فى النوع الأول حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة، ويمنع الحقوق الواجبة، فهذا من الشح المذموم، الذى لا يفلح أهله أبداً، قال اللَّه تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

وقال النبى ﷺ: «**اتقوا الظلمَ فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامة، واتقوا الشحَّ فإن الشحَّ أهلكَ من كان قبلكم، حَمَلَهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارِمَهم**»(١).

قال العلماء: الشح هو الحرص الشديد الذى يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلها، ويمنعها حقوقها، فلا يرضى بما قسم اللَّه له من الحلال والطيب، بل يتطلع إلى ما حُظر عليه ومُنع منه، وهذا هو الشح الهالك، الذى أخبر النبى ﷺ أنه يأمر بالبخل والقطيعة والفجور، ولهذا أخبر ﷺ أنه: «**لا يجتمعُ الشحُّ والإيمان فى قلبِ عبدٍ أبداً**»(٢).

وقال ﷺ: «**شرّ ما فى الرجلِ شحّ هالعٌ، وجُبنٌ خَالِع**»(٣).

فإذا بلغ الحرص على المال هذه الدرجة فإنه لا يبقى فى القلب من الدين والإيمان إلا القليل، كما لا يبقى من حظيرة غنم دخل عليها ذئبان جائعان ضاريان ليلاً فعملا فيها فساداً فى غياب أهلها إلا القليل.

أما الحرص على الشرف فهو أشدّ هلاكاً، وأعظم فساداً، وأكبر ضرراً وخطراً

---

(١) صحيح: م (٢٥٧٨/١٩٩٦/٤).
(٢) صحيح: نس (٦/١٣).
(٣) صحيح: د (٢٤٩٤/١٨٧/٧).

من الحرص على المال.

ذلك أن الإنسان بطبيعته يطلب الرياسة والولاية، ويحب الشرف والظهور والعلو.

والزهد فى الرياسة أصعب من الزهد فى المال، ذلك أن المال ينفق فى طلب الشرف والولاية والرياسة، لهذا كان الحرص على الشرف أعظم خطراً، وأشد فساداً، وأكبر ضرراً من الحرص على المال.

والحرص على الشرف نوعان:

الأول: طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال، وهذا خطر جدًّا، وهو فى الغالب يمنع شرف الآخرة وكرامتها وعزها، كما قال تعالى: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِى الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾** [القصص: ٨٣].

وقلّ من يطلب الرياسة ويحرص عليها ثم يوفق فيها، ولهذا قال النبى ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «**يا عبد الرحمن! لا تسألْ الإمارةَ فإنك إن أُعطيتها عن مسألةٍ وُكلتَ إليها، وإن أُعطيتها عن غيرِ مسألةٍ أُعنتَ عليها**»(١).

وعن أبى هريرة رضى اللَّه عنه عن النبى ﷺ قال: «**إنكُم ستحْرِصون علَى الإمَارةِ، وستكونُ ندامةً يومَ القيامةِ، فنعمتِ المرضعةُ، وبئستِ الفاطمة**»(٢).

وعن أبى موسى الأشعرى رضى اللَّه عنه: «أن رجلين قالا للنبى ﷺ: يارسول اللَّه أمِّرنا! فقال: «**إنا لا نُولى هذَا منْ سألهُ ولاَ منْ حرصَ عليْه**»(٣).

---

(١) متفق عليه: خ (٧١٤٦/١٢٣، ١٢٤/١٣)، م (١٦٥٢/١٢٧٣، ١٢٧٤/٣)، د (٢٩١٣/١٤٧/٨)، نس (٢٢٥/٨)، ت (١٥٦٨/٤٢/٣).
(٢) صحيح: خ (٧١٤٨/١٢٥/١٣)، نس (٢٢٥، ٢٢٦/٨).
(٣) صحيح: خ (٧١٤٩/١٢٥/١٣).

ومن دقيق آفات حبّ الشرف: أن يحب ذو الشرف والولاية أن يُحمد على فعله ويثنى عليه به، ويطلب من الناس ذلك، ويتسبب فى أذى من لا يجيبه إليه، وربما كان هذا الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح، وربما أظهر أمراً حسناً وأحب المدح عليه وقصد به فى الباطن شرًّا، وهذا يدخل فى قوله تعالى: ﴿**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٨٨].

والنوع الثانى من الحرص على الشرف: أن يطلب الشرف بالأمور الدينية كالعلم والعمل والزهد.

وهذا أفحش من الأول وأقبح، وأشدّ فساداً وخطراً. فإن العلم والعمل والزهد إنما يطلب به ما عند اللَّه من الدرجات العلى والنعيم المقيم، ويطلب به ما عند اللَّه والقرب منه والزلفى لديه.

قال الثورى: إنما فُضّل العلم لأنه يتقى به اللَّه، وإلا كان كسائر الأشياء.

فإذا طلب بشىء من هذا عرض الدنيا الفانى فهو أيضاً نوعان:

أحدهما: أن يطلب به المال، فهذا من نوع الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرمة. وفى هذا يقول ﷺ: «**منْ تعلّم علماً ممَّا يبتغَى به وجه الله لاَ يتعلَّمه إلاَّ ليصيبَ به عرضَ الدُّنيا لمْ يجدْ عرفَ الجنَّة يومَ القيامة**»[١].

وسبب هذا ـ واللَّه أعلم ـ أن فى الدنيا جنة معجلة، وهى معرفة اللَّه تعالى ومحبته، والأنس به والشوق إلى لقائه وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل على ذلك، فمن دلّه علمه على دخول هذه الجنة المعجلة فى الدنيا دخل

(١) صحيح: د (٣٦٤٧/٩٧/ ١٠)، جه (٢٥٢/ ٩٢ ، ٩٣/ ١).

الجنة فى الآخـرة، ومن لم يشمّ رائحتـهـا لم يشم رائحة الجنة فى الآخـرة. ولهذا كان أشدَّ الناس عذاباً يوم القيامـة عالمٌ لم ينفعه اللَّه بعلمه، وهو أشدّ الناس حسرة يوم القيامة، حيث كـان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقـامات، فلم يستـعملهـا إلا فى التوصل إلى أخَسّ الأمـور وأدناها وأحقرها، فهـو كمن كان معه جواهر نفيـسة لها قيمة فباعـها ببعرة أو شىء مستقذرٍ لا ينتفع به.

والنوع الثانى: هو أن يطلب بالعلم والعمل والزهد الرياسة على الخلق والتعـاظم عليهم، وأن ينقاد الخلق له ويخضعـوا، ويصرفوا وجوههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء ليعلو به عليهم، ونحو ذلك، فهذا موعده النار لأن قصد التكبر على الخلق محرم فى نفسه، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان.

عن النـبى ﷺ قـال: «**منْ طلبَ العلمَ ليمـارِى به السفهـاءَ، أوْ يجارِى به العلماءَ، أوْ يصرفَ وجوهَ الناسِ إليه أدخلهُ اللهُ النارَ**»(١).

وقـال ﷺ: «**لاَ تعلَّموا العلمَ لتباهُوا به العلماءَ، ولاَ لـتماروُا بهِ السفهاءَ، ولاَ لتحيزُوا بهِ المجالسَ، فمنْ فعلَ ذلكَ فالنارُ النارُ**»(٢).

وهكذا تبين لنا ذمّ الحرص على المال والشرف فى الدنيا، وأن ذلك يفسد الدين كفـساد ذئبين جـائعين أرسلا فى حظيـرة غنم ليلاً فى غيـاب الرعاة، ولكن النفس مفطورة على طلب العلو والرفـعة، والإسلام لا يحارب الفطرة ولا يقاومها، ولكنه يرشدها ويقوّمهـا، ولذلك أرشد اللَّه تبارك وتعالى عباده

(١) حسن: ت (٢٧٩٢/ ١٤٠، ١٤١/ ٤)، جه (٢٥٣/ ٩٣/ ١).
(٢) صحيح: جه (٢٥٤/ ٩٣/ ١).

إلى طلب العلو فى الآخرة، وأمرهم بالتنافس فيه تلبية لدافع الفطرة. قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ووصف ما فى الجنة من النعيم فقال: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

فالعاقل هو الذى يطلب العلو والرفعة فى الآخرة، وينافس الناس فى ذلك، كما قال الحسن: إذا رأيت الرجل ينافسك فى الدنيا فنافسه فى الآخرة.

إن التنافس فى الدنيا قد أهلك الناس! إن التنافس فى الدنيا قد أتعب الناس! إن التنافس فى الدنيا قد أشقى الناس! إن التنافس فى الدنيا قد أتعس الناس! «**تعسَ عبدُ الدينار! وعبد الدِّرهم! إنْ أُعطى رضى وإنْ لمْ يعطَ سخطَ، تعسَ وانتكسَ وإذا شيك فلاَ انتقشَ!**»[1].

إن التنافس فى الدنيا قد أوقع الناس فى الشح الذى حملهم على قطع الرحم وعقوق الآباء، والإساءة إلى الجيران، ولم يعد مسلم يعرف لأخيه المسلم حقًا بسبب التنافس فى الدنيا، ولذلك حذر الإسلام من التنافس فى الدنيا، ورغب المسلمين فى التنافس فى طلب العلو فى الآخرة.

(١) صحيح: خ (٢٨٨٧/ ٨١/٦).

قـال اللَّه تعـالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٢١].

ففى درجـات الآخرة الباقـية يشرع التنافس وطلب العـلو فى منازلها، والحرص على ذلك، والسـعى فى أسبابه، وأن لا يقنع الإنسـان منها بالدون مع قدرته على العلو.

وأما العلو الفانى المنقطـع الذى يعقب صاحبه غداً حـسرة وندامة، وذلّة وهواناً وصغـاراً، فهـو الذى يشرع الزهد فيـه والإعراض عنه، وللزهد فـيه أسباب:

منها: نظر العبد إلى سوء عاقبة الشرف فى الدنيا بالولاية والإمارة لمن لا يؤدى حقـها فى الآخـرة، فينظر العبـد إلى عقـوبة الظالمين والمكذبين، ومن ينازع الله رداء الكبرياء.

فـعن النبى ﷺ قـال: «**يحشرُ المتكبِّـرون يومَ القيامة أمـثالَ الذرِّ فى صورِ الرجَال، يغـشَاهم الذلُّ منْ كلِّ مكانٍ، يساقُـون إلَى سجنٍ فى جـهنَّم يقالُ له بُولس، تعلُوهم نارُ الأنيار، يسقَون منْ عصارةِ أهلِ النَّارِ طينة الخبَالِ**»[١].

ومنها: نظر العبد إلى ثواب المتواضعين للَّه فى الدنيا بالرفعة فى الآخرة، فإنه من تواضع للَّه رفعه.

ومنهـــا: وليس هو فى قدرة العـبد ولكنه من فضل اللَّه ورحمـته ـ ما يعوض اللَّه عـباده العارفـين به، الزاهدين فيمـا يغنى من المال والشرف، مما يجعله اللَّه لهم فى الدنيـا من شرف التقوى، وهيـبة الخلق لهم فى الظاهر،

(١) صحيح: ت (٢٦١٠/٦٦/٤).

ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة فى الباطن، وهى الحياة الطيبة التى وعدها اللَّه لمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك فى الدنيا ولا أهل الرياسات والحرص على الشرف. كما قال إبراهيم بن أدهم - رحمه اللَّه -: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال بعض الصالحين: على قدر هيبتك للَّه يخافك الخلق، وعلى قدر محبتك للَّه يحبك الخلق، وعلى قدر اشتغالك باللَّه يشتغل الخلق بأشغالك.

فالعاقل من حرص على طلب العلو والرفعة فى الآخرة، فإن من طلب العلو فى الآخرة نال العلو فى الدنيا، ومن طلب العلو فى الدنيا فقد العلو فى الآخرة، فلم تحرص يا عبد اللَّه على الدنيا وحدها؟ اطلب الآخرة تأتك الدنيا معها، فإذا طلبت الدنيا وحدها فاتتك الآخرة ولم يأتك من الدنيا إلا ما قسم اللَّه لك، ولذا قال النبى ﷺ:

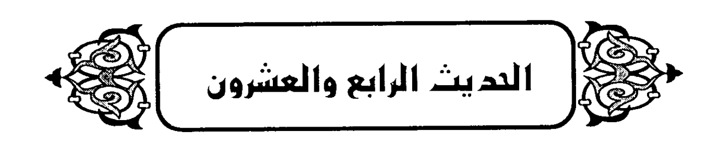
«منْ جعلَ الهمومَ همًّا واحدًا همّ آخرته كفَاه اللهُ همَّ دنياهُ، ومنْ تشعبتْ بِه الهمومُ فِى أحوالِ الدنْيا لمْ يبالِ اللهُ فى أىِّ أوديتها هلَك»(١).

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، وأغننا بفضلك عمن سواك.

اللهم زهّدنا فى الدنيا ووسّع علينا فيها، ولا تحجبها عنا فترغبنا فيها.

* * *

(١) حسن: جه (٢٥٧/٩٥/١).



الحديث الرابع والعشرون

عَن أبي هُريرةَ رَضيَ اللَّهُ عَنهُ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ:

«لكُلِّ نَبيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبيٍّ دَعْوَتَهُ، وإنِّي اخْتَبأْتُ دَعْوَتي شَفَاعَةً لأُمَّتي يَوْمَ الْقيَامَة، فَهِيَ نَائلَةٌ إنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ منْ أُمتي لاَ يُشْركُ بالله شَيْئاً»(1).

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومما يدل على رحمته ﷺ وشفقته بأمته هذا الحديث، ومعناه: أن كل نبيّ له دعوة لأمته متيقنة الإجابة، وهو على يقين من إجابتها، وأما باقي دعواتهم فهم على طمع من إجابتها، وبعضها يجاب وبعضها لا يجاب. وقد دعا كلّ نبيّ لأمته في الدنيا، وادّخر النبيّ ﷺ دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم وهو يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

---

(١) صحيح: م (١٩٩/١٨٩/١)، جه (٤٣٠٧/١٤٤٠/٢)، ت (٣٦٧٢/٢٣٨/٥)، خ (٧٤٧٤/٤٤٧/١٣) مختصراً.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين: ٦].

في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حفاة عراةً غُرْلاً، في موقف صعب حرج، ضيّق ضنك على المجرمين، ويغشاهم من أمر اللَّه تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه.

عن المقداد بن الأسود رضى اللَّه عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إذا كانَ يومُ القيامة أُدنيت الشمسُ منَ العباد حتى تكونَ قدرَ ميل أوْ ميلين فتصهرُهم الشمسُ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم منْ يأخذُه العرقُ إلَى عقبيه، ومنهُم منْ يأخذُه إلَى ركبتيه، ومنهُم منْ يأخذُه إلَى حقويه، ومنهُم منْ يلجَمُه العرقُ إلجامًا**»[1].

حتى إذا عظم الخطب، واشتد الكرب ألهموا أن يستشفعوا بالأنبياء فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟

فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك اللَّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك. اشفع لنا إلى ربّك. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلَغَنا؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي!! اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى الأرض، وسمّاك اللَّه عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم

(١) صحيح: ت (٢٥٣٦/٣٧/٤)، م (٢٨٦٤/٢١٩٦/٤).

يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لى دعوةٌ دعوتُ بها على قومى، نفسى نفسى!! اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبىّ اللَّه وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وذكر كَذباته، نفسى نفسى!! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول اللَّه، فضّلك اللَّه برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسى نفسى!! اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول اللَّه وكلمت الناس فى المهد، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسى نفسى!! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد.

قال ﷺ: فيأتونى فيقولون يا محمد أنت رسول اللَّه، وخاتم الأنبياء، وغفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى، ثم يفتح الله علىّ ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه

لأحد قبلى، ثم يقال: يا محمد! ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفّع. فأرفع رأسى فأقول: يا ربّ أمتى أمتى. فيقال: يا محمد! أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب.

والذى نفس محمد بيده إن ما بين المصراعيْن من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى»[1].

هذه الشفاعة العامة التى خصّ بها نبيّنا ﷺ من بين سائر الأنبياء هى المراد بقوله ﷺ: «**وإنِّى اختبأتُ دعوتِى شفاعةً لأمتِى يومَ القيامةِ**».

وهذه الشفاعة العامة لأهل الموقف إنما هى لتعجيل حسابهم وإراحتهم من هول الموقف.

وقوله ﷺ: «**يَاربّ أمتِى أمتِى**» فيه اهتمام بأمر أمته، وإظهار محبته لهم، وشفقته عليهم.

وقوله ﷺ: «**فيقالُ: أدخلِ الجنةَ منْ أمتكَ مَن لاَ حسابَ عليهِ منَ البابِ الأيمنِ**» فيه دليل على أن منْ هذه الأمة مَنْ سيدخل الجنة بغير حساب، يتكئون فيها على سرر موضونة والناس ما زالوا فى أرض الموقف.

وقد قال فيهم ﷺ: «**يدخلُ الجنةَ منْ أمتِى سبعونَ ألفاً بغيرِ حسابٍ**». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**همُ الذينَ لاَ يسترقُون، ولاَ يتطيَّرون، ولاَ يكْتوون، وعلَى ربِّهم يتوكَّلون**»[2].

---

(١) متفق عليه: خ (٣٩٥/٤٧١٢، ٨/٣٩٦)، م (١٩٤/ ١٨٤ - ١/١٨٦)، ت (٢٥٥١/٤٣ - ٤/٤٥)

(٢) صحيح: م (٢١٨/١٩٨/١).

وقال ﷺ : «وعدني ربّي أن يُدْخِل الجنةَ من أمتي سبعينَ ألفاً بغيرِ حساب، معَ كلِّ ألفٍ سبعونَ ألفًا، وثلاثُ حثياتٍ منْ حثياتِ ربِّي عزّ وجلّ»[١].

وهكذا تضمن حديث الشفاعة نوعين من أنواع شفاعته ﷺ:

(١) الشفاعة العظمى لأهل الموقف ليريحهم اللَّه من هذا القيام.

(٢) شفاعته فى جماعة من أمته أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

والنوع الثالث شفاعته ﷺ: فى أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع لهم فيدخلون الجنة.

(٤) شفاعته فى أقوام قد أُمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

(٥) شفاعته فى رفع درجات من يدخل الجنة فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

(٦) شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين فى دخول الجنة.

(٧) شفاعته فى أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار فيخرجون منها.

وقد تواترت الأحاديث بهذا النوع، وأن هذه الشفاعة تتكرر أربع مرات، فى كل مرة يحدُّ اللَّه له حدًّا فيخرجهم من النار، ثم يجيء الرابعة فيقول: «ياربّ ائذنْ لى فيمن قال لا إلهَ إلا اللهُ. فيقولُ الربّ سبحانه: ليستْ هذه لك، ثم يقولُ: وعزتى وجلالى، وكبريائى وعظمتى لأخرجنّ منها من قال لا إله إلا اللهُ»[٢].

وفى رواية: «يقولُ اللهُ تعالى: شفعت الملائكةُ، وشفعَ النبيون، وشفعَ المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحمُ الراحمين، فيقبضُ قبضةً من النارِ، فيُخرج منها قوماً لم

---

(١) صحيح: ت (٢٥٥٤/٤٥، ٤٦/٤). (٢) حسن: م (١٩٣ - ٣٢٦ -/١٨٢/١).

يعملُوا خيراً قط. قد عادوا حُمماً، فيلقيهم فى نهرٍ فى أفواهِ الجنةِ يقالُ له: نهرُ الحياةِ. يخرجونَ كما تخرجُ الحبّةُ فى حميلِ السّيلِ ألا ترونها تكون إلى الحجرِ أو إلى الشجرِ .ما يكونُ إلى الشمسَ أصَيْفر وأُخَيْضر، وما يكون منها إلى الظل يكونُ أبيض؟» فقالوا: يا رسول اللَّه! كأنك كنت ترعى بالبادية. قال: «فيخرجونَ كاللؤلؤِ فى رقابِهم الخواتمُ. يعرفُهم أهلُ الجنة. هؤلاء عتقاءُ الله الذين أدخلَهم اللَّه الجنةَ بغيرِ عملٍ عملُوه، ولا خيرٍ قدّموه. ثم يقولُ: ادخلوا الجنةَ فما رأيتُموه فهو لكم فيقُولون: ربّنا! أعطيتَنا ما لم تعطِ أحداً من العالمينَ. فيقولُ: لكم عندى أفضلُ من هذا. فيقولُون: يا ربنا! أىُّ شىء أفضلُ من هذا؟ فيقولُ: رضاىَ فلا أسخطُ عليكُم بعده أبداً»[١] .

(٨) شفاعته ﷺ فى عمّه أبى طالب أن يخفف عنه العذاب بما قدّم فى الدنيا لدين اللَّه ورسوله.

عن عبد اللَّه بن الحارث قال: سمعت العباس يقول: قلت: يا رسول اللَّه! إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعه ذلك؟ قال: «نعمْ. وجدتُه فى غمراتٍ من النار فأخرجتُه إلى ضحضاحٍ»[٢] .

وقد أخبر ﷺ أن أبا طالب فى هذا الضحضاح يغلى منه دماغه، يرى أنه أشد أهل النار عذاباً، وهو أهونهم عذابًا[٣] .

ولا تعارض بين هذه الشفاعة وبين قول اللَّه تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ

---

(١) متفق عليه: م (١٨٣/١٦٧ - ١/١٧١) وهذا لفظه، خ (٤٣٩/ ٤٢٠ - ١٣/٤٢٢).

(٢) متفق عليه: م ٢٠/ ١٩٤ و١٩٥/١) وهذه رواية له،وله رواية أخرى بمعناها، أخرجها هو و:خ (٧/١٩٣/٣٨٨٣).

(٣) صحيح: م (٢١٣/١٩٦/١).

الشَّافعين ﴾ [المدثر : ٤٨].

لأن المراد من الآية : لا تنفعهم الشفاعة فى الخروج من النار كعصاة المؤمنين الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة ، أما شفاعته ﷺ لعمه فهى فقط أن يخفف عنه العذاب بما قدم فى الدنيا للدين .

هذه هى أنواع الشفاعات الكائنة لرسول اللَّه ﷺ يوم القيامة(*) .

أما قوله ﷺ فى الحديث : **«فهى نائلةٌ إنْ شاءَ اللهُ من أمتى منْ ماتَ لاَ يشركَ بالله شيئًا»**.

فقوله : **«إنْ شاءَ الله»** إنما قاله على جهة التبرك والامتثال لقوله تعالى : **﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾** [الكهف : ٢٣ ، ٢٤].

وقوله : **«فهى نائلة إن شاء اللَّه من أمتى من مات لا يشرك باللَّه شيئًا»** فيه دلالة لمذهب أهل الحق أن كل من مات غير مشرك لا يخلّد فى النار وإن كان مصرًّا على الكبائر .

وفيه إشارة لوسيلة من الوسائل التى تُدرك بها الشفاعة وهى : أن لا يشرك بالله شيئاً ، فمن أراد أن تناله هذه الشفاعة فليلق اللَّه لا يشرك به شيئاً ، فإن من مات يشرك باللَّه شيئاً لا تنفعهم شفاعة الشافعين .

وهناك وسائل أخرى منها :

(٢) الصلاة على النبى ﷺ عشراً فى الصباح وعشراً فى المساء ، لقوله ﷺ : **«من صلّى علىّ عشْراً إذَا أصبَح وعشْراً إذَا أمسَى حلَّت لهُ شفاعتِى»**(١).

(*) انظر شرح الطحاوية (٢٥٢ـ ٢٦٠).

(١) حسنه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٦٢٣٣) وعزاه للطبرانى.

(٣) سؤال اللَّه للنبى ﷺ الوسيلة بعد الأذان، لقوله ﷺ:

«إذَا سمعتُم النداءَ فقولُوا مثلَ مَا يقولُ ثمَّ صلّوا علىّ، فإنَّه منْ صلّى علىّ صلاةً صلّى اللهُ عليه بهَا عشْراً، ثمَّ سلوا اللهَ لى الوسيلةَ، فإنَّهـا منزلةٌ فى الجنَّة لا تنبغى إلاَّ لعبدٍ منْ عبادِ الله، وأرجُو أنْ أكونَ أنَا هُو، فمنْ سألَ الوسيلةَ حلّت لهُ الشفاعة»[١].

وعن جابر رضى اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

«منْ قالَ حينَ يسمعُ النداءَ: اللهمَّ ربَّ هذه الدعوةِ التَّامة، والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثهُ مقاماً محموداً الذى وعدتَه، حلّت لهُ شفاعتِى يومَ القيامةِ»[٢].

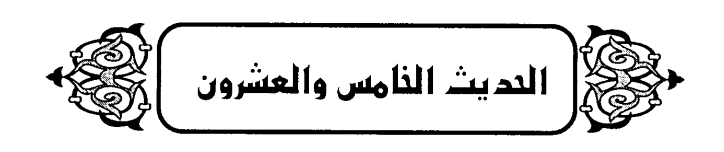
نسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يشفع فينا نبيه صلى الله عليه وسلم .

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح: م (٣٨٤/٢٨٨، ٢٨٩/١)، د (٥١٩/٢٢٥، ٢٢٦/٢)، ت (٣٦٩٤/٢٤٧/٥)، نس (٢٥/٢).

(٢) صحيح: خ (٦١٤/٩٤/٢)، د (٥٢٥/٢٣١ ، ٢٣٢/٢)، ت (٢١١/١٣٦/١)، جه (٧٢٢/٢٣٩/١)، نس (٢٧/٢).



الحديث الخامس والعشرون

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الدعــاءَ ينفعُ مما نزلَ ومما لم ينزلْ، فـعليكُم عـبـادَ الله بالدُّعاء»[(1)].

الدعاء هو الابتهال إلى الله تعالى بالسؤال رغبةً فيما عنده من الخير.

ولقـد أمر الله تعـالى عبـاده أن يدعوه ويتـضرعـوا إليه، ووعـدهم أن يستجيب لهم ويحقق لهم سؤالهم. قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال النبى ﷺ: «**قالَ اللهُ تعالى: يا ابنَ آدمَ إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لكَ على ما كانَ منكَ ولا أُبالى**»[(2)]. وقال ﷺ: «**قالَ اللهُ تعالى: (قسمتُ الصلاةَ بينى وبينَ عبدى نصفينِ ولعبدِى ما سألَ)**»[(3)].

ولقد توعد الله الذين يستنكفون عن دعائه فقال تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى**

---

(١) صحيح: حسن: كم (٤٩٣/ ١) .

(٢) حسن: ت (٣٦٠٨/٢٠٨/٥).

(٣) صحيح: م (٣٩٥/٢٩٦/١)، د (٣٨/٨٠٦/٣)، ت (٤٠٢٧/٢٦٩/٤)، نس (١٣٥/٢).

أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال النبى ﷺ: «منْ لم يسأل اللهَ يغضبْ عليه»(١).

وقد أخذ بعضهم هذا المعنى ونظم منه أبياتًا فقال:

لا تسألنّ بُنىّ آدم حاجةً ... وسل الذى أبوابُه لا تُحجب

اللَّه يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنىّ آدم حين يسأل يغضب

فإن قال أحد: وما فائدة الدعاء؟ أليس كل شىء بقضاء؟

فالجواب: أن النبىّ ﷺ أخبرنا أن الدعاء ينفع مما نزل من البلاء ومما لم ينزل منه.

أما نفعه مما نزل: فإن اللَّه تعالى قال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

وقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

ولقد أنكر اللَّه على أقوام ابتلاهم ليدعوه ويتضرعوا إليه فأنساهم الشيطان ذلك فحقت عليهم كلمة العذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) حسن: ت (٣٤٣٣/ ١٢٦/ ٥)، جه (٣٨٢٧/ ١٢٥٨/ ٢) ولفظه «من لم يدع ...»

حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

فالواجب على الناس أن ينتبهوا لسنن اللَّه فيهم، فقد يبتلون ليسمع اللَّه دعاءهم وتضرعهم، فإن اللَّه يحب أن يسأل ويدعى، فمن غفل عن ذكر اللَّه في الشدة كان عن ذكره في الرخاء أغفل، وأولئك هم الخاسرون.

أما كون الدعاء ينفع مما لم ينزل فقد دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

ولذا قال النبي ﷺ: «لا يردّ القضاءَ إلا الدعاءُ»[١].

وقوله ﷺ: «فعليكُم عبادَ الله بالدُّعاءِ» أي: الزموا الدعاء واجتهدوا فيه وألحّوا وداوموا عليه، لأن به يحاز الثواب، ويحصل ما هو الصواب، وكفى بك شرفاً أن تدعوه فيجيبك، ويختار لك ما هو الأصلح في العاجل والآجل.

وإنما خص عباد اللَّه بالذكر زيادةً في الحث، وإيماءً إلى أن الدعاء هو العبادة، كما صح بذلك الحديث عنه ﷺ[٢].

فأكثروا رحمكم اللَّه من الدعاء والسؤال، ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

و «لِيسألْ أحدُكم ربَّه حاجتَه كلَّها، حتى يسألُه الملحَ، وحتى يسألُه شسعَ نعله إذا انقطعَ»[٣].

---

(١) حسن: ت (٢٢٢٥/٣٠٣ ، ٣/٣٠٤).
(٢) صحيح: ت (٣٢٩٩/٥٢/٥)، د (١٤٦٦/٣٥٢/٤).
(٣) حسن: ت (٣٦٨٣/٢٤٢، ٥/٢٤٣).

واعلموا أن للدعاء آداباً، منها:

(١) اختيار الأوقات الشريفة: كشهر رمضان، ويوم عرفة، ويوم الجمعة، فـ«**إنَّ فى يومِ الجمعةِ لساعةً، لا يوافقُها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يصلى يسألُ اللهَ شيئاً إلا أعطاه إياه**»[١] وكوقت السحر، فـ «**إن اللَّه تعالى ينزل كل ليلة فى الثلث الأخير من الليل إلى سماء الدنيا فيقول: من يدعونى فأستجيب له، من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟**»[٢] وقد أثنى اللَّه تعالى على المستغفرين بالأسحار. وقيل إن يعقوب عليه السلام لما قال لأبنائه ﴿**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى**﴾ [يوسف: ٩٨] إنما أخّر الاستغفار لوقت السحر.

(٢) أن يغتنم الأحوال الشريفة: كحال انتظار الصلاة، فإن «**الدعاءُ بينَ الأذان والإقامة لا يردُّ**»[٣]. وكحال السجود، فـ «**أقرب ما يكون العبد من ربهِّ وهو ساجد**»[٤]. وقال ﷺ: «**وأما السجودُ فاجتهدُوا فى الدعاءِ فقمنٌ أن يستجابَ لكُم**»[٥]. وكحال الوجل ورقة القلب، فعن أبى الدرداء رضى اللَّه عنه أنه سئل عن الوجل المذكور فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢].

فقال: الوجل فى القلب كاحتراق السعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى. قال: إذا وجدت ذلك فادع اللَّه عند ذلك، فإن الدعاء يستجاب عند ذلك.

---

(١) متفق عليه: خ (٩٣٥/ ٤١٥/ ٢)، م (٨٥٢/ ٥٨٣/ ٢)، جه (١١٣٧/ ٣٦٠/ ١)، نس (١١٥ و١١٦/ ٣).

(٢) متفق عليه: خ (١١٤٥/ ٢٩/ ٣)، م (٧٥٨/ ٥٢١/ ١)، ت (٣٥٦٥/ ١٨٨/ ٥)، د (١٣٠١/ ١٩٩/ ٤)، جه (١٣٦٦/ ٤٣٥/ ١).

(٣) صحيح: ت (٢١٢/ ١٣٧/ ١)، د (٥١٧/ ٢٢٤/ ٢).

(٤) صحيح: م (٤٨٢/ ٣٥٠/ ١)، د (١٦١/ ١٢٨/ ٣)، نس (٢٢٦/ ٢).

(٥) صحيح: م (٤٧٩/ ٣٤٨/ ١)، د (٨٦٢/ ١٢٨ - ١٣٠/ ٣)، جه (٣٨٩٩/ ١٢٨٣/ ٢).

(٣) أن يقدّم التوبة والاستغفار بين يدى الدعاء.

(٤) أن يستـقبل القبلة، فقـد خرج النبى ﷺ يستسـقى فاستقـبل القبلة ودعا[١].

(٥) أن يرفع يديه بالدعاء، «فإن اللَّه تعالى حيى كريم، يستحيى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردّهما صفرا»[٢].

(٦) أن يبدأ بحمد اللَّه وتمجيده والثناء عليه، كما أرشدنا إلى ذلك ربنا سبـحانه فى سورة الفـاتحة، حيث بدأ بالحـمد والثناء والتمـجيد، ثم أتبـعه بالدعاء والسؤال.

(٧) أن يصلّى علـى النبىّ ﷺ، فقـد سمع النبى ﷺ رجلاً يدعـو فى صلاته لم يحمد اللَّه تعالى ولم يصلّ على النبىّ ﷺ، فقال: «عجل هذا». ثم دعاه فـقال له: «إذا صلّى أحدُكم فليبدأ بتمـجيدِ ربه عزّ وجلّ والثناءِ عليه، ثم يصلِّى على النبى -ﷺ- ثم يدعُو بعدُ بما شاءَ»[٣].

(٨) أن يدعـو اللَّه تعـالى بربوبيتـه: ياربّ! ياربّ، فـهـذا هو هدى الصالحـين فى الدعاء: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

---

(١) متـفق عليـه: خ (١٠٢٨/٥١٥/٢)، م (٨٩٤/٦١١/٢)، د (١١٤٩/٢٤/٤)، جـه (١٢٦٧/٤٠٣/١)، نس (١٥٥/٣).

(٢) صحيح: ت (٣٦٢٧/٢١٧/٥)، د (١٤٧٤/٣٥٩/٤)، جه (٣٨٦٥/١٢٧١/٢).

(٣) صحيح: ت (٣٥٤٦/ ١٨٠/٥)، د (١٤٦٨/٣٥٤/٤).

(٩) **أن يجزم المسألة ولا يعلّق على المشيئة، لقوله ﷺ:**

«لا يقولنّ أحدُكم اللهمَّ اغفرْ لى إن شئتَ، اللهمَّ ارحمْنى إن شئتَ، ليجزِمِ المسألةَ فإنه لا مُكره له»[1].

(١٠) **أن يوقن بالإجابة: لأن اللَّه وعد بها،** وهو سبحانه لا يخلف وعده، ولذا قال النبىّ ﷺ: **«ادعُوا اللهَ وأنتُم موقنون بالإجابة»**[2]. وكان عمر رضى اللَّه عنه يقول: إنى لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل همّ الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه[3]، لأن اللَّه تعالى: ﴿ **يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**﴾ [السجدة: ٥].

فإذا أراد أن يجيبك ألهمك أن تدعوه، فتدعوه فيجيبك، كما قال تعالى: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا**﴾ [التوبة: ١١٨].

تاب عليهم فى القضاء ليتوبوا فى الواقع فيتوب عليهم ويغفر لهم.

(١١) **التضرع والخشوع والرغبة،** فإن اللَّه تعالى قال: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ [الأعراف: ٥٥].

وأثنى على آل زكريا فقال: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾ [الأنبياء: ٩٠].

(١٢) **الإلحاح فى الدعاء والسؤال،** فعن ابن مسعود رضى اللَّه عنه

---

(١) متفق عليه: خ (٦٣٣٩/١٣٩/١١)، م (٢٦٧٩/ ٢٠٣٢/ ٤)، ت (٣٥٦٤/١٨٧/٥)، د (١٤٧٠/٣٥٦/٤)، جه (٣٨٥٤/١٢٦٧/٢).

(٢) حسن: ت (٣٥٤٥/١٧٩، ١٨٠/٥).

(٣) الجواب الكافى لابن القيم (ص ٩).

قال: «كان النبيُّ ﷺ إذا دَعَا دعَا ثلاثاً، وإذا سألَ سألَ ثلاثاً»[1].

(١٣) التوسل إلى اللَّه تـعالى بأسمـائه الحسنى كما أمـر بذلك فقال: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وسمع النبى ﷺ رجلاً يقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك اللَّه لا إله إلا أنت، الأحـد الصـمـد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كـفـواً أحـد. فقـال ﷺ: «لقـد سألَ الـلهَ بالاسمِ الذى إذا سُئل به أعطَى وإذا دُعى به أجابَ»[2].

(١٤) التوسل إلى اللَّه تعالى بصالح الأعمال:

عن عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «انطلقَ ثلاثةُ نفـرٍ ممن كان قبلكم حـتى آواهُم المبيتُ إلى غـارٍ فدخلوه، فـانحدرت صخرةٌ من الجبلِ فسدّت عليهم الغارَ، فقالوا: إنه لا ينجيكم مِن هذه الصخرةِ إلا أن تدعوا الله بصالحِ أعمالِكم.

فقـال رجلٌ منهم: اللهمَّ كان لى أبوان شيـخان كبيـران، وكنتُ لا أغبقُ قبلهـما أهلاً ولا مـالاً، فنأى بى طلبُ الشجـرِ فلم أُرِحْ عليـهمـا حتـى ناما، فـحلبتُ لهمـا غبـوقَهما فـوجدتُهما نـائمين، فكرهت أن أُوقظهمـا وأن أغبقَ قَبلَهُمَـا أهلاً ومالاً، فلبثتُ والقدحُ على يدى أنتظر استيقاظهما حـتى بَرق الفجرُ، والصبيةُ يتضَاغَوْن عند قدمى، فاستيقظا فشربا غبوقَهما، اللهمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهك ففرّج عنا ما نحنُ فيه من هذه الصخرةِ، فانفرجتْ شيئًا لا يستطيعونَ الخروجَ منهم.

---

(١) صحيح :رواه: م (١٧٩٤/١٤١٨/٣).

(٢) صحيح: د (١٤٧٩/٣٦٢/٤)، ت (٣٥٤٢/١٧٨/٥)، جه (٣٨٥٧/١٢٦٧ ، ١٢٦٨/٢) وعنده والترمذى: «لقد يسأل الله باسمه الأعظم..».

وقال الآخرُ: اللهمَّ إنه كـانتْ لى ابنةُ عمّ، وكنت أُحبها كأشـدّ ما يحب الرجالُ النساءَ، فـأردتُها على نفسـها فامتنعتْ مـنى، حتى ألمت بها سنةٌ من السنين فـجاءتْنى فأعطيتُـها عشرين ومائةَ دينار على أن تخلّى بينى وبين نفـسها، ففعلتْ، فمـا قعدتُ بين رجليْها قـالتْ: اتقِ اللهَ ولا تفضّ الخاتمَ إلا بحقه، فـانصرفتُ عنها وهى أحبّ الناسِ إلىّ وتركتُ الذهبَ الذى أعطيتُها، اللهمَّ إن كنتُ فـعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهكَ فافرجْ عنا ما نحنُ فيه، فانفرجتِ الصخرةُ غيرَ أنهم لا يستطيعونَ الخروجَ.

وقال الثالـث: اللهمَّ استأجرتُ أُجراء، وأعـطيتُهم أجرَهم غيـرَ رجلٍ واحدٍ تركَ الذى له وذهبَ، فثمرتُ أجـرُه حتى كثرتْ منه الأموالُ، فجاءنى بعـد حينٍ فقال: يا عـبـد الله أدِّ إلىّ أجـرى، فـقلتُ: كل مـا ترى من أجـركَ: من الإبل والبـقـر والغنمِ والرقـيق، فقال: يـا عبد اللـه لا تستهـزئ بى! فقـلت: لا أستهـزئ بك، فأخـذَه كلّه فاستـاقَه فلمْ يتركْ منه شيئًـا، اللهمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِك فـافرجْ عنا ما نحنُ فيه، فانفرجتِ الصخرةُ فخرجُوا يمشون»[1].

(١٥) أن يختـم بالصـلاة على النبى ﷺ، لقول عـمر رضى اللّه عنه: «الدعاء مـوقوف بين السمـاء والأرض لا يصعد منه شىء حـتى تصلّى على نبيك ﷺ»[2].

فإذا أخذ الداعى نفسه بهذه الآداب، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد، إلا إذا كانت هناك آفات تمنع قبوله.

---

(١) متفق عليه: خ (٣٤٦٥/٥٠٥ ، ٦/٥٠٦)، م (٢٧٤٣/٢٠٩٩ ، ٤/٢١٠٠)، د (٣٣٧١/ ٢٤٤/٩) مجملاً.

(٢) صحيح: ت (٤٨٤/٣٠٣/١).

ومن الآفات التى تمنع قبول الدعاء:

(١) غفلة القلب، وعدم إقباله على اللّه تعالى وجمعيته عليه وقت الدعاء: قال النبى ﷺ: «**ادعُوا اللهَ وأنتم موقنونَ بالإجابةِ، واعلَموا أن اللهَ لا يقبلُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ**»[١].

(٢) أن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء:

قال ﷺ: «**لا يزالُ يستجابُ للعبدِ ما لم يدعُ بإثمٍ أو قطيعةِ رحمٍ، ما لم يستعجل**». قيل: يا رسول اللّه، ما الاستعجال؟ قال: «**يقول قد دعوتُ وقد دعوتُ فلم أرَ يستجابُ لى فيستحسرُ عند ذلكَ ويدَع الدعاءَ**»[٢].

(٣) المعاصى، فالمعاصى تمنع قبول الدعاء، ولذا قال بعض السلف: لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طرقها بالمعاصى[٣].

ومن أعظم المعاصى:

أ - أكل الحرام:

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إنَّ اللهَ تعالَى طيّبٌ لا يقبلُ إلا طيباً، وإنَّ اللهَ تعالى أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ به المرسلين**» فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ [المؤمنون:٥١]. وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**

---

(١) سبق.

(٢) صحيح: م (٢٧٣٥ - ٩٢ -/٤/٢٠٩٦) وهذا لفظه رواية له، ورواه مجملاً: خ (٦٣٤٠/ ١٤٠/١١) ، م (٢٧٣٥/٢٠٩٥/٤)، جه (٣٨٥٣/١٢٦٦/٢)، ت (٣٦٧٧/ ٢٤٠/ ٥) بنحوه.

(٣) الجواب الكافى لابن القيم .

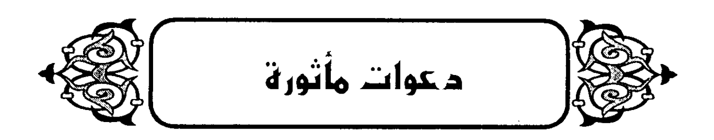
وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

ثم ذكر الرجلَ يطيل السفر أشعث أغبر، يمدّ يديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك؟!»[1].

ب - ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: عن حذيفة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ اللهُ أن يبعثَ عليكُم عقاباً منه، ثم تدعونَه فلا يستجابُ لكم»[2].

* * *

(١) صحيح: م (١٠١٥/١٠٣/٧/٢)، ت (٤٠٧٤/٢٨٨/٤).
(٢) حسن: ت (٢٢٥٩/٣١٦، ٣١٧/٣).



دعوات مأثورة

اعلموا إخـوة الإسلام أن العلماء يكرهون السـجع والتكلف فى الدعاء، ويستـحبون الدعـوات الجامعـة اقتداء بالرسـول عليه الصـلاة والسلام، ومن الدعوات الجامعة هذه الدعوات المأثورة من القرآن والسنة:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[آل عمران: ٥٣].

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى[(١)].

اللهم آت نفسى تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليّها ومولاها[(٢)]

اللهم اغفر لى وارحمنى واجبرنى وارفعنى واهدنى وارزقنى وعافنى[(٣)].

اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم[(٤)].

اللهم اغفر لى ذنبى كلّه، دقّه وجلّه، وأوّله وآخره، وسرّه وعلانيته[(٥)].

اللهم اغفر لى ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما

(١) صحيح : م (٢٧٢١/ ٢٠٨٧/ ٤) ، ت (٣٥٥٥/ ١٨٤/ ٥) .
(٢) صحيح : م (٢٧٢٢/ ٢٠٨٨/ ٤) ، نس (٢٦٠/ ٨) .
(٣) صحيح : ت (٢٨٣/ ١٧٥/ ١) د (٨٣٥/ ٨٧/ ٣) ، جه (٨٩٨/ ٢٩٠/ ١) .
(٤) متفق عليه : خ (٨٣٤/ ٣١٧/ ٢) ، م (٢٧٠٥/ ٢٠٧٨/ ٤) ، ت (٣٥٩١٢/ ٢٠١/ ٥) ، جه (٣٨٣٥/ ١٢٦١/ ٢) ، نس (٥٣/ ٣).
(٥) صحيح : م (٤٨٣/ ٣٥٠/ ١) ، د (٨٦٤/ ١٣١/ ٣) .

أسرفت، وما أنت أعلم به منى، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت[١].

اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير، واجعل الموت راحة لى من كل شر[٢].

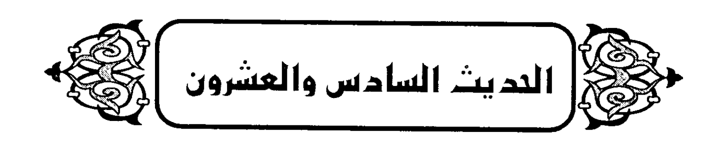
اللهم إنى أسـألك العافيـة فى الدنيا والآخـرة، اللهم إنى أسألك العـفو والعـافـية فى دينـى ودنياى، وأهلـى ومالى، اللـهم استـر عـوراتى، وآمن روعاتى، واحفظنى من بين يدىّ ومن خلفى، وعن يمـينى وعن شمالى ومن فوقى، اللهم إنى أعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتى[٣].

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن بـه علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحـييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عـادانا، ولا تجعل مصيبـتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا. ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا[٤].

اللهم إنى أسألك من خير ما سألك منه نبيّك محمد ﷺ، وأعوذ بك من شرّ ما استعـاذك منه نبيّك محمد ﷺ، وأنت المستعـان، وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه!

* * *

(١) صحيح :م (٧٧١/ ٥٣٤ـ٥٣٦/١) ، ت (٣٤٨١/ ١٤٩، ١٥٠/ ٥) ، د (٧٤٦/ ٤٦٣ ـ ٤٦٧/٢) .
(٢) صحيح : م (٢٧٢٠/ ٢٠٨٧/ ٤).
(٣) صحيح : ت (٣٥٦٩/ ١٨٩، ١٩٠/٥) .
(٤) حسن: ت (٣٥٦٩/ ١٨٩، ١٩٠/ ٥) .



الحديث السادس والعشرون

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ رضىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أصَابَ أحداً قط هَمٌّ وَلاَ حُزْنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إنّى عَبْدُكَ ابنُ عَبْدِك ابنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتى بيَدِكَ، مَاضٍ فِىَّ حُكْمُك، عَدْلٌ فِىَّ قَضَاؤكَ، أَسْأَلُكَ بكُلِّ اسمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بهِ نَفْسَك أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فى كِتَابكَ، أَو اسْتَأْثَرْتَ بهِ فى عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرآنَ رَبِيعَ قَلْبِى، وَنُورَ صَدْرِى، وَجَلاءَ حُزْنى، وَذَهَابَ هَمِّى، إلاَّ أَذْهَبَ الله هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وأبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحاً. قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله أَلاَ نَتَعلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِى لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»[1].

إن الدنيا دار الهموم والغموم والحزن والنصب، والهم والحزن يفتكان بالإنسان ويذهبان بصحته وعافيته، كما قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

---

(١) صحيح: أ (١٦٤/٢٦٢/١٤)، كم (٥٠٩/١)، حب (٢٣٧٢/٥٨٩) وانظر شرحه فى «الفوائد» لابن القيم (ص ٢١ - ٢٦).

أى ذهب بصره من شدّة حزنه على يوسف وأخيه. ولذا كان النبى ﷺ يستعيذ باللّه من الهمّ والحزن. والفرق بينهما: أن المكروه الوارد على القلب إن كان بسبب أمرٍ ماضٍ أحدث الحزن. وإن كان بسبب أمرٍ مستقبلٍ أحدث الهمّ. وإن كان بسبب أمرٍ حاضر أحدث الغمّ.

وذهاب الهمّ والحزن نعمة من أعظم نعم اللّه عز وجل. ولذا قال تعالى حكاية عن أهل الجنة لما دخلوها: ﴿**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وهذا الحديث حديث عظيم، أرشد فيه ﷺ أمته إلى الفرار إلى اللّه بالسؤال والدعاء والذكر عند حدوث الهم والحزن، ولا سيما هذا الدعاء.

وقد تضمن هذا الحديث أموراً من المعرفة والتوحيد والعبودية:

منها: أن الداعى به صدَّر سؤاله بقوله: «إنى عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك» وهذا يتضمن مَنْ فوقه من آبائه وأمهاته حتى ينتهى إلى أبويه آدم وحواء، وفى ذلك تملق له، وانكسار بين يديه، واعتراف بأنه مملوكه وآباءه مماليكه، وأن العبد ليس له غير باب سيّده وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلى عنه هلك ولم يؤوه أحد ولم يعطف عليه، بل يضيع أعظم ضيعة.

ومعنى هذا الاعتراف: أنى لا غنى بى عنك طرفة عين، وليس لى من أعوذ به وألوذ به غير سيدى الذى أنا عبده.

وفى ضمن ذلك: الاعتراف بأنه مربوب مدبّر، مأمور منهى، إنما

يتصرف بحكم العبودية لا بحكم الاختيار لنفسه، فليس هذا شأن العبد بل شأن الملوك والأحرار، وأما العبيد فتصرفهم على محض العبودية.

وفى التحقيق بمعنى قوله «إنى عبدك» التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة، وامتثال أمر سيّده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به، ولياذه به، وأن لا يتعلق قلبه بغيره محبةً وخوفاً ورجاءً.

وفيه أيضاً: أنى عبد من جميع الوجوه: صغيراً وكبيراً، حيًّا وميتًا، مطيعاً وعاصياً، معافىً ومبتلىً، بالروح والقلب، واللسان والجوارح.

وفيه أيضاً: أن مالى ونفسى ملك لك، فإن العبد وما ملك لسيّده.

وفيه أيضاً: أنك أنت الذى مننت علىّ بكل ما أنا فيه من نعمة، فذلك كلّه من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضاً: أنى لا أتصرف فيما خولتنى من مالى ونفسى إلا بأمرك، كما لايتصرف العبد إلا بإذن سيّده، وإنى لا أملك لنفسى ضرًّا ولا نفعًا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

فمن فهم هذه المعانى وشهدها فقد قال «إنى عبدك» حقيقة، وحُق له أن يعتز ويفخر بهذه العبودية، كما قال القائل:

ومما زادنى شرفاً وتيْهًا ... وكدت بأخمصى أطأ الثريّا

دخولى تحت قولك يا عبادى ... وأن صيّرت أحمد لى نبيّا

فإن فى العبودية للَّه كمال الحريّة، وفى الذلّ له كمال العزة، وفى الافتقار إليه كمال الغنى، وفى الخوف منه كمال الأمن.

ومعنى قوله: «**ناصيتى بيدك**» أى أنت المتصرف فىّ، تصرّفنى كيف تشاء، لست أنا المتصرف فى نفسى، وكيف يكون له تصرّف فى نفسه مَنْ نفسُه بيد ربّه وسيّده، وناصيته بيده، وقلبه بين أصبعين من أصابعه، وموته وحياته، وسعادته وشقاوته، وعافيته وبلاؤه، كلّه إليه سبحانه، ليس إلى العبد منه شىء، بل هو فى قبضة سيّده أضعف من مملوك ضعيف حقير ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره، بل الأمر فوق ذلك.

ومن علم أن ناصيته ونواصى العباد جميعاً بيد اللَّه وحده، يصرّفهم كيف يشاء لم يخشهم بعد ذلك ولم يرجهم، وصار فقره وضرورته إلى ربّه وصفاً لازماً له، ولم يفتقر إليهم، ولم يعلق أمله ورجاءه بهم، وحينئذ يستقيم توحيدُه وتوكله وعبوديتُه، ولهذا قال هودٌ عليه السلام لقومه: ﴿**إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [هود: ٥٦].

وقوله: «ماضٍ فىّ حكمك، عدلٌ فىّ قضاؤك» تضمن أمرين:

الأول: مضاء حكمه فى عبده.

والثانى: يتضمن حمده وعدله، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وهذا معنى قول نبيّه هود عليه السلام ﴿**مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا**﴾ ثم قال: ﴿**إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ أى مع كونه مالكاً قاهراً متصرّفاً فى عباده، نواصيهم بيده، فهو على صراط مستقيم، وهو العدل الذى يتصرف به فيهم، فهو على صراط مستقيم فى قوله وفعله، وقضائه وقدره، وأمره ونهيه، وثوابه وعقابه. فخبره كلّه صدق، وقضاؤه كلّه عدل، وأمره كلّه مصلحة، والذى نهى عنه كلّه مفسده، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته،

وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

وقوله: «عدلٌ فيّ قضاؤك» يتضمن جميع أقضيته فى عبده من كل الوجوه، من صحة وسقم، وغنًى وفقر، ولذّة وألم، وحياة وموت، وعقوبة وتجاوز، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ**﴾ [الشورى: ٤٨].

فكلّ ما يقضى على العبد فهو عدلٌ فيه.

وقوله: «أسألك بكل اسم هو لك.. إلخ» توسلٌ إليه بأسمائه كلّها، ما علم العبدُ منها وما لم يعلم، وهذه أحبّ الوسائل إليه، فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التى هى مدلول أسمائه، وقد قال تعالى: ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ويستفاد من قوله: «أو استأثرت به فى علم الغيب عندك» أن للّه عز وجل أسماء غير التسعة والتسعين المشهورة، والمذكورة فى قوله ﷺ: «**إنَّ للّه تعَالَى تسعةً وتسْعينَ اسْماً مَنْ حفظَهَا دَخلَ الجنةَ**»[1].

والمعنى: أسألك أن تجعل القرآن الكريم كالربيع الذى يرتع فيه الحيوان، وكذلك القرآن ربيع القلوب، والمراد أن يجعل قلبه مرتاحاً إلى القرآن، مائلاً إليه، راغباً فى تلاوته وتدبره، منوِّراً لبصيرته. فتضمن الدعاء أن يحيى قلبه بربيع القرآن، وأن ينوّر به صدره، فتجتمع له الحياة والنور، كما قال تعالى:

(١) متفق عليه: خ (٦٤١٠/ ٢١٤/ ١١)، م (٢٦٧٧/ ٢٠٦٢/ ٤).

﴿أَو مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الانعام: ١٢٢].

ولما كان الصدر أوسع من القلب كان النور الحاصل له يسرى منه إلى القلب لأنه قد حصل لما هو أوسع منه. ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسرى الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح سأل الحياة له بالربيع الذى هو مادتها. ولما كان الحزن والهم والغم يضادّ حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن الكريم، فإنها أحرى أن لا تعود، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا، أو جاه أو زوجة أو ولد فإنها تعود بذهاب ذلك. وهكذا علمنا النبى ﷺ أن القرآن الكريم هو ربيع القلوب ومادة حياتها، وقد نصّ على ذلك ربنا سبحانه فى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فالقرآن هو روح القلوب وحياتها، به تحيا، وبفقده تموت، كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الانعام: ١٢٢].

فعليكم بالقرآن يا أمة القرآن «**اقرءُوا القُرآنَ فإنَّه يأتى يَوْمَ القيامةِ شفيعاً لأصْحابِه**»(١).

اقرءوا القرآن وتدبروه، وأحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه، وعظموا حدوده، اقرءوا القرآن فإن قراءة القرآن قُربة من أعظم القُرب، وعبادة من أجلّ العبادات، يعطى اللَّه عليها من الأجر و الثواب ما لا يعطى على غيرها، وقد بيّن النبىّ ﷺ كثرة هذا الأجر بقوله: «**مَنْ قرأ حَرْفًا من كتابِ الله**

(١) صحيح: ت (٣٠٧٥/٢٤٨/٤).

فلهُ به حسنةٌ والحسَنَةُ بعَشرِ أمْثـالِها، لا أقولُ ألِف لاَم مِيم حَرْفٌ، ولَكِن ألِف حَرْف، لاَم حَرْف، ومِيم حَرْف»[١] .

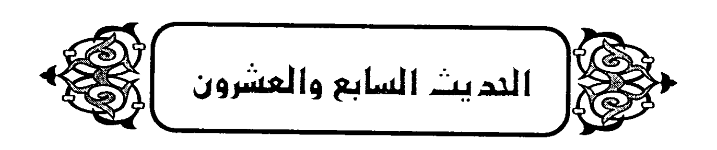
اقرءوا القرآن واجتـهدوا فى حفظه، فإن العبـد يتبوأ منزله فى الجنة على قدر ما فى صدره من القـرآن، كما قال النبى ﷺ: «**يُقالُ لصاحب القُـرآنَ اقْرأ وارْتَقِ ورتِّل كما كُنتَ ترتِّلُ فى الدُّنيا، فإنَّ منزلَتَكَ عند آخرِ آيةٍ تَقرؤُها**»[٢] .

وتعلّموا هذه الكلمات وادعوا بها دائماً، عسى اللّه أن يذهب عنكم الهمّ والحزن، ويبدلكم مكانه فرحاً وسروراً، كما وعدكم على لسان نبيه ﷺ.

اللهم أكرمنا بالقرآن وعـياً وعملاً، وذكرنا منه مـا نسينا، وعلمنا منه ما جهلنـا، وشفّعـه فينا، واجـعله حجة لنـا لا علينا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار لعلك ترضى عنا.

* * *

(١) صحيح: م (٨٠٤/٥٥٣/١) .
(٢) صحيح: ت (٣٠٨١/ ٢٥٠/٤)، د (١٤٥١/٣٣٨/٤).



الحديث السابع والعشرون

عن جابر بن عبد الله رضي اللَّهُ عنهما قال: كان رسولُ الله ﷺ يُعلِّمنا الاستخارة في الأُمور كُلِّها كما يعلِّمنا السورة من القرآن، يقولُ:

«إذا همَّ أحدُكم بالأمر فليركعْ ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهمَّ إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدرُ ولا أقدرُ، وتعلمُ ولا أعلمُ، وأنت علامُ الغيوب. اللَّهُمَّ إن كُنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمْر - وهُو كذا، ويُسمِّي حاجته - خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أوْ قال: عاجل أمري وآجله - فاقدُرهُ لي، ويسِّرهُ لي، ثُمَّ باركْ لي فيه. وإن كنتَ تعْلمُ أنَّ هذا الأمْر - وهُو كذا، ويُسمي حاجتهُ - شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمْري - أوْ قال: في عاجل أمْري وآجله - فاصْرِفهُ عنِّي واصرفني عنْهُ، واقدُر لي الخير حيْثُ كانَ، ثُمَّ رضني به»[1].

(١) صحيح: خ(٦٣٨٢/ ١٨٣/١١)، د (١٥٢٤/٣٩٦/٤)، ت (٤٧٨/٢٩٨/١)، جه (١٣٨٣/ ٤٤٠/١) ، نس (٨٠ و٨١/٦)

الاستخارة: طلب بيان خير الأمرين من الفعل أو الترك.

وكانوا في الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً أو غزواً أو زواجاً أو بيعاً، أو غير ذلك مما لا يعرف وجه الخير فيه، أتى أحد سدنة البيت وطلب منه أن يخرج له الأزلام، وهي قداح ثلاث: مكتوب على أحدها افعل، وعلى الثاني لا تفعل، والثالث غُفْل ليس عليه شيء. فيدير هذه الأزلام ويحركها، ثم يأخذ واحداً منها، فإن خرج المكتوب عليه افعل استبشر خيراً ومضى، وإن خرج لا تفعل استبشر شرًّا وقعد، وإن خرج الغُفْلُ الذي لا كتابة عليه أعاد الاستقسام.

وقد ثبت في الصحيح[1] أن سُراقة بن مالك لما خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر وهما مهاجران إلى المدينة قال: فاستقسمت بالأزلام هل أضرّهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، لا تضرّهم. قال: فعصيت الأزلام واتبعتهم، ثم استقسم بها ثانية وثالثة، كلّ ذلك يخرج الذي يكره: لا تضرّهم، وكان سُراقة لم يسلم بعد.

وثبت في الصحيح[2] «أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصوّرَيْن فيها وفي أيديهما الأزلام. فقال ﷺ: «**قاتَلَهم اللَّهُ، لقدْ علموا أنَّهما لم يستقْسما بها أبداً**».

فلما جاء الإسلام حرّم الاستقسام بالأزلام، وعدّه فسقًا، قال تعالى: **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ**

(١) صحيح: خ (٣٩٠٦/٢٣٨ و٧/٢٣٩).
(٢) صحيح: خ (١٦٠١/٤٦٨/٣)، د (٢٠١١/٦ و٦/٧).

وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقال النبىّ ﷺ: «**لنْ يلجَ الدرجاتِ العُلى مَن تكهَّن أو استقسمَ أو رجعَ من سفرٍ تطيُّرًا**»(١).

وإنما حرّم الإسلام الاستقسام بالأزلام لأنه من الخرافات والأوهام التى لا يركن إليها إلا من كان ضعيف العقل سيئ الرأى، يفعل ما يفعل من غير بينة ولا بصيرة، ويترك ما يترك من غير بينة ولا بصيرة، ويجعل نفسه ألعوبة للكهنة والسدنة، ويتفاءل ويتشاءم بما لا فأل فيه ولا شؤم، فلا غرو أن يبطل ذلك دين العقل والبصيرة والبرهان، كما أبطل التطير والكهانة والعيافة والعرافة وسائر خرافات الجاهلية.

إلا أنه مع الأسف ما زال فى المسلمين من يستقسم بالأزلام أو بما فى معناها، ويسمونها بغير اسمها، كمن يستقسم بالسُّبحة ويسمّى هذا الاستقسام استخارة، وذلك بأن يعدّوا حبات السُّبحة واحدة واحدة وهم يقولون: افعل لا تفعل، افعل لا تفعل، حتى تنتهى السُّبحة، فيكون الحكم الفصل للحبة الأخيرة، فإن كانت آخر حبة مع قوله: افعل، فعل، وإن كانت مع قوله: لا تفعل، لم يفعل(٢).

ومنهم من يأخذ الفأل من القرآن الكريم، وطريقتهم فى ذلك: أن يأتى أحدهم بالمصحف مغلقاً، ثم يقرأ: ﴿**قل هو اللَّه أحد**﴾ سبع مرات، ثم يقول ثلاث مرات: اللهم بكتابك تفاءلت، وعليك توكلت، اللهم أرنى فى كتابك

---

(١) صحيح: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» (٢١٦١) وقال. رواه: تمام فى «الفوائد» (٢٢٤/١رقم نسختى)، والحديث قال المنذرى (٥٣/٤)، وتبعه الهيثمى (١١٨/٥): «فرواه الطبرانى بإسنادين، رواة أحدهما ثقات».

(٢) مختصر تفسير المنار (٢٦٦ و٢٦٧/٢).

ما هو المكتوم من سرّك المكنون فى غيبك. ثم يفتح المصحف ويتفاءل بأول الصفحة[1].

ومنهم من يأخذ الفأل من ورق الكوتشينة، ومنهم من يأخذه من زهر الطاولة إلى آخر ذلك من عادات الجاهلية التى حرّمها الإسلام واستحلها المسلمون، وسمّوها بغير اسمها.

ولما كان الإنسان يتعرض ولابدّ لأمور يخفى عليه الخير والشر فيها، فيتردّد ويحتار فإن الإسلام وقد حرّم الاستقسام بالأزلام أرشد المسلم إلى الفرار إلى اللَّه بالدعاء والسؤال، ليزيل الحيرة، وييسّر له الخيرة، ويشرح صدره لها.

وكان النبىّ ﷺ يهتم بتعليم المسلمين الاستخارة كما يهتم بتعليمهم السورة من القرآن، مما يدل على شدّة الاعتناء بهذا الدعاء.

كما كان يرشدهم إلى الاستخارة فى الأمور كلّها، دِقّها وجلِّها، وفيه دليل على أنه لا يجوز للمرء أن يحتقر أمراً أو يستصغره، فيترك الاستخارة فيه، فيكون فى الإقدام عليه ضرر عظيم، أو يكون فى تركه خير كثير.

كان ﷺ **يقول:** «**إذا همّ أحدكم بالأمر**»: والهمّ أول وارد يخطر على القلب، وإنما أرشد النبى ﷺ إلى الاستخارة عند الهمّ ليكون القلب مجردًا من الهوى، مسلمًا حقيقة أمره للَّه، يوجهه لما يعلمه له من الخير. بخلاف الاستخارة بعد العزم، فربما فعل بعد الاستخارة ما استقر فى قلبه وركن إليه، وهو يظن أنه يفعل نتيجة الاستخارة.

(١) روح المعانى (٥٩/٦).

وقوله ﷺ: «**فليركع ركعتين من غير الفريضة**» فيه دليل على أن للاستخارة صلاة مستقلّة عن الفريضة ورواتبها.

وقوله ﷺ: «**ثم ليقل**» أى بعد الانصراف من الصلاة، أو بعد التشهد وقبل السـلام، وهو أولى، لأن النبىّ ﷺ إنما كان يدعو فى الصـلاة قبل السلام، وما كـان يدعو بعد الانصراف من الـصلاة. وكيف يترك سـؤال اللَّه ودعاءه وهو بين يديه يناجيه، حتى إذا انصرف من بين يديه أقبل يسأله ويدعوه!!

فالأولى أن يكون دعاء الاستخارة بعد التشهد وقبل السلام.

والحكمة فـى تقديم الصلاة علـى الدعاء أن المراد بالاستـخارة حـصول الجمع بـين خيرى الدنـيا والآخرة، وذلك يـحتاج إلى قـرع باب الملك، ولا شىء لذلك أنجع ولا أنجح من الصـلاة، لما فيـها من تعظيم اللَّه والثناء عـليه والافتقار إليه حالاً ومآلاً.

وقوله: «**اللهم إنى أستخيرك بعلمك**» أى أطلب منك بيان خير الأمرين من الفعل والترك بسبب علمك، فإنك تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب.

والمعنى: أطلب منك أن تشرح صـدرى لخير الأمـرين، بسبب علمك بكيفيات الأمور وجـزئياتها وكلياتها، إذ لا يحيط بخير الأمـرين على الحقيقة إلا من هو كذلك، كمـا قال تعالى: ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله: «**وأستقدرك بقدرتك**» أى: أطلب منك أن تجعل لى القدرة عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك.

وقوله: «**وأسـألك من فضلك العظيم**» فيه دليل على احـتياج الخلق كلهم إلى اللَّه عز وجل وافتقارهم جميعـاً إلى فضله وإحسانه، مهما عظموا، وأن

كل عطاء الربّ عز وجلّ فضل، وأنه ليس لأحدٍ عليه حق فى جلب نعمة، ولا فى رفع نقمة، فإن أعطى فمن فضله، وإن منع فمن عدله.

وقوله: «**فإنك تقدر ولا أقدر**» معناه: فإنك ياربّ تقدر بالقدرة الكاملة على كل شىء ممكن تعلقت به إرادتك، ولا أقدر أنا على شىء إلا بقدرتك وحولك وقوتك.

وقوله: «**وتعلم ولا أعلم**» معناه: إنك ياربّ تعلم بالعلم المحيط بجميع الأشياء، خيرها وشرّها، ولا أعلم أنا شيئاً منها إلا بإعلامك وإلهامك.

وفى ذلك إشارة إلى أن العلم والقدرة للَّه وحده، وأنه ليس للعبد من ذلك إلا ما قدره اللَّه له.

«**اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر وهو كذا، ويسمى حاجته**» بعينها، من سفرٍ أو نكاح، أو طلاق، أو بيع، أو شراء، أو نحو ذلك. «**خيرٌ لى فى دينى ودنياى وعاقبة أمرى وعاجله**» لأن الأمر قد يكون خيراً فى الدنيا دون الدين، أو فى العاجل دون الآجل، فسأل ربه أن يجمع له خيرى الدين والدنيا، والعاجل والآجل. «**فاقدره لى**» أى اجعله مقدوراً لى، «**ويسرّه لى، ثم بارك لى فيه**» أى أكثر الخير والبركة فيما أقدرتنى عليه ويسّرته لى.

«**وإن كنت تعلم أن هذا الأمر وهو كذا، ويسمى حاجته**» بعينها «**شرٌّ لى فى دينى ودنياى، وعاقبة أمرى وعاجله، فاصرفه عنى واصرفنى عنه**» فلم يكتف بسؤال صرف أحد الأمرين، وإنما طلب الأكمل من وجوه انصراف ما ليس فيه خير عنه. لأنه قد يصرف اللَّه المستخير عن ذلك الأمر بأن ينقطع طلبه له، وذلك الأمر يطلبه، فربما أدركه، وقد يصرف اللَّه عن المستخير ذلك

الأمر، ولا يصرف قلب العبد عنه، فيبقى القلب متشوفاً إلى حصوله، متطلعاً إليه، متعلقاً به، فلا يهدأ له بال، ولا يطمئن له خاطر، فإذا صرف كلاً منهما عن الآخر كان ذلك أهدأ للبال والخاطر. ثم سأل ربّه «**واقدر لى الخير حيث كان**» بعد أن تصرف عنى ما لا خير فيه، وتصرفنى عنه، «**ثم رضنى**» بما قدّرت لى وقسمت.

وهذا الحديث دليل على كمال شفقة النبى ﷺ ورحمته بأمته، وحرصه على تعليمهم جميع ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم.

وفيه دليل على أنه يجب على العبد أن يرد الأمور كلها إلى اللَّه، وأن يبرأ من حول نفسه وقوتها، وأن يستعين بحول اللَّه وقوته، فإنه لا حول ولا قوة إلا باللَّه العلى العظيم.

وما أحسن أن يترك العبد الاختيار لنفسه وتدبير أمرها، إلى من له الاختيار والتدبير.

وما أجمل أن يستشعر العبد أن تدبير اللَّه له خير من تدبيره لنفسه، وأن اختيار اللَّه له أحسن من اختياره لنفسه.

ما أجمل أن يستشعر العبد أن ربّه أنصح له من نفسه، وأرحم به من نفسه، وأبرّ به من نفسه، فيطرح نفسه بين يدى ربّه انطراح عبد مملوك ضعيف، بين يدى ملك عزيز قاهر، له التصرف فى عبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه.

فهنالك يطيب عيشه، وينعم قلبه، ويعظم سروره وفرحه، ويذهب همّه وغمّه.

فيا إخوة الإسلام: إن فى الاستخارة فى الأمور كلها خيراً عظيماً، فلا تتركوا الاستخارة فى أموركم كلها، ولا يقدمنّ أحدكم على فعلٍ حتى يستخير ربه، ولا يتركنّ أمراً حتى يستخير ربه.

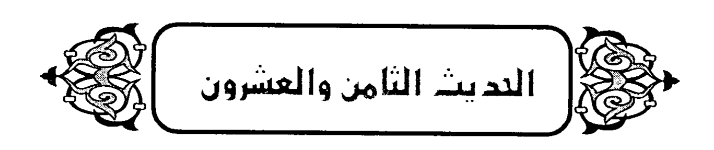
ولكن ما هى آثار الاستخارة؟ وهل لها تعلّق بالرؤى والأحلام؟

الجواب: أنه لم يرد فى السنة شىء من ذلك، فعلى العبد إذا استخار ربه أن ينظر فى صدره، فإن وجد انشراحاً فى صدره لهذا الأمر فليتوكل على اللَّه، وإن وجد ضيقاً وانقباضاً، أو لم يجد طلباً فى صدره لهذا الأمر، فليتركه.

وإن لم يجد انشراحاً ولا انقباضاً، فليأخذ فى الأسباب فإن يكن فى الأمر خير فستيسر أموره، وتذلل له الصعاب دونه، وإن تعسرت الأمور، وأغلقت الأبواب، فليس فى ذلك الأمر خير.

اللهم رضنا بما قسمت لنا حتى نعلم أنه لا يصيبنا إلا ما كتبت لنا.

* * *



الحديث الثامن والعشرون

عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

«سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها من النهار موقنا بها فمات قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»[1].

إن الاستغفار معناه طلب المغفرة، والمغفرة هى وقاية شرّ الذنوب مع سترها. وقد كثر فى القرآن الكريم ذكر الاستغفار:

فتارةً يُؤْمَرُ به، كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ...﴾ [هود: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [المزمل: ٢٠].

وتارةً يُمْدَحُ أَهْلُهُ، كما فى قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ

---

(١) صحيح: خ (٦٣٠٦/٩٧ و٩٨/١١)، نس (٢٧٩/٨)، ت (٣٤٥٣/١٣٥/٥). وانظر تلك الشروح.

فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وتارةً يُذكَرُ أن اللَّه يغفر لمن استغفره، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وكثيراً ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذٍ عبارةً عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارةً عن الإقلاع من الذنوب بالقلوب والجوارح.

وقد ورد فى فضل الاستغفار آياتٌ وأحاديثُ كثيرة:

فمن الآيات قوله تعالى على لسان نوحٍ عليه السلام:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١٢].

وقوله تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وقوله تعالى على لسان نبيّنا محمد ﷺ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]. ولهذا «خرج عمر رضى اللَّه عنه يستسقى فلم يزد على الاستغفار. فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء الذى يستنزل به المطر. ثم قرأ هذه الآيات»(١).

وعن الحسن البصرى رحمه اللَّه: أن رجلاً شكا إليه الجدب فقال: استغفر اللَّه. وشكا إليه آخر الفقر. فقال: استغفر اللَّه. وشكا إليه ثالث

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٢٥).

جفـاف بستانه. فـقال: استـغفر اللَّه. وشكـا إليه رابع عدم الولد. فـقال: استغفر اللَّه.

وأما الأحـاديث فى فضل الاسـتغـفار فمنهـا قـوله تعالى فـى الحديث القدسى:

«**يا عبادى إنكم تخطئون بالليلِ والنهارِ وأنا أغفرُ الذنوبَ جـميعاً فاسْتغفرونى أغفـرْ لكم**»[١]. وقوله سبحانه فى الحديث الآخر: «**ياابنَ آدمَ لو بلـغتْ ذنوبُك عنانَ السماءِ ثم استغفرتَنى غفرتُ لكَ**»[٢].

وعن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ:

«**إنَّ عبدًا أذنبَ ذنبًا، فقالَ: أى ربِّ! أذنبتُ ذنبًا فـاغفرْ لى فقالَ الربُّ سبحانَه: علمَ عبدِى أنَّ له ربًّا يغفرُ الذنبَ ويأخذُ بالذنبِ قد غفرتُ لعبدى، ثمَّ مكثَ ما شاءَ اللهُ، ثم أذنبَ ذنبًا، فقال: أى ربِّ! أذنبتُ ذنبًا فاغـفرْ لى، فقالَ الربُّ سبحانَه: علمَ عبدِى أنَّ له ربًّا يغفرُ الذنب ويأخذُ بالذنبِ قد غفرتُ لعبدِى، ثمَّ مكثَ ما شاءَ اللهُ، ثمَّ أذنبَ ذنبًا، فقالَ: أى ربِّ! أذنبتُ ذنبًا فاغفرْلى. فقال الربُّ سبحانَه: علمَ عبدى أنَّ له ربًّا يغفرُ الذنبَ ويأخذُ بالذنبِ، قد غفرتُ لعبدِى فليفعلْ عبدى ما يشاءُ**»[٣].

والمعنـى: ما دام كلما أذنب اسـتغفر غفرت له ما دام صـادقاً فى توبته وقوله: أستغفر اللَّه، بحيث يقولهـا من كلّ قلبه، ويعزم عزماً أكيداً على أن لا يعود، فإن عاد واستغفر غفر اللَّه له.

فـيا إخـوة الإسـلام: عليكم بالاستـغفار، أكثـروا منه فى بيوتكم، على

(١) صحيح: م (٢٥٧٧/ ١٩٩٤/ ٤).
(٢) صحيح: ت (٣٦٠٨/٢٠٨/٥).
(٣) متفق عليه: خ (٧٥٠٧/ ٤٦٦/ ١٣)، م (٢٧٥٨/ ٢١١٢/ ٤).

موائدكم وعلى فرشكم، وفى طرقكم وأسواقكم وأينما كنتم، فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة. ولذا قال لقمان لابنه: يا بنىّ عوّد لسانك اللهم اغفر لى، فإن للَّه ساعات لا يردّ فيها سائلاً. ولذا كان النبىّ ﷺ يكثر من الاستغفار وكان يقول: «**والله إنِّى لأستغفرُ اللَّهَ وأتوبُ إليه فى اليومِ أكثرَ من سبعينَ مرةً**»[٤].

وكان يُعدّ له فى المجلس الواحد: «**ربِّ اغفرْ لى وتُبْ علىَّ إنَّك أنتَ التوابُ الرحيمُ**» مائة مرة[١].

وكان ﷺ يقول: «**طُوبى لمن وجدَ فى صحيفته استغفاراً كثيراً**»[٢].

وأفضل أنواع الاستغفار: أن يبدأ العبد بالثناء على ربّه، ثم يثنى بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل اللَّه المغفرة، كما فى حديث شداد بن أوس رضى اللَّه عنه عن النبىّ ﷺ أنه قال: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد. اللهم أنت ربى .إلخ** ».

قال الطيبى: لما كان هذا الدعاءُ جامعاً لمعانى التوبة كلّها استُعير له اسم السيّد، وهو فى الأصل الرئيس الذى يُقصد فى الحوائج ويُرجع إليه فى الأمور.

وقوله: «**اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت خلقتنى**» اعترافٌ بربوبية اللَّه وألوهيته، فأنت ربّى خلقتنى، ليس لى ربّ غيرك، ولا خالق سواك، وأنت معبودى وحدك ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ [الفاتحة: ٥].

وقوله: «**وأنا عبدك**» فيه التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة،

---

(٤) صحيح: خ (٦٣٠٧/١٠١/١١).
(١) صحيح: د (١٥٠٢/٣٧٩ و ٣٨٠/٤)، جه (٣٨١٤/١٢٥٣/٢).
(٢) صحيح: جه (٣٨١٨/١٢٥٤/٢).

وامتثال أمر سيّده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه.

وفيه أنى عبدٌ من جميع الوجوه: صغيراً وكبيراً، حيًّا وميتاً، مطيعاً وعاصياً، معافىً ومبتلىً. وفيه أن مالى ونفسى ملكٌ لك. وأنت الذى مننت علىّ بكل ما أنا فيه من نعمة، وأنى لا أملك لنفسى خيراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

وقوله: «**وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت**» قال الخطابى: يريد أنا على ما عاهدتك عليه وواعدتك من الإيمان بك، وإخلاص الطاعة لك ما استطعت من ذلك. ويحتمل أن يريد: أنا مقيمٌ على ما عهدت إلىّ من أمرك، ومتمسكٌ به، ومنتجزٌ وعدك فى المثوبة والأجر.

وقال ابن بطال «وأنا على عهدك ووعدك» يريد العهد الذى أخذه اللَّه على عباده حيث أخرجهم أمثال الذرّ وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم، فأقروا له بالربوبية وأذعنوا له بالوحدانية. وبالوعد ما قال على لسان نبيّه ﷺ أن «**مَن ماتَ لا يشركُ باللَّه شيئاً دخلَ الجنةَ**»[1].

وفى قوله ﷺ: «**ما استطعت**» إعلام لأمته أن أحداً لا يقدر على الإتيان بجميع ما يجب عليه للَّه، ولا الوفاء بكمال الطاعات والشكر على النعم، فرفق اللَّه بعباده فلم يكلفهم من ذلك إلا وسعهم.

وقوله: «**أبوء لك بنعمتك علىّ**» أى أعترف بأن ما بى من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك. وقوله: «**وأبوء بذنبى**» أى أعترف وأقرّ بما ارتكبت من الذنوب والخطايا، ومنها عدم قيامى بشكرك على نعمك.

وقوله «**فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**». هذا الاعتراف الثانى بعد

---

(١) صحيح: م (٩٣/ ٩٤/ ١).

الاعتراف الأول من موجبات المغفرة، كما قال النبى ﷺ: **«إن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب اللَّه عليه»**[١].

وقوله ﷺ: **«من قالها من النهار موقناً بها فمات قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»**. فيه الإشارة إلى ضرورة تعلم هذه الكلمات، وقولها صباحاً ومساءً.

قال ابن أبى جمرة: جمع النبى ﷺ فى هذا الحديث من بديع المعانى وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى «سيد الاستغفار»، ففيه الإقرار للَّه وحده بالإلهية والعبودية، والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذى أخذه عليه والرجاء بما وعده، والاستعاذة من شرّ ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعماء إلى موجودها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته فى المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر أحدٌ على ذلك إلا هو.

إخوة الإسلام: إن الاستغفار لا يحتاجه العصاة وحدهم، بل أهل الطاعة محتاجون أيضاً إلى كثرة الاستغفار، لأن التقصير لابد أن يحصل فى العبادة، فينبغى للعابد أن يجبر هذا التقصير بالاستغفار عند الفراغ من العبادة. ولذا شُرع الاستغفار عقب الطاعات: فشُرع للمتوضىء إذا فرغ أن يقول: اللهم اجعلنى من التّوابين واجعلنى من المتطهرين[٢].

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك[٣].

---

(١) صحيح: هذا جزء من حديث عائشة الطويل فى قصة الإفك، رواه: خ (٢٦٦١/٢٦٩ - ٥/٢٧٢)، م (٢١٢٩/٢٧٧٠ - ٢١٣٧/٤).

(٢) صحيح: ت (٥٥/٣٨/١).

(٣) صحيح: كم (١/٥٦٤).

وشُرع للمصلى إذا انصرف من صلاته أن يقول: استغفر اللَّه، استغفر اللَّه، استغفر اللَّه[1].

وشُرع للحجاج إذا أفاضوا أن يستغفروا اللَّه، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٩].

ولقد وعى المتقون ذلك، فكانوا يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً، حتى إذا كان السحر جلسوا يستغفرون اللَّه، فمدحهم اللَّه على ذلك، وآتاهم من النعيم ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥-١٨].

فأكثروا ـ عباد اللَّه ـ من الاستغفار، واعلموا أن المسلم مطالب بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات كما هو مطالب بالاستغفار لنفسه، اقتداءً بالملائكة المقربين، والنبيين المرسلين، وعباد اللَّه الصالحين. فإن اللَّه تعالى قال عن الملائكة المقربين: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ [غافر: ٧].

وحكى تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ...﴾ [نوح: ٢٨].

وحكى سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ

---

(١) صحيح: م (١/٤١٤/٥٩١)، ت (١/١٨٤/٢٩٩)، د (٤/٣٧٧/١٤٩٩)، جه (٩٢٨/١/٣٠٠)، نس (٣/٦٨).

وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وأمر سبحانه نبيّنا محمداً ﷺ بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ...﴾ [الحشر: ١٠].

فعلى المسلم أن يشرك إخوانه المسلمين فى استغفاره وله على ذلك أجرٌ عظيم، بيّنه النبيُّ ﷺ بقوله: «مَن استغفرَ للمؤمنينَ والمؤمناتِ كتبَ اللَّهُ له بكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ حسنةً»[1].

وأَوْلى المؤمنين بالاستغفار الوالدان تأسياً بالأنبياء، وطاعةً للَّه عز وجل حيث قال: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٤].

وقد أخبر النبيّ ﷺ أن الاستغفار للوالدين ينفعهما فقال: «إنَّ الرجلَ لترفعُ درجتُه فى الجنة، فيقولُ: يارِبِّ! أنَّى هذا؟ فيقولُ: باستغفارِ ولدِكَ لك»[2].

(ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب).

❊ ❊ ❊

---

(١) حسن: قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٢١٣/ ١٠): رواه الطبرانى، وإسناده جيد. اهـ. وحسّنه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٥٩٠٢).

(٢) حسن: جه (٣٦٦٠/١٢٠٧/ ٢).



عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء ، فقال لهم : ما هذا اليوم الذى تصومونه ؟ فقالوا : هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه ، وغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكرا فنحن نصومه . فقال ﷺ : « فنحن أحق وأولى بموسى منكم » ، فصامه ﷺ وأمر بصيامه »[1] .

إن نصر اللَّه لأوليائه فى كل زمان ومكان انتصار للحق، وإذلال للباطل، ونعمة على المؤمنين إلى يوم الدين، يفرحون بنصر اللَّه وينعمون به بالاً.

وفى شهر اللَّه المحرم، وفى اليوم العاشر منه على التحديد نصر اللَّه موسى والمسلمين معه وأغرق فرعون وملأه، كما صرح بذلك الحديث. وإنجاء اللَّه موسى والمسلمين، وإغراقه فرعون والكافرين نعمة توجب الشكر على المؤمنين، ولذا قال النبى ﷺ لليهود: «**نحنُ أحقُّ بموسَى منكُم**»، فصامَ يومَ

(١) متفق عليه: خ (٦/٤٢٨/٢٣٩٧)، م (١١٣٠ - ١٢٨ -/٢/٧٩٦) واللفظ له، جه (١/٥٥٢/١٧٣٤).

عاشوراء وأمر بصيامه»، وقال: «**إنِّى أحسبُ على الله أنْ يكفرَ السنةَ التى قبلَه**»[١].

وفى قصة موسى وفرعون دروس وعبر كثيرة جدًّا، ولهذا ذُكرت فى القرآن أكثر من غيرها، وكان النبى ﷺ إذا أوذى قال: «**يرحَم اللَّهُ موسَى، قد أوذىَ بأكثرَ من هذا فصبرَ**»[٢] من أجل ذلك رأينا بمناسبة هذه الأيام أن نذكر بما كان من موسى وفرعون فى مثل هذا اليوم.

فنقول وباللَّه التوفيق:

دخل يعقوب عليه السلام - وهو المسمى بإسرائيل - مصر مع بنيه بطلب من ولده يوسف عليه السلام حين ولى وزارة مصر، وكانوا أفراداً معدودين، فآواهم يوسف عليه السلام وقال لهم: ﴿ **ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾ [يوسف: ٩٩].

ولمكانة يوسف عند الملك أكرم الملك أبويه وإخوانه وأهله، وأحسن مثواهم، ومكّن لهم فى الأرض، حتى ولاّهم مناصب عالية فيها.

ومضت السنون، وكثر بنو إسرائيل فى مصر وزاد عددهم، وبدأ الفراعنة يحسدونهم على ما وصلوا إليه فى البلاد من مناصب مع غربتهم، وبدءوا يقلقون بسبب وجود بنى إسرائيل فى مصر، فأخذوا يعزلونهم عن المناصب والولايات.

وحدث أن رأى فرعون رؤيا، فسّرت له بأن هلاكه وذهاب ملكه سيكون على يد غلام يولد من بنى إسرائيل، فاستشاط غضباً، وأصدر أوامره بذبح كل مولود ذكر من بنى إسرائيل، وأخذ يستخدم كبار رجالهم ونسائهم فى

---

(١) صحيح: م (٢/٨١٨/١١٦٢)، ت (٢/١٢٦/٧٤٩)، جه (١/٥٥٣/١٧٣٨).
(٢) متفق عليه: خ (٨/٥٥/٤٣٣٦)، م (٢/٧٣٩/١٠٦٢).

الأعمال الشـاقة وفى ذلك يقول ربنا سـبحانه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

ولكن اللَّه تعالى يريد غير ما يريد فرعون، ويقدّر غير ما يقدّر الطاغية، والطغاة البـغاة تخدعهم قوتـهم وسطوتهم وحيلتهم فينســون إرادة اللَّه تعالى وتقديره، ويحسبون أنهم يختارون لأنفـسهم ما يحبون، ويختارون لأعدائهم مـا يشـــاءون، ويظنون أنهم عـلى هذا وذاك قـادرون. واللَّه يـعلن إرادته، ويكشف عن تقـديره، ويتحـدى فرعون وهـامان وجنودهمـا بأن احتيـاطهم وحذرهم لن يجديهم قـتيلا: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

ويولد موسى عليه السـلام فى هذه الظروف، والخطر محدق به، والموت يتلفت عليه، وتحـتار أمه، وترجف خشيـة أن تتناول عنقه السّكين، ويوحى إليـها ربهـا: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ [طه: ٣٩].

وهذا منتهى التحدى.

لقد أعلنت الطوارئ، وصـدرت الأوامر بذبح المواليد المساكـين، تخوّفاً من واحد سـيكون هلاك فرعـون على يده، وإذا بالقـدرة الإلهية تحـمل هذا الغلام نفســه إلى فرعون، مجرداً من كلّ قوة ومن كلّ حـيلة، عاجزاً عن أن يدفع عن نفـسه أو حتى يستنجد، وكـأنها تقـول له: يا فرعـون! لا تتعب نفسك فى البحث عن هذا الغلام الذى سـيكون ذهاب ملكك على يده، فها

هو ذا بين يديك، فإن كان لك كيد أو تدبير فاصنع ما تريد.

وإذا بفرعون نفسه يبحث لموسى عن المراضع، ويأتيه بهنّ واحدة بعد الأخرى حتى آل إلى أمه ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

ويُربى موسى فى قصر فرعون تحت رعايته وإشرافه، وفرعون يوفّر له كل احتياجاته ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨].

وتنتهى مدّة الرضاع وفترة الصبى، ويبلغ موسى أشدّه، ويستوى عوده، ويكتمل نضجه العضوى والعقلى، فيؤتيه اللَّه حكماً وعلماً، وبينما موسى يتجول فى المدينة فى وقت الظهيرة حين تغفوا العيون ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]

فأجمعوا أمرهم ليقتلنه، فنصحه ناصح بالخروج من البلاد ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]

حتى دخل مدين ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٣-٢٨].

وقضى موسى أبرّ الأجلين وأوفاهما، ثم استأذن صهره فى الرجوع إلى مصر! مصرَ التى قتل فيها رجلاً بالأمس! مصرَ التى خرج منها خائفاً يترقب! تُرى هل نسى ما كان منه؟ هل نسى أن لهم عنده ثأراً ؟ إنها إرادة اللَّه! إنه القدر الذى ذكّر به اللَّه موسى حين قال له: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٠].

وفى الطريق اشتد البرد، وفقد النار، وضلّ الطريق، وبينما هو فى هذه الظروف القاسية ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

فأتى موسى هذه النار فإذا هى نور عظيم، وعندها خير كثير: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١١-١٤]

وبهذا نبئ موسى، وأُرسل حين قال له ربه: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤]

وموسى يعرف من هو فرعون فسأل اللَّه العون: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾

وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٥ـ٣٠].

فقال اللَّه له: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾

[طه: ٤٢ـ٤٤].

فالقول اللين لايثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذى يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان.

وإذا كان موسى هو النبى المعصوم المؤيد بقوة السماء مأموراً بالقول الليّن، فما بال غير المعصومين وغير المؤيّدين يغلظون القول، ويقسون على المدعوين، أهم خيرٌ أم موسى؟ وهل من يدعونهم شرٌّ من فرعون؟

فرفقاً بالناس معشر الدعاة! فـ«ما كانَ الرفقُ فى شىءٍ إلا زانَهُ، ولا نزعَ من شىءٍ إلا شانَه»[1]، و«مَن يُحرمُ الرفقَ فقد حُرِمَ الخيرَ كلَّه»[2].

أما قرأتم وسمعتم قول اللَّه تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يا معشر الدعاة! إن الكلمة الطيبة تكثّر أتباعكم، وإن الكلمة النابية تفرّقهم من حولكم. فكم من عدوّ لدود صار صديقاً حميماً بكلمة طيبة؟! وكم من صديق حميم صار عدوًّا لدودًا بكلمة نابية؟! فلينوا أقوالكم، واخفضوا لأتباعكم أجنحتكم، ويسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا.

ويأخذ موسى أخاه هارون ويتوجهان إلى فرعون، ويبدأ موسى الكلام

(١) صحيح: م (٢٥٩٤/٢٠٠٤/٤)، د (٢٤٦١/١٥٥/٧).
(٢) صحيح: م (٢٥٩٢/٢٠٠٣/٤)، د (٤٧٨٨/١٦٤/١٣).

فيقول لفرعون: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦]

هكذا من أول لحظة، ليشعر فرعون أنه ليس ربًّا ولا إلهاً، وأنه مربوب لربِّ العالمين الذى يجب أن يتخذه إلهاً يعبده.

ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجهه بهذه الدعوى الضخمة: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧].

فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيباً فى قصره منذ أن التقطوا تابوته، وأنه هرب بعد قتله للقبطى. فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التى يواجهه بها بعد عشر سنين، ومنْ ثَمّ بدأ فرعون متهكماً مستهزئا مستعجباً: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩]

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التى لقيتها عندنا؟ بأن تأتى اليوم لتخالف ديننا ولتخرج على الملك الذى نشأت فى بيته، وتدعو إلى إله غيره؟! ولقد قتلت نفساً بالأمس وأنت من الكافرين بربّ العالمين الذى تقول به اليوم؟! فما الذى حدث؟!

ويردّ موسى فى ثبات وثقة وطلاقة لسان:
﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾
[الشعراء: ٢٠-٢٢].

وعندئذ عدل فرعون عن هذه المسألة، وراح يسأله عن صميم دعواه، ولكن فى تجاهل وهزء وسوء أدب فى حق اللّه الكريم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٢٣-٣٠].

فسقط فـي يده، ورأى أنه لابد أن يستمع لبرهانه، فـوحد فطلب منه أن يأتي بالدليل: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣١، ٣٣].

وأحسّ فرعون بضخامة المعجزة وقوتها، فأسرع يقاومها ويدفعها وهو يحسّ ضعف موقفه، ويكاد يتملق الملأ من حوله، ويهيج مخاوفهم من موسى وقوله، ليغطي على وقع المعجزة المزلزلة: ﴿قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ [الشعراء: ٣٤-٣٥].

فأشاروا عليه أن يأخذ من موسى موعداً يجتمع فيه السحرة من كل مكان، ويقابلون سحر موسى بسحرهم، فمن غلب اتبعوه، والأمر مفصول فيه أن السحرة هم الغالبون، فخيب اللَّه سعيهم، وأبطل كيدهم، وجعل نبيه موسى هو الأعلى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٨].

فجُنّ جنون فرعون وأخذ يهدّد ويتوعد، ولكن بشاشة الإيمان إذا خالطت القلب لم يعبأ بأية تهديد، ولذا قال المؤمنون كلمتهم بكل جرأة وثبات: ﴿قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠].

لا ضير فى تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف، لا ضير فى التصليب والتعذيب، لا ضير فى الموت والاستشهاد، لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون، وليكن فى هذه الأرض ما يكون، فالمطمع الذى نتعلق به ونرجوه أن يغفر لنا ربنا خطايانا جزاء أن كنا أول المؤمنين.

وهنا تدخل الملأ أهل الأهواء والمصالح والمطامع، تدخلوا ليهيجوا فرعون على موسى ومن معه، ويخوفونه عاقبة التهاون فى أمرهم، فطمأنهم فرعون بأنه سيحكم القبضة، ويعيد العمل بقانون الطوارىء، فيقتل الذكران ويستحى النساء.

وأخذ موسى يعظ قومه وينصحهم بالصبر حتى يأتى أمر اللَّه، فـ ﴿ **قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ومضى فرعون وملؤه فى جبروتهم، ومضى موسى وقومه يتحملون العذاب، ويرجون فرج اللَّه، وعندئذ تدخلت القدرة الإلهية فأخذت آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون، ثم جاءت الإنذارات تترا ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ثم أعلنوها صريحة: ﴿**وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وأدرك موسى أن لا فائدة ترجى من القوم، وأنهم مصرون على الكفر والفساد فى الأرض ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ** ﴾ [الدخان: ٢٢].

فأوحى اللَّه إليه أن ﴿ **فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ** ﴾ [الدخان: ٢٣].

فإذا عبرت أنت ومن معك فاترك البحر رهواً أى ساكناً كما هو إغراءً لفرعون بالعبور، فإنهم قوم مغرقون.

وفى الليلة الموعودة خرج موسى ببنى إسرائيل، وعلم فرعون بخروجهم فجمع الجموع وخرج فى طلبهم

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٠ـ٦٣]

أى كالجبل العظيم، وصار البحر اثنى عشر طريقاً لكل سبط طريق، وأمر اللّه الريح فنشفت أرضه، وهذا هو قوله تعالى: ﴿فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً﴾ [طه: ٧٧]

وتخرّق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم غيرهم فيطمئنوا عليهم.

وجاوز بنو إسرائيل، فلما خرج آخرهم كان فرعون قد انتهى إلى شاطىء البحر، فوقف متردّداً أيعبر خلفهم أم يرجع وقد كُفيهم؟ فجاء جبريل عليه السلام على فرسٍ فمرّ إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها واقتحم جبريل فاقتحم فرعون وراءه، وميكائيل فى ساقتهم[١] لا يترك منهم أحداً إلا أقحمه، حتى إذا أدركوا فى البحر جميعاً جاءهم الموج من كل مكان وجعل يرفعهم ويخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وجاءته سكرة الموت

---

(١) الساقة : مؤخرة الجيش.

فنادى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

فقيل له: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«قالَ لى جبريلُ: لو رأيتنى وأنا آخذُ من حالِ البحرِ فأدُسّه فى فِى فرعون، مخافة أن تدركه الرحمة»[1]

وهكذا أنجى اللَّه موسى والمسلمين، وأغرق فرعون والكافرين: ﴿تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٧، ٦٨].

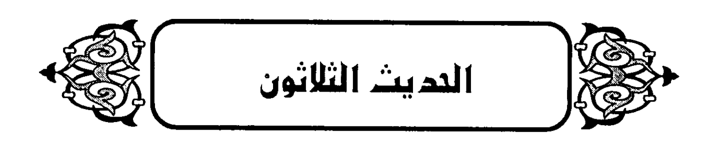
﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]

فهنيئاً للصابرين: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

* * *

---

(١) صحيح: ت(٥١٠٧/ ٢٥٠/ ٤). وحال البحر: طينها الأسود المنتن.



الحديث الثلاثون

عَنْ أَبِى هُرَيْرةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «مَا مِن الأَنْبِيَاء نبى إلاَّ أُعْطِىَ مِنَ الآيَات مَا مثْلهُ آمَنَ عَلَيْه الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَذى أُوتيتُهُ وَحْياً أَوْحَاهُ الله إلىَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرهُمْ تَابعاً يَوْمَ الْقيَامَة»[1].

أفاد هذا الحديث أن النبىّ لابدّ له من معجزة تقتضى إيمان مَنْ شاهدها بصدقه، ولا يضرّه مَنْ أصرّ على المعاندة.

والمعنى: أن كل نبىّ أُعطى آيةً أو أكثر مِنْ شأن مَنْ شاهدها من البشر أن يؤمن بذلك مغلوباً عليه، بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه، لكن قد يجحد فيعاند، كما قال تعالى: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾** [النمل: ١٤].

وقوله ﷺ: «وإنَّما كانَ الَّذى أوتيتُه وحياً أوحاهُ اللَّهُ إلىّ» يعنى أن معجزتى التى تحدّيت بها الوحىُ الذى أُنزل علىّ، لأن كلّ نبىّ أُعطى معجزة خاصةً به لم يعطها بعينها غيره، وتحدّى بها قومه. وكانت معجزة كل نبىّ تقع مناسبةً

(١) **صحيح**: خ (٤٩٨١/٣/٩)، م (١٥٢/ ١٣٤/ ١).

لحال قـومه، كما كـان السحر فاشـياً عند فرعـون فجاء موسى عليـه السلام بالعصا على صـورة ما يصنع السحرة لكنها تلـقف ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعـينه لغيـره. وكـذلك إحيـاء عـيسى عليـه السـلام الموتى، وإبراء الأكمـه والأبرص، لكون الأطباء والحكماء كانوا فـى ذلك الزمان فـى غاية الظهور، فأتاهـم مـن جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه.

ولهذا لما كان العـرب الذين بعث فيهم النبىّ ﷺ فى الغاية من البـلاغة جاءهم بالقرآن الذى تحداهم أن يأتوا بسـورة من مثله فلم يقدروا على ذلك، والقرآن لم يؤت أحدٌ قبله مثله، وهو باقٍ بإعـجازه إلى يوم القيامة، بخلاف معجزات مَنْ قبله فإنها قد انقرضت.

ولذا قال ﷺ: «**فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**».

والمعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالتحدّى، سالمٌ عن المعارضة. وهى مختـصة بالأنبياء وحدهم، فمن ادعـاها من غيرهم فهو كـاذب. وفرقٌ بينها وبين الكرامة. يقـول الفيروزآبـادى: المعجزة مـختصة بـالنبى دائماً، ووقت إظهارها مردّد بين الجواز والوجوب، وتُقـرن بالتحدى، وتحصل بالدعاء، ولا تكون ثمرة المعاملات المرضية، ولا يمكن تحصيلها بالكسب والجهد.

وأما الكرامـة فمـوقوفة على الـولىّ، ويكون كتمـانها واجـباً، وإن أراد إظهارها وإشاعتها زالت وبطلت.

وقد تحدثنا قـبل عن الولاية والأولياء وثبوت كرامـاتهم، ومن تمام القول أن نقول هنا: أن الكرامة لا تبلغ درجة المعجـزة، ولا يُراد بها التحدى، وقد تكون للولىّ كرامـات عدّة، كما تكون لـلنبىّ معجزات عـدّة كذلك. والنبىّ يؤمر بإظهـار معجـزاته لأنها من الوحى، خلافـاً للولىّ فإنه إن قصـد إظهار

الكرامة عوقب بحرمانها، أما إن ظهرت من غير قصد فيكون للَّه حكمة فى ظهورها، وعلى صاحبها أن لا يغتر بظهورها، فربما كان ذلك ابتلاء من اللَّه له فيوقع نفسه فى مهلكة الحرمان.

وقد حاز النبىّ ﷺ قصب السبق من الأنبياء بمعجزاته، كما حازه بتفضيله الذاتىّ عليهم جميعاً، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء. ولم يكن النبى ﷺ نبيًا بالمعجزات بل كانت به المعجزات. فهو رسول اللَّه إلى خلقه، وأمينه على وحيه، وهذا كافٍ فى بلوغه المنزلة التى لا يطمع فى بلوغها بشر، ويقصر عن التطلع إليها العقل والبصر، غير أنه كان فضلاً من اللَّه عليه أن آتاه من الآيات البينات والدلائل الظاهرات ما يكفى فى إقناع المعاندين المنكرين أنه رسول يُوحى إليه من ربه.

وقد اجتمعت معجزات الأنبياء جميعاً بين يديه صلوات اللَّه وسلامه عليه، مدوّنة فى أفضل معجزاته وأكملها، وأجلّها وأعظمها، وهى القرآن الكريم، فأظلّها بظلّه إعجازه القاهر بنظمه ومعناه ولفظه، فكان معجزة المعجزات، وآيةَ الآيات، يُدْرِك ولا يُدْرَك، ويَغْلِبُ ولا يُغْلَب، ويَنالُ ولا يُنال، ليس كمثله شىء، لا يأتيه الباطل، ولا يعتريه التبديل، يأتى يوم القيامة شاهداً ومشهوداً.

يقول الفيروزآبادى: ومذهب أهل السنة أن القرآن معجزة من جميع الوجوه: نظماً ومعنىً ولفظاً، لا يشبهه شىء من كلام المخلوقين أصلاً، مميز عن خُطب الخطباء، وشعر الشعراء، باثنى عشر معنى، لو لم يكن للقرآن غير معنى واحد من تلك المعانى لكان معجزاً، فكيف إذا اجتمعت فيه جميعاً؟! ومجملها: إيجاز اللفظ، وتشبيه الشىءِ بالشىءِ، واستعارة المعانى

البديعة، وتلاؤم الحروف والكلمـات، والفواصل والمقاطع والآيات، وتجانس الصيغ والألفـاظ، وتعريف القصص والأحوال، وتضمـين الحكم والأسرار، والمبالغة فى الأمر والنهى، وحسن بيان المقـاصد والأغراض، وتمهيد المصالح والأسباب، والإخـبار عما كان وعـما يكون. وكلّ من ذكر شيـئاً من وجوه الإعجاز ليس من هذه فمردّه إليها، فهـى جماع الإعجاز فى القرآن. وحينما كان الكفار يلبِّسـون بمنطق الحق الذى يواجههم به النبى ﷺ ولا يجـدون فى مستودع فصاحتـهم ما يقدرون به على الردّ عليه يقولون له: ما أنت بأهلٍ لما تدّعيه!

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]

ويطلبـون منه أن يأتيهم بآية بينة على صـدق دعواه ليـؤمنوا به ويتبـعوه ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [سراء: ٩٠، ٩٣].

فـما يكون جـوابه ﷺ إلا أن يقـول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣].

ثم يفضح القـرآن ما يسرون من الجحـود والإصرار على الكفر فيـقول: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥]

ويأمر اللَّه نبيّه أن يعلمهم أن الأمر فى هذه الآيات بيد اللَّه وحده، وأنهم لن يؤمنوا بـهـا إن بدتْ لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨].

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].

﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨].

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

قال أبو جعفر الطبرى[1]: ولو جاءتهم كلّ آية وموعظة وعبرة فعاينوها حتى يعاينوا العذاب الأليم لم يؤمنوا كما لم يؤمن فرعون وملؤه إذ حقت عليهم كلمة العذاب حتى عاينوا العذاب الأليم.

وكان طلبهم أن يأتيهم النبى ﷺ بآية يقترن أحياناً بالإثارة والسخرية والاتهام: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

فيرد عليهم متوعّداً: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢].

وإذا كانوا لا يريدون إلا إظهار عجز النبى ﷺ ليكون ذلك سبيلاً إلى إبقاء سلطانهم على الضعفاء، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وصرف الناس عن دعوة الحق، فذلك أمر سفاهة ينبغى أن يجلّ بالنبى ﷺ عن مجاراتهم فيه، لذا فلم يحفل القرآن بمرادهم، وجعل أمر الإيمان بدعوة الحق منوطاً بنور آياته والوقوف على الأسرار العظيمة فيها، لأن ذلك أدعى لثبات الإيمان واستقراره، والظهور على العجز النفسى الذى أطبق عليهم بكل جحودهم

(١) جامع البيان (١١/١٦٩)..

وعنادهم، ويسّر لهم فهمه والعلم به: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

من هنا كانت المعجزات التى قامت أمام عناد الكفار وجحودهم وصدّتهم عن النيل من القرآن تدور حول محور القرآن. ومن أعظم الشواهد على ذلك علم علماء بنى إسرائيل به: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

والمعنى: «أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن علماء بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها؟»، ووجه الإعجاز فيه أن الكتب السماوية التى سبقت القرآن جاء ذكره فيها، فصدق به أهلُها، فكانت البشارة به قبل بعث النبى الذى سيبشر به بعد نزوله معجزة ظاهرة أيّد اللَّه بها نبيه ﷺ.

وقد أفاض القرآن فى ذكر المعجزات والآيات التى كانت للأنبياء السابقين، ففيها المقنع الكافى لمن أراد أن يذكر أو أراد النجاة لنفسه، ولا ريب أنهم كانوا على علم بما أصاب الأقوام السابقة من عذاب واستئصال لكفرهم بأنبيائهم وبالمعجزات التى جاءوا بها من عند ربهم، فكان منُّ اللَّه بهم أن حبس عنهم هذه المعجزات لئلا يصيبهم ما أصاب من قبلهم من سوء العذاب.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء: ٥٩].

جاء فى سبب نزول هذه الآية:

«قالت قريش للنبى ﷺ ادعُ لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك. قال: (**وتفعلون؟!**) قالوا: نعم، قال: فدعا. فأتى جبريل فقال: إن ربّك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن

كفر منهم بعد ذلك عذّبته عذاباً لا أعذّبه أحداً من العالمين. وإن شئت فتحتُ لهم أبواب التوبة والرحمة. فقال: «**بلْ بَاب التَّوبةِ والرَّحمةِ**»

والمعنى: «أن اللَّه تعالى لم يرسل الآيات التى طلبها المشركون من قريش، إلا أنه قد كذّب بها الأولون بعد ما سألوها وجرت سنة اللَّه تعالى فيهم وفى أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذّبوا بها بعد نزولها».

ولما قالوا: ﴿ **فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٥]

ردّ عليهم بقوله: ﴿**مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٦].

أى: ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدى نبيّها فآمنوا بها، بل كذّبوا فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا.

هذا إلى جانب أن القرآن العظيم وهو معجزة النبى ﷺ الباقية على الدهر، بل معجزة المعجزات جميعاً كان سجلاً لمعجزات الأنبياء السابقين، فبتلاوته تحجز نفوس الناس عن أسباب الهلاك والمعاصى.

من أجل ذلك اكتفى القرآن بذكر معجزتين للنبى ﷺ، واحدة كانت بطلب النبى ﷺ من اللَّه: وهى معجزة انشقاق القمر، والثانية كانت من غير طلب منه فكانت تكريماً عظيماً له ومواساة لقلبه، وكلاهما وقع فى السماء، ليظهر اللَّه نبيّه عليهم بأن كلمته ستكون فوق كلمتهم، وكأن ذلك كان من اللَّه إعلاناً لنبيّه بذلك، وبخاصة وأنهما كانتا فى مكة وهو فى حال من الضعف هو وأصحابه، وأن القدرة التى تحدث المعجزات فى السماء هيّن عليها أن تحدث المعجزات فى الأرض، وأن الأشواق النبّوية أشواق علوية لا تجد لها مستقرًّا تأوى إليه، ولا مستراحاً تطمئن فيه إلا فى ملكوت السماء،

فإليها يتوجه، وفيها يُقلِّب طرْفه، ومن أطرافها يستلهم الحكمة، ومنها يتنزل عليه الوحى.

ولكى يقيم اللَّه الحجة عليهم، ويظهرهم على ما بأنفسهم من عناد وجحود، وليعلمهم أن المعجزات شىء من خلقه فلا يعجز عن شىء منها، وأنها لا تكون إلا بإذنٍ منه وحده سبحانه أجرى لهم آيتين على يدى نبيه ﷺ.

والآية الأولى التى تذكرها لنا سورة القمر فى مطلعها ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ [القمر: ١] معجزة ضخمة عظيمة كهذه يذكرها القرآن فى كلمتين اثنتين فقط، لأن القمر انفلق فلقتين، فليكن التعبير عنها فقط بكلمتين أيضاً، وليدع للعقل البشرى فى كل زمان وفى كل مكان أن يتصور هول هذه المعجزة التى بشقيها ربما يعقبها دمار العالم، ولكنها لأنها معجزة يلتئم شقاها فيهدأ روح العالم، ويؤمن بأن معارفه التجريبية كلها لا يمكن أن تبلغ به حدّ التصديق أن شيئاً من ذلك يكون، فما يكون من سبيل إلى التصديق بها إلا التسليم القلبى المحض، وردّ ذلك إلى عالم الغيب والشهادة.

جاء فى سبب هذه المعجزة:

أن أهل مكة سألوا النبى ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فنزلت: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾. إلى قوله: ﴿**وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ** ﴾ [القمر: ١، ٢][1].

أما المعجزة الثانية فهى معجزة الإسراء والمعراج، وإذا كان العقل يُبْعد بل

---

(١) حسن صحيح: ت (٣٣٤٠/٧٢/٥).

يُحيل انشقاق القمر، فهو لمعجزة الإسراء والمعراج أشدّ إبعاداً وإحالة، ذلكم أن انشقاق القمر شيءٌ مرئيٌ إذا وقع لا يُنكر فيعود العقل إلى تصديق ما أحال أو أبعد حدوثه ثم إن القمر جرم لم يكن عند العرب معروفاً بما كشفه العلم وأظهر الناس على ما فيه، فأن ينشطر شطرين وينفلق فلقتين أمرٌ يمكن تأويله علميًّا مع صغر دائرة علوم العرب إذ ذاك، التى قد تضيق عن الاستمرار فى التأويل، فترده أخيراً إلى حركة الأنواء التى كانت عقيدة راسخة فيهم، مكنت لكثير من الخرافات فى عقولهم.

أما أن يرتحل إنسان من مكة إلى بيت المقدس ليلاً فى مثل لمح البصر، ثم يُصعد به إلى السماء ولا يُرى، ويعود ولا يحس به أحد، فهذا لا يدنو أبداً من دائرة العقل، وقد عقلت العربُ كل الأساطير والخرافات التى بلغتها ورسخت فى صدورها، وأخذت عليها كل أقطارها، وملأت أجربة علمها، ولكنها لم ولن تصدّق الذى حدّث به محمدٌ الناس.

ولكى يقطع الله تعالى على العرب والبشر جميعاً طريق الشك فى هذه المعجزة الفذة سجلها فى كتابه، فقال فى شأن الإسراء: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الإسراء: ١].

وقال فى شأن المعراج: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**﴾ [النجم: ١٣-١٨][1].

---

(١) وانظر السيرة النبوية العطرة (ص ٢٢٥ / ٢٣٣). لوالدنا سماحة الشيخ محمد إبراهيم شقرة.

والمراد:

لقد رأى مـحمد ﷺ جبريل مرة أخرى، عند سـدرة المنتهى فى السماء السابعة، على أصل خِلْقَتِه الملائكية التى خلقـه اللَّه عليها، وكان قد رآه قبلُ فى مكة جـهة أجيـاد، قد ظهـر له فى الأفق له سـتمائة جـناح قد سدّ بـها الأفق. ولقـد رأى النبى ﷺ فى عروجه إلى السمـاء الكثير من الآيات التى تدل على عظمـة اللَّه وتفرده سبـحانه بالألوهيـة. هذا وسنفرد هذه المعـجزة بخطبة مستقلة إن شاء اللَّه.

* * *



الحديث الحادي والثلاثون

عنْ أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنْهُ قالَ: قَالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «لقدْ رأيتُني في الحجْرِ وقُريشٌ تسْألُني عنْ مَسْرَاي، فسألتني عن أشياء من بيْت المقدس لمْ أُثْبتْها، فكُرِبْتُ كرْبةً ما كُربت مثلهُ قط، فرفعهُ الله لي أنْظرُ إليْه، ما يسْألُوني عنْ شيء إلاّ نبأْتُهم، وقد رأيْتُني في جماعةٍ من الأنْبياء. فإذَا مُوسى قائمٌ يُصلّي. فإذا رجُلٌ ضرْبٌ جعْدٌ كأنَّهُ من رجَال شنُوءةَ. وإذا عيسى ابنُ مرْيم عليْه السّلامُ قائمٌ يُصلّي. أقْربُ النّاس به شبهاً عُرْوَةُ بنُ مسْعُود الثّقفيّ. وإذا إبْراهيمُ عليْه السلام قائمٌ يُصلّي. أشْبهُ الناس به صاحبُكُمْ (يعْني نفْسه) فحانت الصّلاةُ فأمُمتهُم. فلّما فرغْتُ من الصّلاة قال قائلٌ: يا مُحمّدُ! هذا مالكٌ صاحبُ النار فسلّمْ عليْه. فالْتفتُّ إليْه فبدأني بالسّلام»[1].

في هذا الحديث مفردات غريبة لابد من شرحها:

فالحجر: حجر إسماعيل ببيت اللَّه الحرام بمكة المكرمة، وهو هناك

---

(١) صحيح: م (١٧٢/١٥٦ و١٥٧/١).

معروف، وكان فى أصله من البيت، فلما جددت قريش البيت وقلّ المال اقتصرت فى البناء فبقى الحجر خارج البناء.

وقوله ﷺ: «**لم أُثبتها**» أى لم أحفظها، لانشغالى بما هو أهم منها، لأن النبى ﷺ حين أُسرى به إلى المسجد الأقصى ما أريد بهذا الإسراء أن يتفقد أحواله وبنيانه ومداخله ومخارجه حتى يسأل عنها، ولذلك لم يهتم ﷺ بحفظ أوصاف بيت المقدس.

وقوله ﷺ: «**فكُربت كربة ما كُربت مثلَه قط**» الضمير عائد على المعنى وهو الكرب والهم والغم، وليس عائداً على الكربة، لأن الضمير لو عاد على الكربة لقال مثلها، ولكنه قال «مثله».

وقوله ﷺ فى وصف موسى عليه السلام: «**فإذا رجل ضَرْبٌ**» يعنى بين السمين والنحيف.

وقوله «**جَعْدٌ**»: الجعد ضدّ السَّبْط، والسَّبْط الشعر المسترسل، وقوله: «**كأنه من رجال شنوءة**»: شنوءة قبيلة معروفة بالطول.

وهكذا شبه النبى ﷺ لأصحابه موسى وعيسى وإبراهيم بمن يعرفونهم حتى كأنهم ينظرون إليهم.

أما الإسراء فالمراد به تلك الرحلة العجيبة التى كانت من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى بيت المقدس بفلسطين، قال تعالى:

﴿**سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الإسراء: ١].

وهكذا مجّد اللَّه نفسه ونزه ذاته عما لا يليق بجلاله سبحانه وتعالى من النقائص والمعايب، ومدح نفسه على قدرته على ما لا يقدر عليه غيره،

فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ﴾.

والإسراء هو السير ليلاً، وإنما كان الإسراء ليلاً لأن الليل هو وقت السّر والنجوى، ووقت التجلى الأسمى، ولذلك كانت أكثر عبادته ﷺ بالليل استجابة لأمر ربه، حيث قال له:

﴿يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ١-٦].

﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ والعبد يطلق على الإنسان عموماً، والمملوك خصوصاً، والمراد بالعبد المذكور خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ وفى إضافة العبد إلى ضمير الربّ ما فيها من التكريم والتشريف، والتنبيه والتنويه، على جلالة قدره واختصاص ربه عزّ وجل به، وانقياده ﷺ لأوامر ربه سبحانه وتعالى.

والعبودية للَّه عز وجل شرف عظيم، ومرتبة عالية، وأكمل الخلق أكملهم عبودية، وأشرفهم قدراً أكثرهم اجتهاداً فى تعبيد نفسه للَّه عز وجل، ولذلك كان النبى ﷺ أكمل الخلق وأشرفهم وأفضلهم، وأرفعهم عند اللَّه منزلة، وأقربهم إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهاً، لأنه ﷺ بلغ القمة العليا فى العبودية للَّه رب العالمين.

ولقد وصفه اللَّه تعالى بها فى مقامات التشريف كلها:

فقال سبحانه فى مقام التنزيل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١].

وقال فى مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وقال فى مـقام التـحدى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وقال فى مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

ومع ذلك فقد كان ﷺ سيد المتواضعين، وكان ينهى عن إطرائه ويحذر من الغلو فيه، خـوفاً من أن يخرجوه من مـرتبة العبودية إلى مـرتبة الربوبية التى لاتنبغى إلا لـلَّه عز وجل، فكان ﷺ يقـول: «**لا تطرونى كـمـا أطْرَتِ النَّصارى ابنَ مريمَ، إنَّما أنا عبده فقولوا عبد اللَّه ورسولُه**»[1].

﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والمراد مسـجد مكة، بيت اللَّه الحرام، سمّـى اللَّه تعالى المسجد حرامـاً باسم البلد الحرام، لأنه لا يجوز أن تنتـهك حرمتـه لا بقتال، ولا بصيـد صيد، ولا بقطع شـجر، ولا كلأ.

﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بمكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ ببيت المقدس.

والأقصى هو الأبعـد. سمى مـسجد بيت المقـدس بالأقصى لبـعده عن مسـجد مكة، ﴿الَّذِى بَارَكْنَا حَـوْلَهُ﴾ فجوانبه كلها مـباركة، وكل ما حوله مـبارك، وكل أرض وصـفت بالبركـة فى القـرآن الكريم فالمراد بهـا الأرض المذكورة

هنا فى قوله تعالى: ﴿الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾.

قال تعـالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٧١].

(١) صحيح: خ (٣٤٤٥/٤٧٨/٦).

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [سبأ: ١٨].

ثم ذكرت الآية الكريمة الحكمة من الإسراء،

فقال سبحانه: ﴿لنريه من آياتنا﴾ الحسيّة بعد ما رأى من آياتنا العقلية، وهذه سنة اللَّه فى الأنبياء، قال تعالى فى حق إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الانعام: ٧٥].

وقال سبحانه فى حق موسى عليه السلام: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣].

وقد ذكر اللَّه تعالى الحكمة من هذه السنة فى قوله فى حق إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الانعام: ٧٥]

وذلك أن الأنبياء عليهم السلام عندما يرون من آيات اللَّه ما يطلعهم اللَّه عليه يحصل لهم من عين اليقين ما يجعلهم يصبرون على كل ما يلاقون فى سبيل اللَّه عز وجل، ويتحملون بسبب ما رأوا ما لا يستطيع غيرهم أن يتحمله من المشاق والصعاب، وإذا دال عليهم أعداؤهم بالمحن والعذاب لم يعبئوا بهم ولم يهتموا، فهم لما رأوا من آيات اللَّه الكبرى عندهم من اليقين العظيم ما يجعلهم يرون قوة الدنيا بأجمعها كأنها جناح بعوضة.

ولقد رأى النبى ﷺ من آيات ربه فى هذه الرحلة ما رأى:

لقد عُرض عليه إناء من خمر وإناء من لبن، فاختار اللبن، فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة. أما إنك لو أخذت الخمر لغوت أمتك.

ولقد رأى عليه الصلاة والسلام الجنة والنار، ورأى مالكاً خازن النار ورأى الذى يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم لهم أظافر من نحاس

يخمشون بها وجوههم وصدورهم.

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة، لا يستطيعون التحول عن أماكنهم من ثقلها وكبرها، وآل فرعون يمرون عليهم كلما عرضوا على النار صباح مساء فيطئوهم بأقدامهم.

ورأى ﷺ الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب، وإلى جواره لحم خبيث منتن، فيتركون السمين الطيب ويأكلون من الخبيث المنتن.

ورأى ﷺ جزاء أعمال الصالحين وجزاء أعمال الفاسقين.

(إنه) سبحانه (هو السميع) لأقوال عباده، لا يخفى عليه شيء من الأصوات وقت الاجتماعات، على اختلاف اللغات واللهجات.

(البصير) بأحوالهم. **﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [يونس: ٦١]

وبعد: فهذا هو حديث القرآن عن الإسراء **﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾** وقد تلت هذه الرحلة رحلةٌ أخرى إلى السماء وهي المعروفة بالمعراج، وقد تحدث عنها القرآن الكريم أيضاً في قول اللَّه عز وجل: **﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾** [النجم: ١٣-١٥].

يعني: ولقد رأى النبي ﷺ جبريل على أصل خلقته الملائكية مرةً أخرى بعد المرة الأولى التي كانت في مكة قبل أجياد، وذلك أن النبي ﷺ اشتاق إلى رؤية جبريل على أصل خلقته الملائكية، فبدا له في الأفق بمكة قبل أجياد

له ستمائة جناح قد سدّ بها الأفق، وإلى هذه المرة الأولى أشار ربنا سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣].

فكانت هذه هى المرة الأولى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⓭ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ فى السماء السابعة ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ فهى إذن صريحة فى العروج به ﷺ إلى السماء.

ولقد تواترت الأحاديث عن مجموعة من الصحابة وهم ينقلون عن النبى ﷺ خبر الإسراء والمعراج، ومن هذه الأحاديث حديث أنس رضى اللَّه عنه قال: قال النبى ﷺ: « **أُتيت بالبراق** (وهو دابةٌ أبيضُ طويلٌ فوق الحمار ودونه البغل. يضع حافره عند منتهى طرْفه) **فركبتُه حتى أتيتُ بيتَ المقدس، فربطتُه بالحلْقة التى يربطُ بها الأنبياءُ، ثم دخلتُ المسجدَ فصليتُ فيه ركعتَين، ثم خرجُ فجاءنى جبريلُ عليه السلامُ بإناء من خمرٍ وإناءٍ من لبن، فاخترتُ اللبنَ، فقالَ جبريلُ عليه السلامُ: اخترتَ الفطرةَ، ثم عَرجَ بنا إلى السماء فاستفتحَ جبريلُ فقيلَ: مَن أنت؟ قالَ: جبريلُ، قيلَ: ومَن معكَ؟ قالَ: محمدٌ قيلَ: وقد بُعثَ إليه؟ قالَ: قد بُعثَ إليه ففتحَ لنا فإذا أنا بآدمَ، فرحَّب بى ودعا لى بخير، ثم عَرَج إلى السماء الثانية، فاستفتحَ جبريلُ عليه السلامُ قيل: مَن أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: محمدٌ، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بعثَ إليه، ففتحَ لنا، فإذا أنا بابْنَى الخالة عيسى ابن مريمَ ويحيى بن زكريَّا صلواتُ الله عليهما، فرحَّبا ودعَوا لى بخير، ثم عَرَج بى إلى السماء الثالثة، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: محمدٌ ﷺ قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسفَ ﷺ إذا هو قد أُعطى شطرَ الحسنِ، فرحبَ بى ودعا لى بخير، ثم عَرَج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتحَ جبريلُ عليه السلامُ، فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن**

معك؟ قال: محمدٌ، قيل: وقد وبُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه ففتحَ لنا فإذا أنا بإدريسَ فرحبَ بى ودعا لى بخير، قال الله عز وجل ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾، ثم عَرجَ بنا إلى السماء الخامسة فاستفتحَ جبريلُ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ قيل: ومَن معك؟ قال: محمدٌ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه ففتحَ لنا، فإذا أنا بهارونَ ﷺ فرحبَ بى ودَعا لى بخير، ثم عَرَج بى إلى السَّماء السَّادسة فاستفتَحَ جبريلُ، فقيلَ: مَنْ هَذَا؟ قالَ: جبريلُ، قيلَ: ومَنْ معَكَ؟ قالَ: محمدٌ، قيلَ: وقَدْ بُعثَ إليه؟ قالَ قد بُعثَ إليه، ففتحَ لَنَا فإذَا أنَا بموسَى ﷺ فرحَبَ بى ودعَا لى بخير، ثم عَرَج بى إلى السَّماء السَّابعة فاستفتحَ جبريلُ، فقيلُ: مَنْ هذَا؟ قالَ: جبريلُ، قيلَ ومَنْ معَكَ؟ قال: محمدٌ ﷺ قيلَ: وقَدْ بُعثَ إليه؟ قالَ: قَدْ بُعثَ إليه، ففتحَ لنَا فإذَا أنَا بإبراهيمَ ﷺ مسنداً ظهرَهُ إلى البيت المعمُور، وإذَا هُوَ يدخُلُه كلَّ يوم سبعونَ ألفَ مَلَك لا يعُودُونَ إليه، ثم ذَهبَ بى إلى سدرة المنتهى، وإذَا ورقُها كآذان الفيَلَة، وإذا ثمرُها كالقلال قال: فلمَّا غَشيَها منْ أمر الله مَا غَشى تغيرتْ، فَمَا أحدٌ منْ خَلق الله يستطيعُ أَنْ ينعتَها منْ حُسنها، فأوحَى اللهُ إليّ مَا أوحَى، ففرضَ عليّ خمسينَ صَلاة فى كلِّ يوم وليلة، فنزلتُ إلى موسَى ﷺ فقالَ: مَا فرضَ ربّكَ على أمتكَ؟ قلتُ: خمسينَ صلاة قالَ: ارجعْ إلى ربكَ فاسألْهُ التخفيفَ، فإنَّ أمتَكَ لا يطيقُونَ ذلكَ، فإنِّى قَدْ بلوتُ بَنى إسرائيلَ وخبرتُهُم، قال: فرجعتُ إلى ربى فقلتُ: يا رب ! خفّفْ على أمتى، فحطَّ عنِّى خَمسًا، فرجعتُ إلى موسَى فقلتُ: حطَّ عنِّى خَمسًا قال: إن أمتكَ لا يطيقُونَ ذلكَ فارجعْ إلى ربكَ فاسألْهُ التخفيفَ قالَ: فلَمْ أزلْ أرجعُ بين ربِّى تباركَ وتعالَى وبين وموسَى عليه السلامُ حتَّى قالَ: يا محمدُ ! إنهنَّ خمسُ صلوات كلَّ يوم وليلة، لكلِّ صلاة عشرٌ، فذلكَ خمسونَ صلاةً، ومَنْ هَمَّ بحسنة فلَمْ يعملْها كتبتْ لَهُ عشرًا، ومَنْ هَمَّ بسيئة فلَمْ يعملْها لَمْ تكتَبْ شيئًا فمنْ عملَها كتبتْ سيئةٌ

واحدةٌ، قال: فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى ﷺ فأخبرتُهُ فقالَ: ارجعْ إلى ربِّكَ فاسألْهُ التخفيفَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ فقلتُ: قد رجعتُ إلى ربِّى حتَّى استحييتُ منهُ» (١).

وبعد: فقد أصبح النبى ﷺ بين أهل مكة، فجلس كما كان يجلس فى الحجر، فمرّ عليه أبو جهل فقال: ما عندك يا محمد؟ فقال ﷺ: **«لقد أُسرى بى الليلة إلى المسجد الأقصى»**. قال: وأصبحت بيننا؟! قال: **«نَعَمْ»**. قال: لو دعوت لك قريشاً تخبرهم بما أخبرتنى به؟ قال: نعم.

فنادى أبو جهل فى الناس فاجتمعوا، فقال ﷺ: **«لَقَد أُسرىَ بى الليلةَ إلى المسْجدِ الأقْصَى»**. قالوا: وأصبحت بيننا؟ قال: **«نَعَمْ»**. فارتد أناس، وأخذوا يضربون على رءوسهم تعجباً. ثم قالوا: يا محمد! لقد جئنا بيت المقدس وخبرناه، فهل تستطيع إذا سألناك عنه أن تجيبنا؟ قال: **«نَعَمْ»**. فجعلوا يسألونه فيجيبهم، فسألوه عن أشياء لم يثبتها، فكرْب كربة شديدة، ما كرب مثلها قط، وإذا بربّ العزة سبحانه الذى يقول للشىء كن فيكون، يرفع المسجد الأقصى، ويجعل النبى ﷺ ينظر إليه. فجعل ﷺ ينظر إلى المسجد الأقصى بعينيه، ويسألونه فيجيبهم، فقالوا: أما الوصف فقد صدقك، وأما الخبر فقد كذب. **﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾** [القمر: ٢-٥]. نعوذ بالله من الخذلان.

---

(١) صحيح: مسلم (١٦٢/١٤ - ١/١٤٧).

وبعـــد: فلقد كان فى الإسراء والمعراج حكم وأسرار:

فمنها: أن الإسراء بالنبى ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى قبل المعراج فيه إشارة إلى أن النبى ﷺ سيرث قيادة الأمة، وسترث أمته هذه البلاد، ذلك أن المسجد الأقصى كـان بيد بنى إسرائيل قبل أن يبعث النبى ﷺ، حتى إذا حرّفوا وغيّروا وبدّلوا لم يعودوا يصلحون للقيادة فأسرى بالنـبى ﷺ إلى المسجد الأقصى تبشيراً له بأن قـيادة هذا البيت ستنتقل إليه، وأن هذه الأرض سترثها أمته.

ومنها: أن النبى ﷺ عُرج به إلى السموات العلا، فرفعه اللَّه تعالى مكاناً علياً فوق جميع البشر، وكـأن اللَّه تبارك وتعالى يريد أن يقول: يا نبينا انظر كيف رفعتك فوقهم، فوعزتى وجلالى لأرفعن كلمتك فوق كلمتهم ولأظهرن دينك فوق دينهم.

ومنهـا: أن النـبى ﷺ رأى فى الجنة نهرين ظاهريــن، ونهرين باطنين، فسـأل عنهما، فـقيل: أمـا الظاهران فالنيل والفـرات، ومعنى ذلك أن أصل النيل والفرات من الجنة، وفى هذه الرؤية تبشير له ﷺ بأن أمته سترث أرض هذين النهرين: أرض النيل وأرض الفـرات. وفيها أيضـاً بشارة لأهل هذين النهرين أنهم سيكونون حملة الدعوة وحملة الدين،والمجاهدين فى سبيل اللَّه عز وجل.

ومنها:أن فى صلاته ﷺ بالأنبياء جميعاً إشارة إلى أنهم وهم فى عالم البرزخ قد اقتـدوا به، وائتموا به، فلو كانوا أحياءً فى الدنـيا لاتبعوه، وذلك أن اللَّه تعالى قد أخذ من النبـيين جميعاً العهد والميثـاق لئن جاء محمد ﷺ

وهم أحياء ليؤمنن به ولـيتبـعنه، فأعطوا اللَّه عـز جل على ذلك عـهودهم ومواثيقهم. وكأن الأنبياء عليهم السلام بصلاتهم خلف النبى ﷺ يريدون أن يقولوا لمن لم يتبعه من اليهود والنصارى وغيرهم: لو كنا أحياء لاتبعناه، فما بالكم لا تتبعونه وهو بين أظهركم، والجواب معروف:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].

* * *



الحديث الثاني والثلاثون

عن سهل بن سعد رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر:

«لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها. فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: «فأرسلوا إليه». فأتي به، فبصق في عينيه ودعا له بخير، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع. فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال:

«انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله عز وجل. فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[1].

---

(١) متفق عليه: خ (٣٧٠١/ ٧/٧٠)، م (٢٤٠٦/ ١٨٧٢/ ٤). يدوكون: يتحدثون.

في هذا الحديث معجزة من معجزاته ﷺ، وهى إبراء المرضى بإذن اللَّه.

وفيه منقبة عظيمة لعلى رضى اللَّه عنه، حيث شهد له الرسول ﷺ بأنه يحب اللَّهَ ورسوله، ويحبّه اللَّهُ ورسولُه. وفيه منقبة أخرى له وهى أن اللَّه فتح خيبر على يديه.

وفيه حرص الصحابة جميعاً على الخير وتنافسهم فيه، حيث باتوا يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبحوا أتوا النبىّ ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها.

وقد وقعت هذه المعجزة معجزة إبراء المرضى كثيرًا لرسول اللَّه ﷺ، وحفظت السّنة هذه الوقائع ومنها:

عن البراء بن عازب رضى اللَّه عنهما قال: «بعث النبى ﷺ رهطًا إلى أبى رافع[1] فدخل عليه عبد اللَّه بن عتيك بيته ليلاً وهو نائم فقتله. قال عبد اللَّه ابن عتيك: فوضعت السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره، فعرفت أنى قتلته، فجعلت أفتح الأبواب حتى انتهيت إلى درجة فوضعت رجلى فوقعت فى ليلة مقمرة فانكسرت ساقى، فعصبتها بعمامة، فانطلقت إلى أصحابى، فانتهيت إلى النبى ﷺ فحدثته، فقال: «**ابْسِطْ رِجْلَكَ**». فبسطت رجلى فمسحها فكأنما لم أشتكها قط»[2].

وعن يزيد بن أبى عبيد قال: «رأيت أثر ضربة فى ساق سَلَمَة بن الأكوع فقلت: يا أبا مسلم! ما هذه الضربة؟ قال: ضربة أصابتنى يوم خيبر، فقال

(١) أبو رافع هو سلام بن أبى الحقيق، كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ، وكان فيمن حزَّب الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستأذنت الخزرج رسول الله فى قتله فأذن لهم.
(٢) صحيح: البخارى مطولاً (٤٠٣٩/ ٣٤٠ و٧/٣٤١).

الناس: أصيب سلمة، فأتيت النبى ﷺ فَنَفَثَ فيه ثلاث نَفَثَات، فما اشتكيتها حتى الساعة»[١].

وعن قتادة بن النعمان رضى اللَّه عنه: «أنه أصيبت عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته، فأرادوا أن يقطعوها، فسألوا رسول اللَّه ﷺ فقال: «لا». فدعاه، فغمز حدقته براحته، فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت. وفى رواية: فكانت أحسن عينيه»[٢].

وعن عثمان بن حنيف رضى اللَّه عنه: أن رجلاً ضرير البصرِ أتى النبى ﷺ فقال: ادع اللَّه أن يعافينى. قال: «**إنْ شئتَ دَعَوتُ لَكَ، وإنْ شئتَ صَبَرتَ، فَهُوَ خَيرٌ لَكَ**». فقال: ادعه. فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه فيصلى ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد نبى الرحمة. يا محمد! إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه فتقضى لى، اللهم فشفعه فىّ، وشفعنى فيه». قال: ففعل الرجل فبرأ»[٣].

وقد فهم بعض الناس من هذا الحديث أنه يجوز التوسل بجاه النبى ﷺ وغيره من الصالحين، ولا حجة لهم فيه، بل هو دليل على جواز التوسل إلى اللَّه تعالى بدعاء الصالحين فقط، لأن توسل الأعمى كان بدعاء النبى ﷺ، لا بذاته وجاهه، والأدلة على ذلك كثيرة، منها:

١ - أن الأعمى إنما جاء إلى النبى ﷺ ليدعو له، وذلك قوله: «ادع اللَّه أن يعافينى» فهو قد توسل إلى اللَّه تعالى بدعائه ﷺ، لأنه يعلم أن دعاءه

(١) صحيح: البخارى (٤٢٠٦/ ٤٧٥/٧).

(٢) البداية والنهاية (٢٩١/٣) وعزاه للبيهقى فى الدلائل.

(٣) صحيح: ت (٣٦٤٩/ ٢٢٩/٥) وانظر تأويله فى «التوسل» للألبانى.

ﷺ أرجى للقبول عند اللَّه تعالى، بخلاف دعاء غيره.

ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبى ﷺ أوجاهه أو حقه لما كان ثمة حاجة به إلى أن يأتى النبى ﷺ ويطلب منه الدعاء له، بل كان يقعد فى بيته ويدعو ربّه، كأن يقول مثلاً: اللهم إنى أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن تشفينى وتجعلنى بصيراً. ولكنه لم يفعل، لماذا؟ لأنه عربى يفهم معنى التوسل فى لغة العرب حق الفهم، ويعرف أنه ليس كلمةً يقولها صاحب الحاجة يذكر فيها اسم المتوَسَّل به، بل لابد أن يشتمل على المجىء إلى من يعتقد فيه الصلاح والعلم بالكتاب والسنة وطلب الدعاء منه له.

٢- أن النبى ﷺ وعده بالدعاء مع نصحه له ببيان ما هو الأفضل له، وهو قوله ﷺ: «**إن شئتَ دعوتُ، وإن شئتَ صبرتَ فهُو خيرٌ لكَ**». وهذا الأمر الثانى هو ما أشار إليه النبىّ ﷺ فى الحديث الذى رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**إذا ابتليتُ عبْدى بحبيبتيه فصبرَ عوضتهُ منهُما الجنَّة**»[١].

٣- إصرار الأعمى على الدعاء، وهو قوله «فادع» فهذا يقتضى أن الرسول ﷺ دعا له، لأنه ﷺ خير من وفى بما وعد، وقد وعده بالدعاء له إن شاء كما سبق، فقد شاء الدعاء وأصرّ عليه، فإذن لابد أنه ﷺ دعا له.

وقد وجه النبى ﷺ الأعمى بدافع من رحمته، وبحرص منه على أن يستجيب اللَّه تعالى دعاءه فيه، وجهه إلى نوع من التوسل مشروع، وهو التوسل بالعمل الصالح، ليجمع له الخير من أطرافه، فأمره أن يتوضأ ويصلى ركعتين، ثم يدعو لنفسه، وهذه الأعمال طاعة للَّه سبحانه وتعالى، يقدمها

(١) صحيح: خ (٥٦٥٣/١١٦/١٠).

بين يدى دعاء النبى ﷺ له، وهى تدخل فى قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وهكذا لم يكتف النبى ﷺ بدعائه للأعمى الذى وعده به، بل شغله بأعمال فيها طاعة اللّٰه سبحانه وتعالى وقربة إليه، ليكون الأمر مكتملاً من جميع نواحيه وأقرب إلى القبول والرضا من اللّٰه سبحانه وتعالى.

٤- أن فى الدعاء الذى علمه رسول اللّٰه ﷺ إياه أن يقول: «**اللهمَّ فشفِّعه فىَّ**» وهذا يستحيل حمله على التوسل بذاته ﷺ أو جاهه أو حقه،

إذ أن المعنى: اللهم اقبل شفاعته ﷺ فىَّ، أى اقبل دعاءه فى أن تردّ علىَّ بصرى.

والشفاعة لغة: الدعاء، وهو المراد بالشفاعة الثابتة له ﷺ ولغيره من الأنبياء والصالحين يوم القيامة، وهذا سببه أن الشفاعة أخص من الدعاء.

٥- إن مما علَّم النبى ﷺ الأعمى أن يقوله: «**وشفعنى فيه**» أى اقبل شفاعتى أى دعائى فى أن تقبل شفاعته ﷺ أى دعاءه فى أن تردّ على بصرى.

٦- إن هذا الحديث ذكره العلماء فى معجزات النبى ﷺ ودعائه المستجاب، وما أظهره اللّٰه ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه بدعائه ﷺ لهذا الأعمى أعاد اللّٰه عليه بصره، ولذلك رواه المصنفون فى دلائل النبوة، فهذا يدل على أن السرّ فى شفاء الأعمى إنما هو دعاء النبى ﷺ، ويؤيده أنه لو كان السرّ فى شفاء الأعمى أنه توسل بجاه النبى ﷺ وقَدْرِه وحقه، لكان من المفروض أن يحصل هذا الشفاء لغيره من العميان

الذين يتوسلون بجاهه ﷺ بل يضمون إليه أحيانًا جاه جميع الأنبياء والمرسلين، وكلّ الأولياء والشهداء والصالحين، وجاه كل من له جاه عند اللَّه من الملائكة والإنس والجن أجمعين، ولم نعلم ولا نظن أحدًا قد علم حصول مثل هذا خلال هذه القرون الطويلة بعد وفاة النبى ﷺ إلى اليوم، ولو كان هذا حقًا ما بقى أعمى أبداً، لأن كل أعمى سيدعو بهذا الدعاء، وسيتوجه إلى اللَّه بنبيه.

وإذا تبين هذا تبين أن قول الأعمى فى دعائه: «اللهم إنى أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ» إنما المراد به أتوسل إليك بدعاء نبيك، أى على حذف مضاف، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ [يوسف: ٨٢].

أى أهل القرية وأصحاب العير.

وتبين أيضًا أن من التوسل المشروع:

أ - التوسل بدعاء الصالحين.

ب - التوسل بالعمل الصالح، ويشهد له حديث عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه قال: «سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**انطلقَ ثلاثةُ نفرٍ ممن كان قبلكم حتى آواهُم المبيتُ إلى غارٍ فدخلوه، فانحدرت صخرةٌ من الجبلِ فسدّت عليهم الغارَ، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرةِ إلا أن تدعوا الله بصالحِ أعمالِكم.**

فقال رجلٌ منهم: اللهمَّ كان لى أبوان شيخان كبيران، وكنتُ لا أغبقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بى طلبُ الشجرِ فلم أُرِحْ عليهما حتى ناما، فحلبتُ لهما غبوقَهما فوجدتُهما نائمين، فكرهت أن أُوقظهما وأن أغبقَ قبلَهما أهلاً ومالاً، فلبثتُ والقدحُ على يدى أنتظر استيقاظهما حتى بَرِق الفجرُ، والصبيةُ يتضاغَوْن عند

قدمى، فاستيقظا فشربا غبوقَهما، اللهمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهك ففرّج عنا ما نحنُ فيه من هذه الصخرة، فانفرجتْ شيئًا لا يستطيعونَ الخروجَ منه.

وقال الآخرُ: اللهمَّ إنه كـانتْ لى ابنةُ عمّ، وكنت أُحبها كأشـدّ ما يحب الرجالُ النساءَ، فـأردتُها على نفسـها فامتنعتْ مـنى، حتى ألمت بها سنةٌ من السنين فـجاءتْنى فأعطيتُـها عشرين ومائةَ دينار على أن تخلّى بينى وبين نفـسها، ففعلتْ، فمـا قعدتُ بين رجليْها قـالتْ: اتقِ اللهَ ولا تفضّ الخاتمَ إلا بحقه، فـانصرفتُ عنها وهى أحبّ الناس إلىّ وتركتُ الذهبَ الذى أعطيتُها، اللهمَّ إن كنتُ فـعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهكَ فافرجْ عنا ما نحنُ فيه، فانفرجتِ الصخرةُ غيرَ أنهم لا يستطيعونَ الخروجَ.

وقال الثالـث: اللهمَّ استأجرتُ أُجراء، وأعـطيتُهم أجرَهم غيـرَ رجلٍ واحدٍ تركَ الذى له وذهبَ، فثمرتُ أجـرهُ حتى كثرتْ منه الأموالُ، فجاءنى بعـد حينٍ فقالَ: يا عبـد الله أدِّ إلىّ أجـرى، فـقلتُ: كل مـا ترى من أجـركَ: من الإبل والبـقـر والغنمِ والرقـيق، فقال: يـا عبد اللـه لا تستهـزئ بى! فقـلت: لا أستهـزئ بك، فأخـذَه كلّه فاستـاقَه فلمْ يتركْ منه شيئًـا، اللهمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهك فـافرجْ عنا ما نحنُ فيه، فانفرجتِ الصخرةُ فخرجُوا يمشون»[(١)] .

جـ - التوسل بأسماء اللَّه الحسنى، وصفاته العلى، كأن يقول المسلم فى دعائه: اللهم إنـى أسألك بأنك أنت الرحمن الرحـيم، اللطيف الخبـير، أو يقول: اللهم يا رزّاق ارزقنى، يا شافى اشفنى، ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]

وسمع النبى ﷺ رجلاً يقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت اللَّه

---

(١) مـتـفق عليـه: خ (٣٤٦٥/٥٠٥ و٥٠٦/٦)، م (٢٧٤٣/٢٠٩٩/٤)، د (٣٣٧١/٢٤٤/٩) مجملاً.

الذى لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال ﷺ: «**لقد سأل اللَّه باسمه الأعظم الذى إذا سئل به أعطى، وإذا دعى به أجاب**»(١) (*).

● تنبيه:

اعلم أن قولنا لا يجوز التوسل بجاه النبى ولا بجاه غيره من الأنبياء والصالحين ليس معناه إنكار أن يكون لهم عند اللَّه جاه أو قدر أو مكانة. وليس معناه أن من ينكر التوسل بجاههم يبغضهم وينكر قدرهم ومنزلتهم عند اللَّه. كلا، فمنزلة الأنبياء فوق كل منزلة، وجاههم عند اللَّه أعظم من جاه غيرهم، ولكنا نهينا عن الغلوّ فى ديننا والإفراط فيه كما نهينا عن التفريط، قال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾ [النساء: ١٧١].

وقال النبى ﷺ: «**لا تُطرُونى كما أَطَرَتِ النَّصارَى عيسَى ابنَ مَريَمَ، إنَّما أَنَا عَبدُهُ، فَقُولوا عَبدُ اللَّه ورَسُولُهُ**»(٢).

وليست محبة النبى ﷺ ادعاءً يُدّعى، ولا شعاراً يُرفع، وإنما المحبة الاتباع، قال اللَّه تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي**﴾ [آل عمران: ٣١].

فمن ادعى محبة اللَّه ورسوله فعليه باتباع رسول اللَّه ﷺ واقتفاء أثره، والتمسك بسنته.

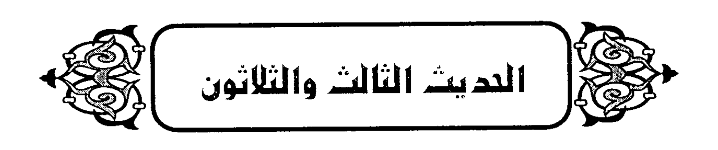
❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح: د (١٤٧٩/٣٦٢/٤)، ت (٣٥٤٢/١٧٨/٥)، جه (٣٨٥٧/١٢٦٧/٢).

(*) راجع «التوسل» لشيخنا الألباني.

(٢) صحيح: خ (٣٤٤٥/٤٧٨/٦).



الحديث الثالث والثلاثون

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هلْ يُعَفِّرُ مُحمدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: وَاللاتِ وَالْعُزَّى لئنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِه أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ في التّراب. قَالَ: فأَتَى رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلّي - زَعَمَ - ليطأَ عَلَى رقَبَته، فَمَا فَجأَهُمْ إلاَّ وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقبَيْه ويَتقي بيَدَيْه، فَقيلَ لَهُ: مَالَكَ؟ قَالَ: إنَّ بَيْني وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقاً منْ نَارٍ، وَهوْلاً وَأَجْنحَةَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَوْ دَنَا منّي لاخْتَطَفَتْهُ الْملائكَةُ عُضْواً عُضْواً. فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ كَلاَّ إنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَلاَّ لا تُطعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾[1].

في هذا الحديث معجزة من معجزاته ﷺ، وهي عصمة اللَّه تعالى له من أعدائه، وهم الجم الغفير، والعدد الكثير، وهم على أتمّ حنق عليه، وأشدّ طلب لنفسه، وهو بينهم مسترسل قاهر، ولهم مخالط، ومكاثر، ترمقه أبصارهم شزرًا، وترتدّ عنه أيديهم ذعرًا، وقد هاجر عنه أصحابه حذرًا،

(١) صحيح: مسلم (٢٧٩٧/ ٢١٥٤ و٢١٥٥/ ٤).

حتى استكمل مدّته فيهم ثلاث عشرة سنة، ثم خرج عنهم سليمًا لم يُكلَمْ فى نفس ولا جسد، وما كان ذلك إلا بعصمة إلهية، وعده اللَّه بها، فحققها له، حيث قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ولقد تجلّت عصمة اللَّه تعالى لنبيه ﷺ فى وقائع متعددة، منها:

عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] جاءت امرأة أبى لهب ورسول اللَّه ﷺ جالسٌ ومعه أبو بكر، فقال له أبو بكر: لو تنحّيت! لا تؤذيك بشىء. فقال ﷺ: «**إنه سيُحالُ بَينِى وَبَينَهـا**». فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر فقالت: يا أبا بكر هجانا صاحبك! فقال أبو بكر: لا وربّ هذه البنْية ما ينطق بالشعر ولا يتفوّه به. فقالت: إنك لمصدّق. فلما ولّت قال أبو بكر: ما رأتك؟ قال: «**لا، ما زالَ مَلكٌ يَستُرنَى حتَّى ولّت**»(١).

وحدث أن قريشًا استغاثت بمعمر بن يزيد ـ وكان أشجع قومه، وكانت بنو كنانة تصدر عن رأيه وتطيع أمره ـ فقال لهم: إنى قادم إلى ثلاث وأريحكم منه، وعندى عشرون ألف مدجّج، فلا أرى هذا الحىّ من بنى هاشم يقدر على حربى، وإن سألونى الدية أعطيتهم عشر ديات، ففى مالى سعة. وكان يتقلد بسيف طوله سبعة أشبار فى عرض شبر، وقصته فى العرب مشهورة بالشجاعة والبأس، فلبس يوم وعده قريشًا سلاحه، وظاهر بين درعين، فوافقهم بالحطيم، ورسول اللَّه ﷺ فى الحجر يصلى وقد عرف ذلك فما التفت ولا تزعزع، ولا قصر فى الصلاة.

---

(١) صحيح: بز: (٢٢٩٤/ ٨٣/ ٣).

فقيل له: هذا محمد ساجد، فأهوى إليـه وقد سلّ سيفه، وأقبل نحوه، فلما دنا منه رمى بسيـفه وعاد، فلما صار إلى باب الصـفا عثر فى درعـه فسقط، فقـام وقد أدمى وجهـه بالحجارة يعـدو وكأشدّ العـدّو حتى بلغ البطحـاء ما يلتفت إلى خلف، فاجـتمعوا وغسلوا عن وجهه الـدم وقالوا: ماذا أصابك؟ قال: إنى لما دنوت من محمد فأردت أن أهوى بسيفى إليه أهوى إلىّ من عند رأسه شجاعان أقرعان ينفخان بالنيران، وتلمح أبصارهم، فغدوت، فما كنت لأعود فى شىء من مساءة محمد»[1].

«ولما أصرّت قريش على قتل رسول اللَّه ﷺ، وأجمعوا أمرهم على أن يبيت أمام دار النبى ﷺ أربعون شابًا جلدًا من شباب قريش، معهم السيوف فإذا خرج ضـربوه ضربة رجل واحد، وأمره اللَّه بالهجـرة، فخرج من بينهم ليلاً وأعمى اللَّه أبصارهم فـلم يشعروا به، فانطلق ﷺ ومعـه أبو بكر حتى دخلا الغار. ولما أصـبحت قريش ورأت أن النبى ﷺ قد فاتهم تتـبعوا الآثار فى الرمال حتى انتـهوا إلى باب الغار فوقفوا عليه، فـقال أبو بكر: يا رسول اللَّه! لو أن أحدهم نظر إلى قدميـه لأبصرنا! فقال ﷺ: «**يا أَبَا بكرٍ! مَـا ظَنُّكَ باثْنَينِ اللَّهُ ثالثُهُمَا**»[2]. وفى ذلك يقول اللَّه تعالى:

﴿ إلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

(١) صحيح.
(٢) متفق عليه: خ (٣٦٥٣/٨/٧)، م (٢٣٨١/١٨٥٤/٤)، ت (٣٠٩٤/٥/٣٤٢/٤).

وهكذا حفظ اللَّه رسوله، وردّ الذين كفروا بغيظهم. ولكنهم لم ييأسوا، فجعلوا لمن يأتى برسول اللَّه ﷺ حيًّا أو ميتًا مائةً من الإبل، فخرج الفرسان يطلبون رسول اللَّه ﷺ، وكان منهم سراقة بن مالك، فلما رآه أبو بكر قال: يا رسول اللَّه هذا سراقة قد قرب، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اللهمَّ اكْفِنَا سُرَاقَةَ**»، فأخذت الأرض قوائم فرسه إلى إبطها. فقال سراقة: يا محمد! ادع اللَّه أن يطلقنى ولك علىّ أن أردّ من جاء يطلبك ولا أدلّ عليك. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اللهمَّ إنْ كانَ صادقًا فأَطْلِقْ فَرَسَهُ**» فأطلقه اللَّه، فرجع، ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه[1].

ولما كانت بدرٌ، ورجعت قريش تجرّ أذيال الهزيمة جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية فى الحجر، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناءً وهو بمكة. وكان ابنه وهب فى أسرى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: واللَّه إن فى العيش بعدهم خير. فقال له عمير: صدقت واللَّه. أما واللَّه لولا دينٌ علىّ ليس له عندى قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لى فيهم علة، ابنى أسير بأيديهم. فاغتنمها صفوان فقال: علىّ ديْنك أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا، لا يسعنى شىء ويعجز عنهم. فقال له عمير: فاكتم شأنى وشأنك. قال أفعل.

فأمر عمير بسيفه فشحذ له وسُمّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة. فبينما عمر فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم اللَّه به، إذ

(١)متفق عليه: خ (٢٠٠/ ٧)، م(٢٠٠٩).

نظر عمر إلى عميـر حين أناخ على باب المسجد متوشحًا سـيفه. فقال: هذا الكلب عدو اللَّه عمير، واللَّه ما جاء إلا لشرّ، وهو الذى حرّش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عـمر على رسول اللَّه ﷺ فقـال: يا نبىّ اللَّه! هذا عدو اللَّه عمير قد جاء متوشحًا سيفه. قال: «**فَأَدْخِلْهُ عَلَىّ**». فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلبسه بها وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول اللَّه فاجلسوا عنده، واحـذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غيـر مأمون. ثم دخل به عمـر على رسول اللَّه ﷺ، فلمـا رآه وعمـر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال: «**أَرسِلْهُ يَا عُمَر اُدنُ يا عُمَير!**» فدنا ثم قال: أنعموا صباحًا. وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول اللَّه ﷺ:

«**قَدْ أكرَمَنَا اللهُ بتَحية خَيْرٌ مِنْ تَحيّتِكَ يَا عُمَيرُ، بالسَّلاَمِ، تحيّةُ أهلِ الجنَّة**». فقال: أما واللَّه يا محمد إن كنت لحـديث عهد بها. قال: «**فَمَا جاءَ بكَ يـا عُمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا إليه. قال: «**فَمَا بَالُ السَّيف فِـى عُنُـقِـكَ؟**» قال: قـبّحها اللَّه من سـيوف وهل أغنت عنّا شيئًـا. قال: «**اصدُقنى مَا الَّذى جئتَ لَهُ؟**» قال: ما جئت إلا لذلك. قال: «**بَلْ قَعدتَ أَنتَ وصَفْـوان بن أمية فى الحجـر فَقُلْتَ: أَما والله لولاَ دينٌ عليَّ لَيس لَهُ عندي قَـضَاءٌ، وعيالٌ أَخشَى عَلَيهُم الضّيعَةَ بَعدي لَركبتُ إلى مُحمد حتّى أَقتلَهَ، فقالَ لكَ صَفوانُ: على دَيْنُكَ أَنا أَقـضيَـه عنْكَ وَعيـالُكَ مَعَ عِيالـي أُواسيهم مَـا بَقُوا، لا يَسـعُني شَىءٌ ويَعـجَـزُ عَنهُم**» فقال عـمير: أشهد أنك رسول الـلَّه، قد كنا يا رسول اللَّه نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السـماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان، فواللَّه إنى لأعلم ما أتاك به إلا اللَّه، فالحمد للَّه الذى هداني للإسلام وسـاقني هذا المساق. ثم شهـد شهادة الحق. فـقال

رســول اللَّه ﷺ: «فَقِّهُوا أَخَاكُم فِى دِينِه، وأَقْرِئُوه القُرآن، وأَطلِقُوا لَهُ أَسِيرَه، فَفَعَلُوا»[١].

ولما قـدم رسـول اللَّه ﷺ المدينة كان يخـاف على نفسه الغيلة، فـاتخذ حرساً حـتى أنزل اللَّه عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]

أى: يا أيها الرسـول بلغ أنت رسالتى، وأنا حافظك وناصـرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل إليك أحد منهم بسوء.

عن عائشـة رضى اللَّه عنها قالت: سـهر النبىّ ﷺ ذات ليلة مـقدمـه المدينة، فـقلت: ما شـأنك؟ قال: «لَيْتَ رَجُـلاً صَالحًا مِنْ أَصْـحَابِى يَحـرُسُنِى الليـلة». قالت: فبينما نحن كذلك سمـعنا خشخشة سلاح، فقال: «مَـنْ هَذا؟» قال: سعد بن مالك. قال: «مَا جَاءَ بِكَ؟» قال: جئت أحرسك يا رسول اللَّه. قـالت: فسمـعت غطيط رسول اللَّه ﷺ[٢]، فلمـا نزلت الآية قال: «يَا أَيُّها الناسُ انصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِى الله»[٣].

ولما كـان يوم أحد وتنازع المسلمـون وعـصوا اللَّه ورسـوله، وسلط اللَّه عليهم المشركين انصرفوا عن رسول اللَّه ﷺ فعصمه اللَّه:

عن سعد بن أبى وقاص رضى اللَّه عنه قال: «رأيت يوم أحد عن يمين رســول اللَّه ﷺ وعـن شمـاله رجليْـن عليهما ثـيـاب بيض، يقاتلان دونه

---

(١) سيرة ابن هشام (٣١٦ - ٣١٨ /٢).

(٢) متفق عليه: خ (٢٨٨٥/ ٨١/ ٦)، م (٢٤١٠/ ١٨٧٥/ ٤)، ت (٣٨٤٠/ ٣١٥/ ٥).

(٣) صحيح: ت (٥٠٣٧/ ٣١٧/ ٤).

أشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد يعنى جبريل وميكائيل»[١].

وعن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه عنه قال: «غزونا مع رسول اللَّه ﷺ غزاةً قبل نجد، فأدركنا رسول اللَّه ﷺ فى القائلة فى واد كثير العضاة، فنزل ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرق الناس فى الوادى يستظلون بالشجر، فقال ﷺ «**إنَّ رجلاً أتانى وأنَا نائمٌ فَأَخَذَ السَّيفَ فاستَيقَظْتُ وَهو قَائمٌ عَلَى رَأسِي والسَّيف صلتًا فِي يَدِه، فقال: من يمنعك منى؟ قلت: اللَّه. قال: من يمنعك منى؟ قلت: اللَّه. قال: فشام السيف، فها هو ذا جالس**»، ثم لم يعرض له رسول اللَّه ﷺ. وكان ملك قومه، فانصرف حين عفا عنه فقال: «لا أكون فى قوم هم حرب لك»[٢].

وكأن الرجل لما شاهد ذلك الثبات العظيم، وعرف أنه حيل بينه وبينه تحقق صدقه وعلم أنه لا يصل إليه، فألقى السلاح وأمكن من نفسه.

«وحدث أن قتل رجلٌ من المسلمين رجلين مشركين من بنى عامر، معهما عقد وعهد من رسول اللَّه ﷺ لم يشعر به، فأخبر رسول اللَّه ﷺ فقال: «**لقد قتلت قتيلين لأودنيهما**».

فخرج ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى ديتهما، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف، فلما أتاهم يستعينهم قالوا: نعم نعينك. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحال، وكان النبى ﷺ جالساً إلى جانب جدار لهم. فقالوا: من رجل يعلو على هذا البنيان فيلقى هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟ فانبعث لذلك أشقاهم عمرو بن

(١) متفق عليه: خ (٤٠٥٤/٣٥٨/٧)، م (٢٣٠٦/١٨٠٢/٤).
(٢) متفق عليه: خ (٤١٣٩/٤٢٩/٧)، م (٨٤٣/١٧٨٦/٤).

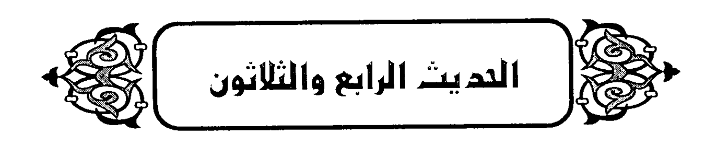
كعب، فأتاه الخبر من السماء، فقام مظهراً أنه يقضى حاجة، وقال لأصحابه: «**لا تَبَرحُوا**»، ورجع مسرعاً إلى المدينة. واستبطأه أصحابه فأخبروا أنه توجه إلى المدينة فلحقوا به، فأخبرهم بأمرهم، وأمر بحربهم والمسير إليهم»(١).

وعن جابر رضى اللَّه عنه: «أن يهودية من أهل خيبر سمّت شاةً مصلية، ثم أهدتها لرسول اللَّه ﷺ، فأخذ رسول اللَّه ﷺ الذراع، فأكل منها وأكل رهط من أصحابه معه. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ارفَعُوا أيديَكُم**». وأرسل إلى اليهودية فدعاها فقال: «**سَمَمْتِ الشَّاةَ؟**» قالت: من أخبرك؟ قال: «**أَخْبَرتنى هَذه فى يَدِى**» للذراع. قالت: نعم. قلت: إن كان نبيًّا فلن تضرّه، وإن لم يكن نبيًّا استرحنا منه. فعفا عنها رسول اللَّه ﷺ ولم يعاقبها»(٢).

«ولما فتح النبى ﷺ مكة وطاف بالبيت، جاء رجل من المشركين يسمى فضالة بن عمير يريد قتل النبى ﷺ وهو يطوف، فلما دنا منه قال ﷺ: «**أَفُضَالةُ؟**» قال: نعم فضالة يا رسول اللَّه! قال: «**مَاذا كُنتَ تُحدِّثُ به نَفْسَكَ؟**» قال: لا شىء، كنت أذكر اللَّه. قال: فضحك رسول اللَّه ﷺ ثم قال: «**استَغفِر الله**». ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: واللَّه ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق اللَّه شىء أحبّ إلىّ منه»(٣).

* * *

(١) سيرة ابن هشام (١٩٩ و٢٠٠/٣).
(٢) حسن صحيح: د (٤٤٨٧/٢٢٩ و٢٣٠/١٢).
(٣) سيرة ابن هشام (٥٩/٤).



الحديث الرابع والثلاثون

عَنْ خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُم يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[1].

وهكذا أخبر النبيّ ﷺ بإتمام هذا الأمر وانتشاره، وهذا مما أظهره اللَّه عليه من الغيب، ولقد تكررت مثل هذه البشارة منه ﷺ لأمته بظهور الدين وغلبته، وفتحهم الكنوز والبلاد والأمصار، وكلّ ذلك من معجزاته ﷺ.

ومن ذلك: حديث عديّ بن حاتم رضى اللَّه عنه قال:

بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه

(١) صحيح: البخارى (٣٦١٢/٦١٩/٦).

قطع السبيل، فقال: يا عدىّ! هل رأيتَ الْحِيرَةَ؟ قلت: لم أرها، وقد أُنبئتُ عنها. قال: إن طالت بك حياةٌ لترينَّ الظعينة[1] ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لاتخاف أحداً إلا اللَّه تعالى. قلت فيما بينى وبين نفسى: فأين دُعَّار[2] طَيء الذين سعَّروا البلاد[3]؟ ولئن طالت بك حياة لَتُفْتَحَنَّ كنوزُ كسرى. قلت: كسرى بن هُرْمُز؟ قال: كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياة لترَيَنَّ الرجلَ يُخرج ملْءَ كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه.

ولَيَلْقَينَّ اللَّهَ أحدُكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يُترجم له، فيقولنّ: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلّغك؟ فيقول: بلى يارب. فيقول: ألم أعطك مالاً أو أُفْضِل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم.

قال عدىّ: فسمعت النبى ﷺ يقول: **«اتّقوا النّارَ ولو بشقِّ تمرة، فَمنْ لَمْ يَجدْ شقّ تمرة فَبكلمَة طَيِّبة»**.

قال عدىّ: فرأيتُ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا اللَّه، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لتروُنّ ما قال النبى ﷺ: **«يُخرجُ الرجل مِلء كَفّه مِن ذَهب أَو فضّة يَطلبُ مَنْ يَقبلُه منه فَلا يَجد أَحدًا يَقبلُه منهُ»**[4].

وعن ثوبان رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إنَّ اللّه زَوَى لى**

---

(١) **الظعينة**: المرأة ما دامت فى الهودج، هذا هو الأصل، ثم سميت به المرأة ظعينة وإن لم تكن فى الهودج ولامسافرة.

(٢) **الدّعار**: قطاع الطريق، والذين يخيفون الناس فى مقاصدهم. وأصل الدّعر: الفساد.

(٣) **سعّروا البلاد**: ملؤوها شرًّا وفساداً، مأخوذ من استعار النار، وهو إيقادها والتهابها

(٤) صحيح: خ (٣٥٩٥/ ٦١٠ و٦١١/٦).

الأرض فرأيتُ مشارقَها ومغاربها، وإنّ أُمّتي سيَبْلُغ مُلكها ما زوى لي منها، وأُعطيت الكنزين الأحمرَ والأبيضَ»(١).

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: «أتيتُ النبيّ ﷺ في غزوة تبوك وهو في قُبَّة من أدم، فقال: «اعدُد ستًّا بينَ يَدَى السَّاعة: مَوتى، ثُمَّ فَتحُ بيت المقدس، ثمَّ مُوتان(٢).يأخذُ فيكُم كقُعاص(٣). الغنم، ثمَّ استفاضةُ المال حتّى يُعطَى الرّجل مائةَ دينار فيظل ساخطاً، ثمَّ فتنةٌ لا يَبقَى بيتٌ من العَربِ إلا دَخَلَتهُ، ثم هُدنةٌ تكونُ بينكُم وبينَ بَنى الأصفر(٤). فيغدُرون، فيأتونكُم تَحتَ ثمانين غاية(٥)، تحت كلِّ غاية اثنا عشرَ ألفاً»(٦).

وعن أبى ذرّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكُم ستَفتحُون مصرَ، وَهي أرضٌ يُسمّى فيها القيراطُ، فَإذا فتحتُمُوهَا فَأحسِنُوا إلى أَهلها فإنّ لَهُم ذمّة ورَحما»(٧).

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: بَينمَا نَحنُ حَولَ رسولِ ﷺ نكتُب إذْ سُئِلَ ﷺ: أيُّ المدينتين تُفتحُ أَوْلاً؟ أقُسطنطينيةُ أو رُوميةُ؟ فقال ﷺ: «مَدينةُ هرقل تُفتحَ أوّلاً يَعنى قُسطنطينيةُ»(٨).

---

(١) صحيح: م (٢٨٨٩/ ٢٢١٥/ ٤)، ت (٢٢٦٧/ ٣١٩ و٣٢٠/ ٣)، د (٤٢٣٢/ ٣٢٢/ ١١).

(٢) مُوتان: الموتان بضم الميم: موت يقع فى الماشية فيهلكها.

(٣) القُعاص: داء يأخذ الغنم، لا يُلبثها أن تموت.

(٤) بنو الأصفر: هم الروم.

(٥) الغاية: الراية.

(٦) صحيح: البخارى (٣١٧٦/ ٢٧٧/ ٦).

(٧) صحيح: مسلم (٢٥٤٣/ ١٩٧٠/ ٤).

(٨) صحيح: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» رقم (٤) وقال: رواه أحمد (٢/ ١٧٦)، وابن أبى شيبة فى «المصنف» (٤٧/ ١٥٣/ ٢)،وأبو عمرو الدانى فى «السنن الواردة فى الفتن» (١١٦/ ٢)،والحاكم (٣/ ٤٢٢، ٤/ ٥٠٨)، وعبد الغنى المقدسى فى «كتاب العلم» (٢/ ٣٠/ ١).

وقد تحقق الفتح الأول على يد السلطان محمد الفاتح كما هو معروف، وسيتحقق الفتح الثانى بإذن اللَّه ولابد، ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾ [ص: ٨٨].

وعن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقومُ السّاعةُ حتى يُقاتلُ المسلمُون اليهودَ، فيقتُلَهُم المسلمُون حتى يَختَبِئ اليهوديُّ وراءَ الحَجَرِ والشّجَرِ، فيقولُ الحجرُ والشجرُ: يا مسلمُ يا عبدَ اللَّه! هذا يهوديٌّ خَلفِى فتعالَ فاقتُلْهُ، إلا الغرْقَد فإنّه مِن شجرِ اليهود**»[1].

ومن إخباره ﷺ بما أظهره اللَّه عليه من الغيب: إخباره بمقتل نفر من المشركين يوم بدر:

عن عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه قال: إن رسول اللَّه ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر، يقول: «**هذَا مصْرعُ فلانٍ غَدًا إنْ شَاءَ اللهُ، وهذَا مصْرعُ فلانٍ غَدًا إنْ شَاءَ اللهُ**».

قال عمر: والذى بعثه بالحق ما أخطئوا الحدود التى حدّ رسول اللَّه ﷺ.

وعن سعد بن معاذ رضى اللَّه عنه قال: كنت صديقاً لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعدٌ إذا مرّ بمكة نزل على أمية، فلما قدم النبىّ ﷺ المدينة انطلق سعدٌ معتمراً، فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لى ساعة خلوة، لعلى أن أطوف بالبيت.

فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان! من هذا معك؟ فقال: هذا سعد.

---

(١) متفق عليه: م (٢٩٢٢/٢٢١٩/٤) وهذا لفظه، خ (٢٩٢٦/١٠٣/٦).
(٢) صحيح: م (٢٨٧٣/٢٢٠٢ و٢٢٠٣/٤)، نس (١٠٩/٤).

فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقـد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتغـيثونهم؟! أما واللَّه لولا أنك مع أبى صفـوان ما رجعت إلى أهلك سالماً. فقال له سعد، ورفع صوته عليه:

أما واللَّه لئن منعتنى هذا لأمنعنـك ما هو أشدّ عليك منه، طريقك على المدينة.

فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبى الحكم سيد أهل الوادى. فقال سعد: دعنا عنك يا أميـة، فواللَّه لقد سمعت رسول اللَّه ﷺ يقـول إنه قاتلك.

قال: بمكة؟ قـال: لا أدرى. ففزع لذلك أميـة فزعاً شـديداً. فلما رجع أمية إلى أهله قـال: يا أم صفوان! ألم ترى ما قال سعـد؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم أن محـمداً أخبرهم أنه قاتلى. فـقلت له: بمكة؟ قال: لا أدرى. فقال أمية: واللَّه لا أخرج من مكة.

فلما كان يوم بدر اسـتنفر أبو جهل الناس، قال: أدركـوا عيركم، فكره أمية أن يخرج.

فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صـفوان! إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادى تخلفوا معك. فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتنى فواللَّه لأشترين أجود بعير بمكة.

ثم قال أمـية: يا أم صفـوان جهّزينى. فـقالت له: يا أبا صفـوان! وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربى؟ قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً.

فلما خرج أمية أخذ لا ينزل منزلاً إلا عـقل بعيره، فلم يزل كذلك حتى

قتله اللّه عز وجل ببدر[١].

ومن إخبـاره ﷺ بما أظهره اللّه عليـه من الغيب: إخباره بقـتل نفر من أصحابه يوم مؤته قبل أن يأتيه الخبر: عن أنس رضى اللّه عنه قال:

نعى النبيّ ﷺ زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم. فقـال: «**أخذَ الرايةَ زيدٌ فأُصيبَ، ثمّ أخذَها جعفرٌ فأصيبَ، ثمّ أخذَهَا ابنُ رواحةَ فأُصيبَ** ـ وعيناه تذرُفان ـ **حتى أَخذَ الرايةَ سيفٌ مِنْ سيوفِ الله** ـ يعنى خالد بن الوليدِ ـ **حتّى فتَحَ اللهُ عليهم**»[٢]

ومن ذلك: إخباره ﷺ عن رجل ممن يدّعى الإسلام قاتل معه يوم حنين أنه من أهل النار:

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال: «شـهدنا مع رسول اللّه ﷺ خيـبر، فقال ﷺ لرجل ممن معه يدّعى الإسلام: «**هَذَا مِنْ أهلِ النّار**».

فلما حضر القتال قاتل الرجلُ من أشـدّ القتال، فكثرت به الجراح، فجاء رجل فقال يا رسول اللّه! أرأيت الذى تحـدّث أنه من أهل النار! قد قاتل فى سبيل اللّه من أشدّ القتال فكثرت به الجراح.

فقال ﷺ «**أمَا إنّهُ مِنْ أَهلِ النّار**».

فكاد بعض النـاس يرتاب، فـبيـنمـا هو على ذلك إذ وجـد الرجلُ أَلَمَ الجراح فأهوى بيـده إلى كنانته فانتزع سـهماً فانتـحر بها. فاشـتدّ رجال من المسلميـن إلى رسول اللّه ﷺ فقالوا: يا رسول اللّه! صـدّق اللّه حديثك قد انتحر فلان وقتـل نفسه. فقال ﷺ: «**اللهُ أكبرُ! أَشهـدُ أَنِى عبدُ اللهِ ورسولُه، يا**

(١) صحيح: البخارى (٣٩٥٠/ ٢٨٢/ ٧).

(٢) صحيح: خ (٣٧٥٧/ ١٠٠ و١٠١/ ٧)، نس (٢٦/ ٤) الموقوف فقط.

بلالُ قُمْ فأذّن: لا يدخلُ الجنةَ إلاّ مؤمنٌ، وإنَّ اللهَ لَيؤيِّدُ هذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ»[١]

ومن ذلك: إخباره ﷺ بأهوال تكون بين يدى الساعة:

عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: قـال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقُومُ الساعـةُ** حتَّى تقتتلُ فئـتان عظيمتان تكُونُ مَقْتلةٌ عظيمةٌ، دَعْواهمَـا واحدةٌ، وحتَّى يُبعثَ دَجّالونَ كذّابونَ قريبًا منْ ثلاثينَ، كُلُّهم يزعُمُ أنه رسـولُ الله، وحتَّى يقبضَ العلمُ، وتكثرَ الزلازلُ، ويتقاربَ الزمانُ، وتظهرَ الفتنُ، ويكثرَ الهرجُ وهُوَ القتلُ، وحتَّى يكثرَ فيكُمُ المالُ، فيفيضَ حتَّى يُهِمَّ ربَّ المالِ مَنْ يقبلُ صدقَتَه، وحتَّى يعرضَهُ، فيقُول الذى عرضَهُ عليه: لاَ أَرَبَ لى فيه، وحتَّى يتطاولَ النَّاسُ فى البنيان، وحتَّى يمرّ الرجلُ بقبر الرجل فيقولُ: يا ليَتنى مَكَانَهُ، وحتَّى تطلُعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طَلُعتْ ورآها الناسُ آمنُوا أجمعُون، فذلكَ حينَ لا ينفعُ نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنَتْ منْ قَبل أو كَسَبَتْ فى إيمانها خيرًا»[٢].

ومما يبشر بالخير وينـهى الأمة عن اليأس: إخباره ﷺ برفع الخـلافة ثم عودتها:

عن حذيفة رضى اللَّه عنه قال: قال النبى ﷺ: «تكونُ النبوةُ فيكُم ما شَاءَ اللَّهُ أنْ تكُونَ، ثم يرَفعُها إذا شَاءَ أن يرفعهـا ثم تكُونُ خلافةٌ على منهاجِ النبوةِ فتكونُ ما شَاءَ اللَّهُ أنْ تكونَ، ثم يرفعُها إذَا شَاءَ أنْ يرَفَعها ثم تكونُ مُلكاً عاضًّا، فتكونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أنْ تكونَ، ثم يرفعُها إذَا شاءَ أنْ يرَفَـعها، ثم تكونُ مُلكًا جبرية فتكونُ ما شَاءَ اللَّه أنْ تكونَ، ثم يرفَعُها إذَا شاءَ أنْ يرفَعَـها، ثم تكونُ خِلافةٌ على مِنهَاجِ النبوةِ ثم سَكتَ»[٣].

---

(١) متفق عليه: خ (٦٦٠٦/٤٩٨ و٤٩٩/١١)، م (١١١/١٠٥ و١٠٦/١).

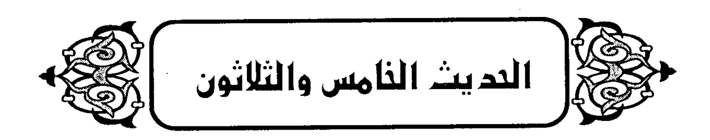
(٢) صحيح: خ (٧١٢١/٨١ و٨٢/١٣)، مفرّقاً: ١٥٧ فى الزكاة، ٢٩١٢، ٢٩٢٢، ١٥٧ فى الفتن.

(٣) حسن: أ (١٥/ ١٠/ ٢٣)

وهكذا أخبر النبى ﷺ بعودة الخلافة بعد رفعها.

وقد رفعت الخلافة منذ سبعين عاماً، ونحن نرجو اللَّه أن تعود قريباً بمنّه وكرمه، وهى عائدة إن شاء اللَّه، شاء الناس أم أبوا، رضوا أم سخطوا، ولكن على من أراد لنفسه النجاة أن يعمل جاهداً على إعادتها لينال بذلك الشرف والمجد، وإلا فهى عائدة بإذن اللَّه ولو كره المجرمون.

* * *



الحديث الخامس والثلاثون

عَنْ أبَى مُوسَى الْأَشْعرىَّ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَال : خَرجَ أبُو طَالب إلَى الشَّام وَخرَجَ مَعَهُ النَّبيّص فِى أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْش (يعنى قبل البعثة) فلَمَّا أشْرفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبطُوا فَحلُّوا رحالهُمْ فخَرجَ إليْهم الرَّاهبُ ، وكَانُوا قَبْلَ ذَلك يمُرّوُن به فلاَ يَخْرجُ إليْهمْ . قَالَ : فَهُمْ يحُلُّونَ رحَالهُمْ فجَعَل الرَّاهبُ يتخَلّلُهُمْ حتَّى جاءَ فأخَذَ بيدِ رَسُول الله ﷺ وَقالَ : هَذاَ سَيِّدُ المُرْسلينَ ، هَذا رَسُولُ ربِّ العَالَمينَ ، يبْعثُهُ اللَّهُ رَحْمةً للعالَمِينَ . فَقَالَ لَهُ أشْيَاخُ مِنْ قُرَيْشٍ : مَا علْمُكَ ؟ فَقَالَ : إنّكُم حينَ أشْرَفتم منَ العقبة لَمْ يبْقَ شَجرٌ وَلاَ حَجرُ إلاَّ خرَّ سَاجداً ، ولاَ يَسْجُدانَ إلا لنبىّ ، وإنىَّ أعْرفُهُ بخَاتَم النُّبُوَّة أسفَل منْ غُضْرُوف كتفه[1] مثْلُ التّفَّاحَة ، ثُمَّ رَجعَ فَصنَع لَهُمْ طَعَاماً ، فلَمَّا أتَاهُمْ بهِ وكَانَ هُوَ فى رعْية الإبل قَال : أرْسلواْ إليه ، فَأقْبلَ وعَلْيه غَمَامَةُ تُظلّهُ ، فَلمَّا دَنا منَ القَوم وجدهُم قدَ سَبَقُوه إلى فىءِ شَجرَة ، فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ فىءُ الشَّجرَة

(١) **غضروف الكتف** : رأس لوجه .

عَلَيْه . فَقَالَ : انظُروا إلىَ فَيْءِ الشَّجَرَة مَال عَلَيهَ ! فَقَال : أُنْشُدُكُم الله أَيُّكُمْ وَلِيُّه ؟ قَالُوا : أَبُو طَالب . فَلَمْ يَزلْ ينُاَشدُهُ حتىَ رَدَّهُ أَبُو طَالَب وَبعَثَ مَعَه أُبَا بَكر ، وَزَوَّدهُ الراهبُ منَ الكعك وَالزَّيْت[1] .

وهكذا سجد الشجر والحجر له ﷺ قبل البعثة ،وكلمه الشجر والحجر بعد البعثة ، فمن معجزاته ﷺ تكليم الجمادات له والبهائم ، وقد تكرر ذلك معه ﷺ وحفظ فى دواوين السنة ومنها :

وعن جابر بن سمرة رضى اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: **«إن بمكة حجراً كان يُسلّم علىّ ليالىَ بُعثت، إنى لأعرفه الآن»**[2] .

وعن مَعْين بن عبد الرحمن قال: سمعت أبى قال: سألت مسروقاً: من آذن النبىّ ﷺ بالجنّ ليلة استمعوا القرآن؟ قال: حدثنى أبوك - يعنى عبد اللَّه ابن مسعود - أنه قال: آذنت بهم شجرة[3] .

وعن أنس رضى اللَّه عنه قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ وهو جالسٌ حزين قد تخضّب بالدم من فعل أهل مكة، فقال: **«يا رسول اللّه، هل تحبّ أن نُريك آية؟ قال: نعم. فنظر إلى شجرة من ورائه فقال: ادع بها. فدعا بها فجاءت فقامت بين يديه. فقال: مُرْها فلترجع. فأمرها فرجعت. فقال ﷺ: حسبى حسبى»**[4] .

وعن جابر رضى اللَّه عنه قال: **كان النبىّ ﷺ إذا خطب استند إلى جذع**

---

(١) صحيح: ت (٣٦٩٩/ ٢٥٠ و٥/٢٥١).

(٢) صحيح: م (٢٢٧٧/ ١٧٨٢/ ٤)، ت (٣٧٠٣/ ٢٥٢ و٥/٢٥٣).

(٣) متفق عليه: خ (٣٨٥٩/ ١٧١/ ٧)، م (٤٥٠ - ١٥٣ -/ ٣٣٣/ ١).

(٤) صحيح: مى (٢٣/ ٢٠/ ١).، جه (٤٠٢٨/ ١٣٣٦/ ٢)

نخلة من سوارى المسجد، فلما صُنع له المنبر فاستوى عليه صاحت النخلة التى كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبىّ الذى يسكّت حتى استقرت. قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر[(١)].

وعن ابن عمر رضى اللَّه عنهما قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر، فأقبل أعرابىّ فلما دنا قال رسول اللَّه ﷺ: تشهد أن لا إله إلااللَّه، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله؟ قال: ومن يشهد على ما تقول؟ قال:

«هذه السّلَمة (شجرة من شجر البادية) فدعاها ﷺ وهو بشاطئ الوادى، فأقبلْت تخدّ الأرض (أى: تشقّها أخدودًا) حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً فشهدت ثلاثاً، ثم رجعت إلى منبتها»[(٢)].

وعن ابن عباسٍ رضى اللَّه عنهما قال: جاء أعرابىٌّ إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: بم أعرف أنك نبىّ؟ قال: إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة يشهد أنى رسول اللَّه فدعاه رسولُ اللَّه ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبىّ ﷺ، ثم قال: ارجع، فعاد، فأسلم الأعرابى»[(٣)].

وعن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: جاء ذئبٌ إلى راعى غنم فأخذ منها شاةً، فطلبه الراعى حتى انتزعها منه. قال: فصعد الذئب على تلّ فأقعى واستثفر (أى أدخل ذَنَبه بين رجليه أو بين إليتيه) فقال: قد عمدتُ إلى رزقٍ رزقنيه اللَّه أخذتُه ثم انتزعتَه منى! فقال الرجل: تاللَّه إن رأيت كاليوم ذئب يتكلم؟! فقال الذئب: أعجبُ من هذا رجلٌ فى النخلات بيْن الحرّتيْن

(١) صحيح: خ (٢٠٩٥/٣١٩/٤)، نس (١٠٢/٣).
(٢) صحيح: مى (١٦/ ١٧ و١٨/ ١).
(٣) حسن صحيح: ت (٣٧٠٧/ ٢٥٤/ ٥).

يخبركم بما مضى، وبما هو كائن بعدكم! قال: فكان الرجل يهوديًّا، فجاء إلى النبيّ ﷺ فأخبره وأسلم فصدّقه النبيّ ﷺ ثم قال النبى ﷺ: «**إنها أمارات بين يدى الساعة، قد أوشك الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى يحدثه نعلاه وسوطه بما أحدث أهلُه بعده**»(١).

وعن يعلى بن مرّة الثقفى رضى اللَّه عنه قال: ثلاثة أشياء رأيتها من رسول اللَّه ﷺ: بينما نحن نسير معه إذ مررْنا ببعير يُسْنَى عليه (أى: يُسْتقى عليه) فلما رآه البعير جَرْجَرَ (أى: صاح وردّد صوته فى حَلْقه) فوضع جرانه (أى مقدم عنقه)، فوقف عليه النبى ﷺ فقال: أين صاحب البعير؟ فجاءه. فقال: بعنيه. فقال: بل نهبه لك يا رسول اللَّه، وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره. فقال ﷺ: أما إذا ذكرت هذا من أمره فإنه شكا كثرة العمل وقلّة العلف، فأحسنوا إليه.

ثم سرنا حتى نزلنا منزلاً، فقام النبى ﷺ ، فجاءت شجرة تشقّ الأرض حتى غشيته ثم رجعت إلى مكانها. فلما استيقظ رسول اللَّه ﷺ ذكرت له، فقال: هى شجرة استأذنت ربّها فى أن تسلّم على رسول اللَّه ﷺ فأذن لها.

ثم سرنا فمررنا بماء، فأتته امرأة بابنٍ لها به جنّة، فأخذ النبى ﷺ بمنخره ثم قال: اخرج فإنى محمد رسول اللَّه. ثم سرنا. فلما رجعنا ومررنا بذلك الماء فسألها عن الصبىّ فقالت: والذى بعثك بالحق ما رأيت منه ريبةً بعدك(٢).

وعن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه عنهما قال: «سِرْنا مع رسول اللَّه ﷺ

---

(١) البغوى فى «شرح السنة» (٤٢٨٢/ ٨٧ و٨٨/ ١٥).

(٢) صحيح: أ (٧٤٦/ ٤٤/ ٢٢)، شرح السنة (٣٧١٨/ ٢٩٥ و٢٩٦/ ١٣).

حتى نزلنا وادياً أفيح، فذهب ﷺ يقضى حاجته، فاتّبعتُه بإداوة من ماء، فنظر ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادى، فانطلق ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصنٍ من أغصانها فقال: انقادى علىّ بإذن اللَّه، فانقادت معه كالبعير المخشوش (أى الذى قد جُعل فى أنفه الخشاش، وهو عُوَيد يجعل فى أنفه ليكون أسرع لانقياده) الذى يصانع قائده، حتى أتى إلى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصنٍ من أغصانها فقال: انقادى علىّ بإذن اللَّه، فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالنصف مما بينهما لأم بينهما (يعنى جمعهما) فقال: التئما علىّ بإذن اللَّه، فالتئما قال جابر: فخرجت أُحْضِرُ، مخافة أن يحِسَّ رسول اللَّه ﷺ بقربى فيبتعد، فجلست أحدّث نفسى فحانت منّى التفاتة، فإذا أنا برسول اللَّه ﷺ مقبلاً، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق. فرأيت رسول اللَّه ﷺ وقف وقفة، فقال برأسه هكذا (يميناً وشمالاً)، ثم أقبل، فلما انتهى إلىّ قال: يا جابر! هل رأيت مقامى؟ قلت: نعم يا رسول اللَّه. قال: فانطلق إلى الشجرتين فاقطع من كل واحدة منهما غصناً فأقبل بهما، حتى إذا قمت مقامى فأرسل غصناً عن يمينك، وغصناً عن يسارك.

قال جابر: فقمت فأخذت حجراً فكسرته وحسرته فانذلق لى (أى صار له حدٌ يقطع به) فأتيت الشجرتين، فقطعت من كل واحدة منهما غصناً، ثم أقبلت أجرّهما حتى قمت مقام رسول اللَّه ﷺ أرسلت غصناً عن يمينى وغصناً عن يسارى، ثم لحقته فقلت: قد فعلت يا رسول اللَّه، فعمّ ذلك؟ قال: إنى مررت بقبريْن يعذبان، فأحببت بشفاعتى أن يرفّه عنهما ما دام هذان الغصنان رطبين. قال: فأتينا العسكر، فقال ﷺ: يا جابر، نادِ

بوضوء. فقلت: ألا وضوء؟ ألا وَضوء؟ ألا وَضوء؟ قال: قلت: يا رسول اللَّه ما وجدتُ فى الركب من قطرة. وكان رجلٌ من الأنصار يبرّد لرسول اللَّه ﷺ الماء فى أشجاب[1] له على حمارة من جريدة[2]. فقال لى: انطلق إلى فلان بن فلان الأنصارى فانظر هل فى أشجابه من شىء؟ قال: فانطلقت إليه، فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة فى عزلاء شجبٍ منها (أى فمها الذى يخرج منه الماء)، لو أنى أفرغه لشربه يابسه.

فأتيت رسول اللَّه ﷺ فقلت يا رسول اللَّه،إنى لم أجد فيها إلا قطرة فى عزلاء شجبٍ منها، لو أنى أفرغه لشربه يابسه. قال: اذهب فأتنى به. فأتيته به، فأخذه بيده فجعل يتكلم بشىء لا أدرى ما هو ويغمزه بيديه، ثم أعطانيه فقال: يا جابر! نادِ بجفنة، فقلت: يا جفنة الركب فأتيت بها تحمل، فوضعها بين يديه، فقال ﷺ بيده فى الجفنة هكذا، وفرّق بين أصابعه، ثم وضعها فى قعر الجفنة، وقال: خُذ يا جابر فصبّ علىّ وقل بسم اللَّه، فصببت عليه وقلت بسم اللَّه، فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول اللَّه ﷺ، فثارت الجفنة ودارت حتى امتلأت. فقال: يا جابر! نادِ من كان له حاجة بماء. قال: فأتى الناس فاستقوا حتى رووا. قال: فقال: هل بقى أحدٌ له حاجة؟ فرفع ﷺ يده من الجفنة وهى ملأى.وشكا الناس إلى رسول اللَّه ﷺ الجوع، فقال: عسى اللَّه أن يطعمكم. فأتينا سيف البحر (ساحله وجانبه) فَزَخَرَ البحر زخرةً فألقى دابةً، فأورينا على شقّها النار فاطبخنا واشتوينا، وأكلنا حتى شبعنا.

---

(١) **الأشجاب**: جمع شجب وهو ما بَلِىَ من الأسقية.

(٢) وهى ثلاثة أعواد يشدّ بعض أطرافها إلى بعض، ويخالف بين أرجلها، ويعلق عليها الشعاء ليبرد الماء.

قال جابر: فدخلت أنا وفـلان وفلان حتى عدّ خمسة فى حـجاج عينها (وهو العظم المستـدير حولها) ما يرانا أحـد حتى خرجنا، فأخـذنا ضلعاً من أضـلاعـه فقـوّسناه ثم دعـونا بأعظـم رجل فى الركب، وأعظم جـمل فى الركب، وأعظم كفل فى الركب، فدخل تحته ما يطأطئ رأسه»[١].

تنبيــه:

ظن بعض الناس أن وضع الأغصان أو جريد النخل أو غيرهما من الزرع الأخضر سنّة، وأنه يخفف العذاب عن أهل القبور، فتوسعوا فى ذلك، وهذا ظنٌ خـاطئ، فـإن النبىّ ﷺ ما وضع الأغـصان والجـريد على غيـر هذين القبرين، وقد وضعـهما رجاء أن يخفف عنهما بشفاعتـه لا بشىء فيهما ولا لخاصية، وإنما بشفاعته رجا أن يخـفف عنهما ما لم ييبسا. فعلى المسلمين أن يقلعوا عن هذه البـدعة: بدعة وضع الأغـصان والجريد على القـبور، بل إن بعض الناس غالى فى ذلك فغرس الشجر على القبور.

ونحن نقول: لماذا هذا الفأل السيئ؟

إن الرسـول ﷺ وضع الغصنين على القبـرين لأنه علم أنهما يعذبان، فهل عَلِم أحدٌ عِلْمَ رسول اللَّه؟ أم أنه الفـأل السيئ؟ فلماذا هذا التفاؤل؟ لماذا لا نرجو لموتانا الرحمة والمغفرة.

نسـأل اللَّه أن يُرينا الحقّ حـقا ويرزقنـا اتباعـه، وأن يرينا البـاطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

❊ ❊ ❊

(١) صحيح: م (٣٠١٢ و٣٠١٣ و٣٠١٤/٣٠٦ - ٢٣٠٩/٤).



الحديث السادس والثلاثون

عَنْ سالِم بنِ أَبِى الجَعْدِ عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللّه قَالَ: «عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ وَرَسُولَ الله ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ مِنْهَا ثُمَّ أَقْبَلَ النَّاسُ نَحْوَهَ، فَقَالَ ﷺ: «مَا لَكُمْ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ الله لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَأُ بِهِ وَلاَ نَشْرَبُ إِلاَّ مَا فِى رَكْوَتِكَ. قَالَ: فَوَضَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَهُ فِى الرَّكْوَةِ فَجَعَلَ المَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ. قَالَ: فَشَرِبْنَا وَتَوَضَأْنَا. قَالَ: فَقُلْتُ لِجَابِرٍ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا أَلْفاً لَكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةٍ»[1].

من معجزاته ﷺ زيادة الطعام والشراب ببركته ﷺ، وهذا الحديث أحد الأحاديث المصرّحة بزيادة الماء ببركته ﷺ، وفى السنة أحاديث غيره تدل على ما دلّ عليه:

عن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه قال: **«كنا نعدّ الآيات بركةً وأنتم تعدّونها تخويفاً، كنا مع رسول اللّه ﷺ فى سفر فقلّ الماء، فقال: «اطلبوا لى فضلةً من**

(١) صحيح: خ (٣٥٧٦/ ٦/٥٨١).

ماء» فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، وأدخل يده فى الإناء ثم قال: «حىّ على الطهور المبارك، والبركة من اللَّه تعالى». فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول اللَّه ﷺ»[١] .

وعن أنس بن مالك رضى اللَّه عنه قال: «رأيتُ رسـول اللَّه ﷺ وحـانت صلاة العصـر فالتمس الناس الوضوء فلم يجـدوه، فأُتى رسول اللَّه ﷺ بوَضــوء، فوضع رسـول اللَّه ﷺ فى ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضئوا منه. قال: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه ﷺ، فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم»[٢] .

وعن عُمران بن حُـصَيْن رضى اللَّه عنه قال: «كنا فى سفـر مع النبى ﷺ، وإنا أسْرَيْنا حتى إذا كنا فى آخر الليل وقعنا وقعـة، ولا وقعة عند المسافر أحلى منها، فما أيقظنا إلا حـرّ الشمس، فكان أوّل من استيقظ فلان، ثم فـلان، ثم فلان، ثم عمر ابن الخطاب الرابع، وكان النبى ﷺ إذا نام لم نوقظه حتى يكون هو يستيقظ، لأنا لا ندرى مـا يحدث له فى نومـه، فلما استـيـقظ عمـر ورأى ما أصاب النـاس، وكان رجلاً جليداً[٣] ، كبّر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ لصوته النبىّ ﷺ، فلما استيقظ شكوا إليه الذى أصابهم فقال: «لا ضَـيْـر، ارتحلوا» فارتحل فسار غـير بعيد ثم نزل، ودعا بالوَضــوء فتوضأ، ونودى بالصلاة فصلى بالناس، فلما انفتل من صلاته إذ هو برجل معتزل لم يصل مع القوم، فقال: «ما منعك يا فلان أن تصلى مع القوم؟» قال: أصابتنى جنابة ولا مــاء. قال: «عليك بالصعـيد[٤] فإنه يكـفيك». ثم سـار النبى ﷺ

---

(١) صحيح: خ (٣٥٧٩/٥٨٧/٦)، ت (٣٧١٢/٢٥٧ و٢٥٨/٥)، نس (٦٠/١) مختصراً.

(٢) متـفق عليـه: خ (٣٥٧٣/ ٥٨٠/٦)، م (٢٢٧٩/١٧٨٣/٤)، ت (٣٧١٠/٢٥٦ و٢٥٧/٥)، نس (٦٠/١).

(٣) الجليد: الجلدُ القوىّ فى نفسه وجسمه.

(٤) الصعيد: وجه الأرض.

فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلاناً، ودعا عليًّا، فقال: «**اذهبا فأتيا الماء**». فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتيْن[١] من ماء على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟ فقالت: عهدى بالماء أمس هذه الساعة، ونفرنا[٢] خُلُوفًا[٣]. فقالا لها: انطلقى إذاً. قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول اللَّه ﷺ. قالت:

الذى يقال له الصابئ[٤]؟ قالا: هو الذى تعنين، فانطلقى. فجاءا بها إلى النبى ﷺ وحدّثاه الحديث. قال:

فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبى ﷺ بإناء، فأفرغ فيه من أفواه المزادتيْن وأوكأ أفواههما، وأطلق العزالى[٥]، ونودى فى الناس: اسقوا واستقوا، فسقى من شاء، واستقى من شاء، وكان آخر ذلك أن أعطى الذى أصابته الجنابة إناءً من ماء فقال: «**اذهب فأفرغه عليك**». وهى قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها، وايم اللَّه لقد أقلع عنها وإنه ليخيّل إلينا أنها أشدّ مِلأَةً منها حين ابتدأ فيها. فقال النبى ﷺ: «**اجمعوا لها**»، فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة، حتى جمعوا لها طعاماً، فجعلوه فى ثوب، وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها، وقال لها:

«**تعلمين ما رزئنا من مائك شيئاً، ولكن اللَّه هو الذى أسقانا**».

فأتت أهلها وقد احتبست عنهم، فقالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت:

---

(١) **المزادة**: القربة والراوية.

(٢) **النفر**: جماعة القوم.

(٣) **الخلوف**: الغيّب عن الحىّ، والمعنى أن الرجال قد خرجوا من الحىّ وأقام النساء. وقيل إن الخلوف من الأضداد، يكون بمعنى المقيمين والراحلين.

(٤) **الصابئ**: الذى خرج من دين إلى دين آخر، وكان المشركون يسمّون رسول الله ﷺ الصابئ لمفارقته دينهم.

(٥) **العزالي**: أفواه المزادة السفلى، واحدها: عزلاء.

العجب، لقينى رجلان فذهبا بى إلى هذا الصابئ ففعل كذا وكذا، واللَّه إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه، وقالت بإصبعيها السبابة والوسطى، فرفعتهما إلى السماء، تعنى السماء والأرض أو إنه لرسول اللَّه حقاً.

فكان المسلمون يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصّرم[1] الذى هى منه.

فقالت يوماً لقومها: ما أرى إلا أن هؤلاء القوم يدعونكم عمداً! فهل لكم فى الإسلام؟ فأطاعوها فدخلوا فى الإسلام»[2].

وعن أبى قتادة الأنصارى رضى اللَّه عنه قال: خطبنا رسول اللَّه ﷺ فقال: «**إنكم تسيرون من عشيّتكم وليلتكم وتأتون الماء إن شاء اللَّه غداً**» فانطلق الناس لايلوى أحدٌ على أحد. قال أبو قتادة: فبينما رسول اللَّه ﷺ يسير حتى ابهار[3] الليل وإنى إلى جنبه. قال: فنعس رسول اللَّه ﷺ فمال عن راحلته، فأتيته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته. قال: ثم سار، حتى إذا تهوّر[4] الليل مال عن راحلته. قال: فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته. ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال مَيْلةً هى أشدّ من المَيْلتيْن الأوليين، حتى كاد ينجفل[5]، فأتيته فدعمته، فرفع رأسه فقال: «**من هذا؟**» قال: أبو قتادة. قال: «**متى كان هذا سيرك منى؟**» قلت: ما زال هذا سيرى منذ الليلة. قال: «**حفظك اللَّه بما حفظت به نبيّه**».

---

(١) **الصّرم**: طائفة من القوم ينزلون بإبلهم ناحية من الماء منفردين.

(٢) متفق عليه: خ (٣٤٤/٤٤٧ و٤٤٨/١)، م (٦٨٢/ ٤٧٤ - ١/٤٧٦)..

(٣) **ابهارّ الليل**: مضى نصفه

(٤) **تهوّر الليل**: ذهب معظمه، وبقى أيسره.

(٥) **ينجفل**: ينقلب عن راحلته ويسقط.

ثم قال: «**هل ترانا نخفى على الناس؟**» ثم قال: «**هل ترى من أحد؟**» قلت: هذا راكب. ثم قلت: هذا راكب آخر، حتى اجتمعنا فكنا سبعة ركب. قال: فمال رسول اللَّه ﷺ عن الطريق فوضع رأسه. ثم قال:

«**احفظوا علينا صلاتنا**». فكان أول من استيقظ رسول اللَّه ﷺ والشمس فى ظهره، قال: فقمنا فزعين، ثم قال: «**اركبوا**». فركبنا، فسرنا حتى إذا ارتفعت الشمس نزل ثم دعا بميضأة كانت معى فيها شىء من ماء، قال: فتوضأنا منها وضوءاً دون وضوء، وبقى فيها شىء من ماء، ثم قال لأبى قتادة: «**احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ**». ثم أذّن بلال بالصلاة، فصلى رسول اللَّه ﷺ ركعتين، ثم صلى الغداة، فصنع كما كان يصنع كلّ يوم. قال: وركب رسول اللَّه ﷺ وركبنا معه. قال: فجعل بعضنا يهمس إلى بعض: ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا فى صلاتنا؟ ثم قال: «**أما لكم فىّ أسوة حسنة؟**» ثم قال: «**أما إنه ليس فى النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصلّ الصلاة حتى يجىء وقت الأخرى، فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها، فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها**». ثم قال: «**ما ترون الناس صنعوا؟**» قال: أصبح الناس فقدوا نبيهم، فقال أبو بكر وعمر: رسول اللَّه ﷺ بعدكم، لم يكن ليخلّفكم. وقال الناس: إن رسول اللَّه ﷺ بين أيديكم، فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرْشُدوا، قال: فانتهينا إلى الناس حين اشتدّ النهار وحَمِىَ كلّ شىء، وهم يقولون: يا رسول اللَّه هلكنا عطشاً. قال: «**لا هُلك عليكم**»، ثم قال: «**أطلقوا لى غُمَرى**»[1]. قال: ودعا بالميضأة، فجعل رسول اللَّه ﷺ يصبّ، وأبو قتادة يسقيهم، فلم يَعْدُ أن رأى الناسُ ماءً فى الميضأة تكابّوا عليها، فقال

---

(١) **الغُمر**: القدح الصغير.

رسول اللَّه ﷺ «**أحسنوا الملأ، كلكم سيروى**». قال: فـفعلوا، فـجعل رسول اللَّه ﷺ يصبّ وأسقيهم، حتى ما بقى غيرى وغير رسول اللَّه ﷺ. قال: ثم صبّ رسول اللَّه ﷺ فقال لى: «**اشرب**». فقلت: لا أشرب حتى تشرب يا رسول اللَّه. قال: «**إن ساقِيَ القوم آخرُهم**» قال: فشربت، وشرب رسول اللَّه ﷺ. قال: فأتى الناسُ الماء جامِّين رِواء»[١].

وعن البراء بن عازب رضى اللَّه عنه قال: «كنا مع النبى ﷺ أربع عشرة مائة، - والحديبية بئر - فنزحناها فلـم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ، فمضمض ودعا، ثم صبّه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصْدرتْنا ما شئنا نحن وركابَنَا»[٢].

وعن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول اللَّه لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[٣] فأكلنا وادهنا. فقال ﷺ: «**افعلوا**» فجاء عمر فـقال: يا رسول اللَّه إن فعلنا قلّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوارهم ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل اللَّه أن يجعل فى ذلك. فقال ﷺ: «**نعم**». قال: فدعا بنطع فبسط، ثم دعا بفضل أزوارهم، فجعل الرجل يجىء بكفّ ذرة، ويجىء الآخر بكفّ تمر، ويجىء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير.

قال: فدعا رسول اللَّه ﷺ بالبركة، ثم قال: «**خذوا فى أوعيتكم**».

---

(١) **جامين**: أى مستريحين من التعب والإعياء. و «الرواء»: جمع راوٍ، وهو المستكفى من الماء.
والحديث صحيح رواه: م (٦٨١/ ٤٧٢-٤٧٤/ ١)، وأخرج أبو داود بعضه مفرقاً، د (٤٣٣-٤٣٧/ ١٠٧-١١٣/ ٢).

(٢) **صحيح**: البخارى (٣٥٧٧/ ٥٨١/ ٦).

(٣) **النواضح**: الإبل التى يستقى عليها الماء.

قال: فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملئوه قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأنى رسول اللَّه، لا يلقى اللَّه بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيحجب عن الجنة**»[١].

وعن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه عنهما قال: لما حُفر الخندق رأيت برسول اللَّه ﷺ خمصاً[٢]، فانكفأت إلى امرأتى فقلت: هل عندك شىء؟ فإنى رأيت برسول اللَّه ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت إلىّ جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بُهيمة[٣] داجن فذبحتُها وطحَنَتْ، ففرغتْ إلى فراغى، وقطّعتُها فى بُرمتها، ثم ولّيتُ إلى رسول اللَّه ﷺ، فقالت:

لا تفضحنى برسول اللَّه ﷺ ومن معه! فجئته فساورته فقلت: يا رسول اللَّه ذبحنا بُهيمةً لنا، وطحنتْ صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك.

فصاح النبى ﷺ وقال: «**يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع سؤراً**[٤] **فحيهلا بكم**».

فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تُنزلُنّ بُرمتكم، ولا تَخبزُنّ عجينتكم حتى أجىء**».

فجئت، وجاء رسول اللَّه ﷺ يَقْدم الناس، حتى جئت امرأتى، فقالت: بكَ، وبكَ. فقلت: قد فعلت الذى قلتِ، فأخرجت عجيناً فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى بُرْمَتِنا، فبصق وبارك، ثم قال:

---

(١) صحيح: مسلم (٢٧/ ٥٥ و٥٦/ ١).

(٢) **الخمص والخميص**: ضامر البطن.

(٣) **البُهمية**: تصغير البهمة، وهى ولد الضأن. والداجن: الشاة التى تألف البيت وتتربى فيه.

(٤) **السؤر**: لفظة فارسية، معناها: الوليمة والطعام الذى يُدعى إليه. و «حيّهلا» كلمتان جُعلتا فى كلمة واحدة، ومعناها: تعالوا وعجّلوا.

«ادعى لى خابزة فلتخبز معك، واقدحى[١] من بُرمَتكم، ولا تُنزلوها». وهم ألف. فأُقسم باللَّه! لأكلوا حتى تركـوه وانحرفوا، وإن بُرْمتنا لتغط[٢] كمـا هى، وإن عجيننا لَيُخبز كما هو»[٣].

وعن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قـال: «آللَّه الذى لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمـد بكبدى على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحـجر على بطنى من الجوع، ولقـد قعدت يـوماً على طريقهم الذى يخـرجون منه، فـمرّ أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب اللَّه؟ ما سألته إلا ليستتبعنى، فمرّ فلم يفعل، ثم مرّ عمر، فسـألته عن آية من كتاب اللَّه؟ ما سألته إلا ليستـتبعنى فمرّ فلم يفعل. ثم مرّ بى أبو القاسم ﷺ، فتبسم حين رآنى وعرف ما فى وجهى وما فى نفسى. ثم قال: **«يا أبا هرّ؟»** قلت: لبّيك يا رسول اللَّه! قال: **«الحقْ»**. ومضى فـاتبعته، فـدخل فاستأذن، فـأذن لى، فدخل فوجـد لبناً فى قدح. فقال: «من أين هذا اللبن؟» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة.

قال: **«أبا هرّ!»** قلت: لبيك يا رسول اللَّه، قال: **«الحقْ إلى أهل الصفّة فادعهم لى»**.

قال: وأهل الصـفّة أضياف الإسـلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا إلى أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منهـا وأشركهم فيها، فـساءنى ذلك، وقلت: وما هذا اللبن فى أهل الصفـة؟ كنت أحقّ أن أصيب من هذا اللبن شَربةً أتقـوى بها. فإذا جـاءوا أمرنى، فكنت أنا أعطيهم، وما عـسى أن يبلغنى من هذا اللبن؟

(١) أقدحى : قدحت القدر :إذا غرفت ما فيها . والقديح : المرق . والمقدحه: المغرفة

(٢) لتغط: غطت القدر تغط: غلت، وغطيطها: صوتها.

(٣) متفق عليه: خ (٤١٠٢/ ٣٩٥ و٣٩٦/٧)، م (٢٠٣٩/ ١٦١٠ و١٦١١/٣).

ولم يكن من طاعة اللَّه وطاعة رسوله بُدٌّ. فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت. فقال: «**يا أبا هرّ!**» قلت: لبيك يا رسول اللَّه! قال: «**خذ فأعطهم**». قال:

فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل، فيشرب حتى يَروَى، ثم يردّ عليّ القدح، فأعطيه الآخر، فيشرب حتى يروى، ثم يردّ عليّ القدح، فأعطيه الآخر، فيشرب حتى يَروَى، ثم يردّ عليّ القدح، حتى انتهيت إلى النبىّ ﷺ، وقد رَوِىَ القومُ كلّهم، فأخذ القدح، فوضعه على يده، فنظر إلىّ، فتبسم، فقال: «يا أبا هرّ!» قلت: لبيك يا رسول اللَّه! قال: «**بقيتُ أنا وأنت**». قلت: صدقت يارسول اللَّه. قال: «**فاقعد فاشرب**». فقعدت فشربت. فقال: «**اشرب**». فشربت. فما زال يقول: «**اشرب**» حتى قلت: لا والذى بعثك بالحق، ما أجد له مسلكاً. قال: «**فأرنى**». فأعطيته القدح، فحمد اللَّه وسمّى، وشرب الفضلة»[(1)].

وعن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه عنهما:

«أن رسول اللَّه ﷺ جاءه رجل يستطعمه فأطعمه شطر وَسْق شعير، فما زال الرجل يأكل منه وامرأتُه وضيفُهما حتى كاله ففنى، فأتى النبىَّ ﷺ فقال: «**لو لم تكله لأكلتم منه، ولقام لكم**»[(2)].

وعنه رضى اللَّه عنه: «أن امرأة كانت تُهدى للنبى ﷺ فى عُكة لها سمناً، فيأتيها بنوها فيسألون الأُدم، وليس عندهم شىء، فتعمد إلى العُكة التى كانت تُهدى منها للنبى ﷺ فتجد فيها سمناً، فما زالت تُقيم لها أُدم بيتها

---

(١) صحيح: خ (٦٤٥٢/ ٢٨١ و٢٨٢/ ١١)، ت (٢٥٩٥/ ٦١ - ٦٣/ ٤).

(٢) صحيح: م (٢٢٨١/ ١٧٨٤/ ٤).

حتى عصرتها، فأتت النبى ﷺ فقال: «عصرتيها؟» قالت: نعم. قال: «**لو تركتيها ما زال قائماً**»[١].

وعن سلمة بن الأكوع رضى اللَّه عنه قال: «خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ فى غزوة فأصابنا جهدٌ، حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأَمَرَنا نبىُّ اللَّه ﷺ فجمعنا مزاودنا[٢] فبسطنا له نطعاً، فاجتمع زاد القوم على النّطع. قال: فتطاولت لأحزره كم هو؟ قال: حزرته، فإذا هو كربضة العنز، ونحن أربع عشرة مائة، قال: فأكلنا حتى شبعنا جميعًا، ثم حشونا جُرُبنا. فقال نبىّ اللَّه ﷺ: «**فهل من وَضوءٍ؟**» قال: فجاء رجل بإداوة فيها نُطفة[٣]، فأفرغها فى قدح فتوضأنا كلّنا.

نُدَغْفِقُه دَغْفَقَةً[٤]، أربع عشرة مائة. قال: ثم جاء بعد ثمانية فقالوا: هل من طهور؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**فرغ الوضوء**»[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح: مسلم (٢٢٨٠/١٧٨٤/٤).

(٢) **مزاود**: ما يتزوده الإنسان فى سفره من زاد وغيره.

(٣) **النطفة**: الماء القليل، ومنه سُمّى ماء الرجل: نطفة.

(٤) **ندغفقه**: دغفقت الماء دغفقة: إذا صببته صبًّا كثيراً.

(٥) صحيح: م (١٧٢٩/١٣٥٤ و١٣٥٥/٣) وهذا لفظه، وأخرجه البخارى بمعناه (٢٤٨٤/١٢٨/٥).

الحديث السابع والثلاثون

عَن ابْنِ عباسٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنهُـما قَالَ: أَتَـى النبيُّ ﷺ الْخَـلاءَ، فوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءاً، فَلَما خَرَجَ قَالَ: «مَنْ وَضَعَ هَذَا؟» فأُخْبِـرَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِى الدِّين»[1].

فكان بعد يُدعى حبـرُ الأمة، وترجمان القرآن، ببـركة دعوة النبى ﷺ. وإجـابة دعـائه ﷺ لجمـاعة بما دعا لهم أو عليـهم متواتر بالجـملة، معلوم بالضرورة.

ومنـــه:

عن عـبد اللَّه بن مـسعـود رضى اللَّه عنه قـال: «بينما رسـول اللَّه ﷺ يصلّى عند البـيت وأبو جـهل وأصـحـابٌ له جلوس، وقد نُـحِرت جَـزور بالأمس، فـقال أبو جهـل: أيّكم يقوم إلى سـلا جزور بنى فـلان، فيـأخذه فيضعه بين كَتِـفَىْ محمدٍ إذا سجد؟ فانبعث أشقى القـوم فأخذه، فلما سجد النبى ﷺ وضعه بين كتفيه فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، فلو كانت لى مَنَعَةٌ طرحتُه عن ظهر رسول اللَّه ﷺ، والنبىّ ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فـأخبر فاطمة، فجاءت ـ وهى

(١) متفق عليه: خ (١٤٣/ ٢٤٤/ ١) وهذا لفظه، م (٢٤٧٧/ ١٩٢٧/ ٤)..

جويرية ـ فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تسبّهم. فلما قضى النبيّ ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم. وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً. ثم قال: «**اللهمَّ عليكَ بقريشٍ**» ـ ثلاث مرات ـ» فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته. ثم قال: «**اللهمَّ عليكَ بأبى جهلِ بنِ هشَامٍ، وعتبةَ بنِ ربيعةَ، وشيبةَ بنِ ربيعةَ، والوليدِ بنِ عتبةَ، وأميةَ بن خلف، وعُقبةَ بن أبى مُعَيط**». وذكر السابع ولم أحفظه. قال: فوالذى بعث محمداً بالحق، لقد رأيت الذين سمّى صَرْعَى، ثم سُحبوا إلى القليب قليب بدر»[1].

وعنه رضى اللَّه عنه: «أن النبىّ ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال: «**اللهم سبع كسبع يوسف**». فأخذتهم سَنَةٌ حصّت كلّ شىء، حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع. فأتاه أبو سفيان فقال: يامحمد! إنك تأمر بطاعة اللَّه وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع اللَّه لهم. فدعا لهم، فسقوا الغيث»[2]..

وعن البراء بن عازب عن أبيه أنه قال لأبى بكر: يا أبا بكر حدثنى كيف صنعتما حين سريت مع رسول اللَّه ﷺ. قال:

«أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق لا يمرّ فيه أحد، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها، وسوّيت للنبىّ ﷺمكاناً بيدى ينام عليه، وبسطت عليه فروة، وقلت: نم يا رسول اللَّه وأنا أنفض ما حولك، فنام وخرجت أنفض ما

---

(١) متفق عليه: خ (٥٢٠/٥٩٤/١)، م (١٧٩٤/١٤١٨، ١٤١٩/٣)، نس (١٦١، ١٦٢/١) مختصراً

(٢) صحيح: خ (١٠٠٧/٤٩٢، ٤٩٣/٢)، م (٢٧٩٨/٢١٥٥، ٢١٥٦/٤)، ت (٣٣٠٧/٥٦، ٥٧/٥).

حـوله، فـإذا أنا براعٍ مـقـبل، قلت: أفى غنـمك لبن؟ قـال: نعم. قلت: أفتحلب؟ قال: نعم. فأخذ شاة فـحلب فى قعب كثبة من لبن، ومعى إداوة حملتها للنبى ﷺ يرتوى منها، يشرب ويتوضأ، فأتيت النبى ﷺ فكرهت أن أوقظه، فوافقته حتى استـيقظ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله. فقلت: اشـرب يا رسول اللَّه، فـشرب حتى رضـيت. ثم قال: «**ألـمْ يـأنِ للرَّحيلِ؟**» قلت: بلى. قال: فارتحلنا بعد ما مالت الشمس، واتبعنا سراقة بن مالك، فقلت: أُتينا يا رسول اللَّه! فقال:

«**لاَ تحزنْ إنَّ اللَّهَ مـعنَا**». فدعا عليه النبىّ ﷺ فارتطمت به فرسه إلى بطنها فى جَلَد من الأرض. فقال: إنى أراكما دعوتما علىّ، فادعوا لى، فاللَّه لكما أن أرد عنكمـا الطلب، فدعـا له النبى ﷺ فنجـا، فجعل لا يلـقى أحداً إلا قال: كفيتم ما ههنا، فلا يلقى أحداً إلا ردّه»[1].

وعن ابن عباس رضى اللَّه عـنهما: أن النبى ﷺ قال وهو فى قُـبّة يوم بدر: «**اللهمَّ أنشُدك عهدَك ووعدَك، اللهمَّ إنْ تشَأ لاَ تعبدُ بعدَ اليوْم**» **فأخذ أبو بكر بيده فـقال: حسبك يـا رسول اللَّه! ألححت علىَ ربك! فـخرج وهو يثب فى الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾** [القمر: ٤٥][2].

وعن عبد اللَّه بن عمرو رضى اللَّه عنهما: «أن النبى ﷺ خرج يوم بدر فى ثلاثمائة وخـمسة عشـر قال: «**اللهمَّ إنَّهم حُـفاة فـاحملهُم، اللهمَّ إنَّهـم عُراة فاكسِهم، اللهمَّ إنهم جياع فأشبعهُم**»، ففتح اللَّه عليه فانقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتسوا وشبعوا»[3].

---

(١) متفق عليه: خ (٣٦١٥/٦٢٢/٦)، م (٢٠٠٩/٢٣٠٩ و٢٣١٠/٤)

(٢) صحيح: البخارى (٤٨٧٥/٦١٩/٨).

(٣) حسن: أبو داود (٢٧٣٠/٤٢٢ و٤٢٣/٧).

وعن جابر بن عبد اللَّه رضى اللَّه عنهما قال:

«غزوت مع رسول اللَّه ﷺ وأنا على ناضح[١]. قد أعيى فلا يكاد يسير، فتلاحق بى النبى ﷺ فقال: «**ما لبعيرك؟**» قلت: قد أعيى. فتخلف رسول اللَّه ﷺ فزجره فدعا له، فما زال بين يدى الإبل، قدّامها يسير. فقال لى: «**كيف ترى بعيرك؟**» قلت: بخير، قد أصابته بركتك. قال:

«**أفتبعنيه بوقيّة؟**» فبعتُه على أن لى فقار[٢] ظهره إلى المدينة».

فلما قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة غدَوْتُ عليه بالبعير فأعطانى ثمنه وردّه علىّ»[٣].

وعنه رضى اللَّه عنه قال: «كان ليهودىّ على أبى تمر، فقُتل يوم أُحد وترك حديقتين، وتمر اليهودى يستوعب ما فى الحديقتين، فقال النبى ﷺ لليهودى: «**هلْ لكَ أنْ تأخذَ العامَ نصفَه وتؤخر نصفه؟**» فأبى اليهودى. قال النبى ﷺ: «**هل لك أن تأخذ الجداد[٤]؟**» فأبى. قال: «**فآذنى**». فآذنته فجاء هو وأبو بكر، فجعل يُجدّ ويكال من أسفل النخل، ورسول اللَّه ﷺ يدعو بالبركة، حتى وفينا جميع حقه من أصغر الحديقتين ثم أتيتهم برطب وماء، فأكلوا وشربوا. ثم قال: «**هذَا منَ النعيمِ الذى تسألُون عنهُ**»[٥].

اللَّه أكبر!! الرطب والماء من النعيم الذى تسألون عنه!! فماذا أنتم فاعلون بهذه النعم التى أنتم فيها اليوم تتقلبون؟ تصبحون فى ألوان من

---

(١) **الناضح**: الجمل يستقى عليه الماء ليسقى النخل والزرع وغيره.

(٢) **الفقار**: خرز الظهر، يقال: أفقرتُك ناقتى، أى: أعرتك فقارها لتركبها.

(٣) **متفق عليه**: خ (٢٩٦٧/١٢١/٦)، م (٧١٥ - ١١٠ -/١٢٢١، ١٢٢٢/٣).

(٤) **الجداد**: قطع ثمر النخل

(٥) **صحيح**: نس (٢٤٦/٦) وهذا لفظه، خ (٢٣٩٥/٥٩/٥) بمعناه.

الطعام والشراب، وتمسون فى ألوان! فيا إخوتاه اشكروا اللَّه يزدكم، وإياكم وكفر النعمة فتذهب عنكم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٤].

وعن أنس رضى اللَّه عنه: «أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر ورسول اللَّه ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول اللَّه ﷺ قائماً، فقال: يارسول اللَّه! هلكت المواشى، وانقطعت السبل، فادع اللَّه يغيثنا. قال: فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه فقال: «**اللهم اسقنا**» - ثلاثًا -. قال أنس: لا واللَّه ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة[١] ولا شيئاً، وما بيننا وبين سلع[٢] من بيت ولا دار. قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس[٣]، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت. قال: واللَّه ما رأينا الشمس ستًا. ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ورسول اللَّه ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائماً فقال: يا رسول اللَّه! هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع اللَّه يمسكها. قال: فرفع رسول اللَّه ﷺ يديه ثم قال: «**اللهم حَوَالَيْنا ولا**

---

(١) **القَزَعَة**: القطعة من الغيم.

(٢) **سلع**: جبل معروف بالمدينة.

(٣) **مثل الترس**: أى مستديرة.

"علينَا، اللهمَّ علَى الآكَام[١] والجبالِ والآجَام والظراب[٢]والأودِية ومنابتِ الشَّجر». قال: فانقطعت» وخرجنا نمشى فى الشمس»[٣].

وعن عـائشة رضى اللّـه عنها قـالت: «شكا الناس إلى رســول اللَّه ﷺ قحوط المطر، فـأمر بمنبر فوُضع له فى المصلى، ووعد الناس يومـاً يخرجون فيه. قالت عائشة: فخرج ﷺ حين بدا حاجب الشمس، فصعد على المنبر، فكبّـر وحمد اللّـه ثم قال: «إنكُم شكوتُم جدبَ ديـارِكم، واستئـخَار المطرِ عنْ إبَّان[٤] زمانه عنكُم، وقدْ أمركُم اللَّهُ أنْ تدعُوه ووعدَكم أن يستجيبَ لكُم». ثم قال: «الحمدُ للَّه ربِّ العالَميـن. الرحمنِ الرحيم. مالك يـومِ الدِّيـن. لاَ إلهَ إلا اللَّه يفعـلُ مَا يريدُ. اللهمَّ أنت اللَّهُ لا إله إلاَّ أنتَ الغنىّ ونحنُ الـفقراءُ، أنزلْ علينَا الغيثَ، واجعلْ فيمَـا أنزلتَ لنَا قوةً وبلاغاً[٥] إلى حِـين». ثم رفع يديه فلم يتـرك الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حـوّل إلى الناس ظهره، وقلب أو حوّل رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الـناس، ونزل فصلى ركعتـين، فأنشأ اللَّه سـحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن اللَّه، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكنّ[٦] ضحك حتى بدت نواجذه، وقال: «أشهدُ أنَّ اللَّهَ علَى كلِّ شيء قدير، وأنِّى عبدُ اللَّه ورسولُه»[٧].

---

(١) **الآكام**: جمع أكمة وهى الرابية المرتفعة من الأرض.

(٢) **الظّراب**: جمع ظَرِب، وهى صغار الجبال والتلال.

(٣) متفق عليه: خ (١٠١٣/١٠١٥/٢)، م (٨٩٧/٦١٢ - ٦١٤/٢)، نس (١٦٠ و١٦١/٣) مختصراً.

(٤) **إبّان زمان**: أى وقته وأوانه.

(٥) **البلاغ**: ما يتبلغ به، ويتوصل به إلى الشىء المطلوب.

(٦) **الكنّ**: ما يردّ الحرّ والبرد من الأبنية والمساكن.

(٧) حسن: أبو داود (١١٦١/٣٤ - ٣٧/٤).

وعن أنس رضى اللَّه عنه قال: «كان رجلٌ نصرانى أسلم فقرأ البقرة وآل عمران وكان يكتب الوحى للنبى ﷺ، فعاد نصرانيًا، وكان يقول: ما يدرى محمد إلا ما كتبت له. فقال ﷺ: «**اللهمَّ اجعلهُ آيةً**». فأماته اللَّه، فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له وأعمقوا ما استطاعوا، فأصبحوا وقد لفظته الأرض فقالوا مثل الأول. فحفروا له وأعمقوا، فلفظته الثالثة، فعلموا أنه ليس من الناس، فألقوه بين حجرين ورضخوا عليه الحجارة»[١].

وعن سلمة بن الأكوع رضى اللَّه عنه: «أن رجلاً أكل عند رسول اللَّه ﷺ بشماله، فقال: «**كل بيمينك**». قال: لا أستطيع. قال: «**لاَ استَطَعتَ، مَا منعهُ إلاَّ الكِبْرُ**». فما رفعها إلى فِيه»[٢].

وعن السائب بن يزيد رضى اللَّه عنه قال: «ذهبت بى خالتى إلى رسول اللَّه ﷺ فقالت: يا رسول اللَّه! إن ابن أختى وجع، فمسح رأسى ودعا لى بالبركة، فتوضأ فشربت من وضوئه، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر[٣] الحجلة[٤] قال الجعيد: رأيت السائب بن يزيد ابن أربع وتسعين جلداً معتدلاً، فقال: قد علمت ما متعت به من سمعى وبصرى إلا بدعاء رسول اللَّه ﷺ»[٥].

---

(١) متفق عليه: خ (٣٦١٧/ ٦٢٤/ ٦)، م (٢٧٨١/ ٢١٤٥/ ٤).

(٢) صحيح: مسلم (٢٠٢١/ ١٥٩٩/ ٣).

(٣) **الحجلة**: طير يسمى اليعقوب، يقال للأنثى منه حَجَلة، والمراد بزرّها بيضتها، وقد ورد فى حديث آخر «مثل بيضة الحمامة».

(٤) متفق عليه: خ (١٩٠/ ٢٩٦/ ١)، م (٢٣٤٥/ ١٨٢٣/ ٤)، ت (٣٧٢٣/ ٢٦٣/ ٥).

(٥) صحيح: خ (٣٥٤٠/ ٥٦٠/ ٦).

وعن أنس رضى اللَّه عنه قال: «دخل النبى ﷺ على أم سليم فأتته بتمر وسمن فـقال: «**أعيدُوا سمنَكم فى سقَـائه، وتمركم فى وعَائه، فإنِّى صائمٌ**». ثم قام إلى ناحية من البيت فصلى غير المكتوبة، فدعا لأم سليم وأهل بيتها.

فقالت أم سليم: يا رسول اللَّه! إن لى خويّصة. قال: «**ما هى؟**» قالت: خادمك أنس. قال: فما ترك لى خـير دنيا ولا آخرة إلا دعا لى به: «**اللـهمَّ ارزقه مالاً وولداً وباركْ له**».

قال أنس: فـإنى لمن أكثر الأنصـار مالاً، ولقد دفنت لصلبى إلى مـقدم الحجاج البصرة بضعاً وعشرين ومائة»[١].

وعن أبى هريرة رضى اللَّه عنه قال: «كنت أدعـو أمى إلى الإسلام وهى مشركة، فدعوتها يوماً فأسمعتنى فى رسول اللَّه ﷺ ما أكره. فأتيت رسول اللَّه ﷺوأنا أبكى. فقلت: يا رسول اللَّه! إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى علىّ، فدعوتـها اليوم فأسمـعتنى فيك ما أكره، فـادع اللَّه أن يهدى أم أبى هريرة، فقـال رسول اللَّه ﷺ: «**اللهمَّ اهـدِ أمَّ أبى هريرة**». فخرجت مسـتبشراً بدعوة النبى ﷺ، فلما جئت فصرت إلى الباب وقربت منه فإذا هو حجاف[٢] فسـمعتْ أمى خَـشْفَ[٣] قدمى، فـقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسـمعت خضخـضة الماء، فاغتـسلت ولبست درعها وعـجلت عن خمارها، فـفتحت

---

(١) صحيح: خ(١٩٨٢/٢٢٨/٤) هذا لفظه، وأخرج الدعاء مختصراً، م (٢٤٨٠/١٩٢٨/٤)، ت (٣٩١٧/٣٤٦/٥).

(٢) حُجاف: أى مغلق. يقال: أَجَفْتُ الباب: إذا أغلقته، فهو حجاف.

(٣) الخشف: الصوت والحركة.

الباب ثم قالت: يا أبا هريرة! أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

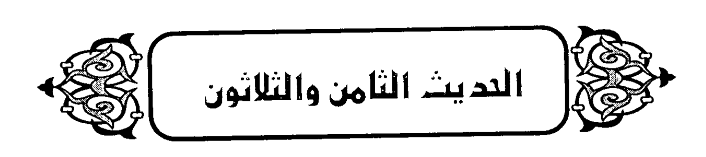
قال: فرجعت إلى رسول اللَّه ﷺ، فأتيته وأنا أبكى من الفرح، فقلت: يا رسول اللَّه أبشر فقد استجاب اللَّه دعوتك وهدى أم أبى هريرة، فحمد اللَّه وقال خيراً.

قال: فقلت: يا رسول اللَّه ادع اللَّه أن يحببنى أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، فقال ﷺ: **«اللهمَّ حبِّبْ عبدَك هذاَ وأمّه إلَى عبادك المؤمنين وحبب إليهِما المؤمنينَ»**، فما خلق اللَّه من مؤمن يسمع بى ولا يرانى إلا أحبنى[1].

* * *

---

(١) صحيح: مسلم (١٩٣٨/٢٤٩١ و١٩٣٩/٤).



الحديث الثامن والثلاثون

عن علي رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أتانى جبريل فقال: يامحمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس»[1].

هذه كلماتٌ جامعة من جوامع كلمه ﷺ التى أوتيها.

قال الغزالى: جمعت هذه الكلمات حِكَمَ الأولين والآخرين، وهى كافيةٌ للمتأمل فيها طول العمر، إذ لو وقف على معانيها، وغلبت على قلبه غلبة يقين استغرقته، وحالت بينه وبين النظر إلى الدنيا بالكلية والتلذذ بشهواتها. وقد تضمنت هذه الكلمات التنبيه على قصر الأمل، والتذكير بالموت واغتنام الأوقات، والتحذير من الاغترار بالاجتماع، والحث على التهجد، وبيان جلالة علم جبريل عليه السلام، وغير ذلك.

---

(١) حسن: أخرجه الألبانى فى «الصحيحة» (٨٣١) وحسّنه، وقال: أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (١/٦١/٢) من الجمع بينه وبين الصغير، والسهمى فى «تاريخ جرجان» (٦٢)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٣/٢٥٣)، والحاكم (٤/ ٣٢٤ - ٣٢٥).

وإنما خاطب جبريل النبىّ ﷺ باسمه المجرّد دون: يا أيها الرسول، أو: يا أيها النبىّ، لأنه المناسب لمقام الوعظ والتذكير»[١].

وقوله: «**عشْ مَا شئتَ فإنكَ ميّتٌ**»: إنما بدأ بذكر الموت لأنه أفظع ما يلقاه الإنسان وأبشعه، فهو أشدّ من ضرب بالسيوف، ونشرٍ بالمناشير، وقرضٍ بالمقاريض، وهو بمنزلة حَسَكةٍ كانت فى صوف، فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف؟!

روى أنه لما حضرت عمرو بن العاص الوفاةُ قال له ابنه: يا أبتاه! إنك كنت تقول: يا ليتنى كنت ألقى رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت حتى يصف لى ما يجد، وأنت ذلك الرجل، فصف لى ما تجد. فقال: يا بنى، واللَّه كأن جنبىّ فى تخت، وكأنى أتنفس من ثقب إبرة، وكأن غصن شوك يجذب من قدمى إلى هامتى[٢]. ولقد وجد رسول اللَّه ﷺ وهو خليل اللَّه من شدّة الموت شيئاً كثيراً، حتى أنه كانت بين يديه ركوةٌ أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «**لاَ إلهَ إلاَّ اللَّه، إنَّ للموتِ سكَرات**»[٣].

ولذا قالت عائشة رضى اللَّه عنها: لا أكره شدة الموت لأحد بعد النبى ﷺ[٤].

فيا أيها الناس: قد آن للنائم أن يستيقظ، وحان للغافل أن ينتبه، قبل

---

(١) صحيح: انظر «فيض القدير» (١/١٠٢).
(٢) التذكرة للقرطبى (ص ١٩).
(٣) صحيح: خ (٤٤٤٩/١٤٤/٨).
(٤) صحيح: خ (٤٤٤٦/ ١٤٠/٨)، نس (٦ و٧/٤).

هجوم الموت بمرارة كـأسه، وقبل سكون حركـاته، وخمود أنفاسـه، ورحلته إلى قبره، ومقامه بين أرماسه.

فقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مـرض معلوم. فكونوا على أهبـة لذلك، واسـتعـدوا للرحيل قـبل يوم الرحيل، واستجيبوا لربكم حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ١٨-٢٠].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩-١١].

وإذا كان الموت قادماً لا محالة تعـيّن على العاقل أن يكون قصير الأمل، مغتنمـاً للأوقات، ذا همة عاليـة فى التزوّد من الخيرات، وبهـذا كان السلف يتواصون، قيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟ قال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم رحلة إلى الآخرة. وقال الحسن: إنما أنت أيام مجـموعة كلما مضى يوم مضى بعضك. وقال: ابن آدم! إنما أنت بين راحلتين مطيتين يوضعانك، يوضعك الليل إلى النهـار، والنهار إلى الليل، حتى يسلمـانك إلى الآخرة، فمن أعظم منك ياابن آدم خطراً؟

وقال داود الطائى: إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة،

حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدّم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عما قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاضٍ من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك. وكتب بعض السلف إلى أخٍ له: يا أخي! يخيّل لك أنك مقيم، بل أنت دئب السفر، تساق مع ذلك سوقاً حثيثًا. الموت متوجّه إليك، والدنيا تطوى من ورائك، وما مضى من عمرك فليس بكارّ عليك يوم التغابن[١]:

تزود من التقوى فإنك لا تدري ... إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكًا ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من عليل عاش حينًا من الدهر

قال رسول اللَّه ﷺ: «**بادرُوا بالأعْمال، فتنًا كقطع الليل المظْلم، يصبحُ الرجلُ مؤمناً ويُمسِي كافراً، ويُمسِي كافراً ويصبحُ مؤمناً، يبيعُ دينَه بعرضٍ منَ الدُّنيا**»[٢]. وقال ﷺ:

«**اغتنمْ خمساً قبلَ خمسٍ: حياتَك قبلَ موتك، وشبابَك قبلَ هرمِك، وصحتَك قبلَ مرضِك، وغنَاك قبلَ فقرِك، وفراغَك قبل شغلك**»[٣]

فيا عبد اللَّه: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وأكثر من ذكر الموت، فإن من أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة:

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٣٣٤)
(٢) صحيح: م (١١٨/ ١/١١٠)، ت (٢٢٩١/ ٣/٣٣٠)
(٣) صحيح: كم (٣٠٦/ ٤) وقد شرحته ضمن هذه الأربعين.

تعجيل التوبة، والقناعة، والاجتهاد فى الطاعة، ومن نسى الموت عوقب بثلاثة: تسويف التوبة، وعدم القناعة، والتكاسل عن الطاعة.

وتفكر يا مغرور فى الموت وشدّته، وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعدٍ ما أصدقه، ومن حاكمٍ ما أعدله! كفى بالموت مفزّعاً للقلوب، ومبكيًا للعيون، ومفرّقاً للجماعات، وهاذماً للذات، وقاطعاً للأمنيات. فهل تفكرت يا ابن آدم فى يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك، إذا نقلت من سعةٍ إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأُخذت من فراشك وغطائك إلى غرر، وغطوك من بعد لين لحافها بترابٍ ومدر. فيا جامع المال، ويا مجتهداً فى البنيان ليس لك من مالك واللَّه إلا الأكفان، بل هى للخراب والذهاب، وجسمك للتراب والمثاب. فأين ما جمعت من المال هل أنقذك من الأهوال[1]، وكأنى بك تقول وقد قرأت كتابك وأيقنت بالبوار:

﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

فيا نائماً أفق، ويا غافلاً انتبه، وبادر بالأعمال الصالحة قبل أن لا تقدر عليها، ويحال بينك وبينها إما بمرض أو موت. قال أبو حازم: إن بضاعة الآخرة كاسدة، يوشك أن تنفق فلا يوصل منها إلى قليل أو كثير. ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق إلا الحسرة والأسف عليه، ويتمنى الرجوع إلى حال يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية. قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا

(١) التذكرة (٩ و ١٠).

أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٩].

وقوله: **(وأحببْ منْ شئتَ فإنَّك مفارقُه)**: أحبب أخاك فإنك مفارقه، أحبب أمك فإنك مفارقها، أحبب أباك فإنك مفارقه، أحبب زوجتك فإنك مفارقها، أحبب ولدك فإنك مفارقه، أحبب مالك فإنك مفارقه، أحبب دارك فإنك مفارقها، أحبب عائلتك فإنك مفارقها، أحبب من شئت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه بموت أو غيره، فما من أحد فى الدنيا إلا وهو ضيف، وما بيده عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مردودة.

قال الغزالى: القصد بهذا تأديب النفس عن البطر والأشر، والفرح بنعيم الدنيا، فإنه إذا علم أن من أحبَّ شيئاً يلزم فراقه، ويشقى لا محالة بفراقه، شغل قلبه بحبِّ من لا يفارقه، وهو ذكر اللَّه والعمل الصالح، فإن ذلك يصحبه فى القبر فلا يفارقه، كما قال النبىّ ﷺ: «**يتبع الميِّت ثلاثةٌ: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله**»[1].

وفى حديث البراء بن عازب رضى اللَّه عنه أن النبى ﷺ أخبر أنه بعد سؤال المؤمن فى قبره: «**يأتيه رجلٌ حسنُ الوجْه، حسنُ الثياب، طيِّب الرِّيح،**

---

(١) متفق عليه: خ (٦٥١٤/ ٣٦٢/ ١١)، م (٢٩٦٠/ ٢٢٧١/ ٤)، ت (٢٤٨٥/ ١٧ و١٨/ ٤)، وانظر فيض القدير (١٠٢/ ١).

فيقولُ: أبشرْ بالذى يسرّك، أبشر برضوانٍ منَ اللَّه وجنات فيهَا نعيمٌ مقيمٌ، هذا يومُك الذى كنتَ توعدُ. فيقولُ لهُ: وأنتَ فبشركَ اللَّهُ بخيرٍ، منْ أنتَ؟ فوجهُك الوجهُ يجىءُ بالخيرِ، فيقولُ: أنَا عملُكَ الصالحُ، فواللَّهِ ما علمتُك إلاَّ كنتَ سريعًا فِى إطاعةِ اللَّهِ بطيئاً فى معْصية اللَّه، فجزاك اللَّهُ خيراً».

وأما الكافر فإنه بعد سؤاله: «يأتيه رجلٌ قبيحُ الوجْه، قبيحُ الثياب، منتنُ الرِّيح، فيقولُ: أبشرْ بالذى يسوؤُك، هذا يومُك الذى كنتَ توعدُ، فيقولُ: وأنتَ فبشَّرك اللَّهُ بالشَّر، منْ أنتَ؟ فوجهُك الوجهُ يجىءُ بالشَّر؟ فيقولُ: أنا عملُك الخبيثُ، فواللَّه مَا علمتُك إلا كنتَ بطيئاً عنْ طاعةِ اللَّهِ، سريعاً إِلَى معصيةِ اللَّه، فجزَاك اللَّهُ شراً».

وقوله ﷺ: «واعملْ مَا شئتَ فإنَّك مجزىٌّ به»: أى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وقد كثر ذكر جزاء الأعمال فى القرآن الكريم:

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى عن أهل الجنة:

﴿ **وَنُودوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الاعراف: ٤٣].

وقال في وصف نعيمها: ﴿**وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الواقعة: ٢٠-٢٤].

وقال عن أهل النار: ﴿**يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الطور: ١٣-١٦].

ولما ذكر الموت وجزاء الأعمال أرشد إلى أشرف الأعمال فقال:

«**واعلمْ أنَّ شرفَ المؤمن قيامُ الليلِ**»: والشرف هو الرفعة، يقال: لفلان شرف: أي منزلة عالية. فالنبيّ ﷺ يرشد أمته إلى أن ما يرفع منزلة المؤمن هو قيام الليل، فلأهل القيام منزلة لا تدانيها منزلة، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات: ١٥-١٨].

وقال النبي ﷺ: «**إنَّ في الجنة غُرفاً يُرى ظاهرُها منْ باطنها، وباطنُها منْ ظاهرها، أعدّها اللَّهُ تعالى لِمَن ألأنَ الكلامَ، وأطْعم الطعامَ، وتابعَ الصيامَ، وصلَّى والناسُ نيامٌ**»[١].

فعليكم عباد اللَّه بقيام الليل، فهو عنوان الإيمان، ودليل الإحسان:

---

(١) سبق تخريجه وشرحه

قال تعـالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥-١٨].

وقد فرّق اللَّه تعالى بين أهل القيام وغيرهم، فقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

ولقد كـان رسول اللَّه ﷺ يقوم من الليل حتى تتـفطر قدماه[١]، وهـو الأسوة الحسنة والمثل الأعلى، كـما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولما كان الشرف والعزّ أخوين استطرد ذكر ما يحصل به العزّ فقال:

«**وعـزّه استـغنَاؤه عن النَّاسِ**»: أى قوته وعظمـته وغلبته على غـيره فى اكتفائه عما فى أيدى الناس.

وهذه وصيـة رسول اللَّه ﷺ لرجل قال له: يا رسـول اللَّه! دلّنى على عمل إذا عملته أحبّنى اللَّه وأحبّنى الناس، فقال ﷺ: «**ازهدْ فِى الدُّنيـا يحبّك اللَّهُ، وازهدْ فيمَا فِى أيدِى النَّاسِ يحبّك الناسُ**»[٢].

---

(١) متفق عليه: خ (٤٨٣٧/ ٥٨٤/٨)، م (٢٨٢٠/ ٢١٧٢/ ٤).
(٢) صحيح: جه (٤١٠٢/ ١٣٧٣/ ٢).

ولذا قال الحسن: لا تزال كريماً على الناس، ولا يزال الناس يكرمونك، ما لم تتعاط ما فى أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك، وأبغضوك.

وقال عمر رضى اللَّه عنه: إن الطمع فقر، وإن اليأس غنى، وإن الإنسان إذا أيس من شىء استغنى عنه.

وقال الغزالى: من لا يؤثر عزّ النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان، ففى القناعة العزّ والحرية،

ولذلك قيل:استغن عمن شئت فأنت نظيره، واحتج إلى من شئت فأنت أسيره، وأحسن إلى من شئت فأنت أميره[1]..

ودخل أعرابى البصرة فقال: من سيّد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن. قال: بم سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم.

فيا عبد اللَّه:

هى القناعة فاحفظها تكن ملكاً … لو لم يكن لك منها إلا راحة البدن

وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها … هل راح منها بغير الطيب والكفن

نسأل اللَّه أن يغنينا بحلاله عن حرامه، وأن يكفينا بفضله عمن سواه.

❊ ❊ ❊

(١) فيض القدير (١/١٠٢)



الحديث التاسع والثلاثون

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَبَ النَّبِىُّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ الله خَيَّرَ عَبْداً بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ الله».

فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ. فَقُلْتُ فِى نَفْسِى: مَا يُبْكِى هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنِ الله خَيرَ عَبْداً بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ الله؟ فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ هُوَ الْعَبد، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا.

قَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لاَ تَبْكِ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَىَّ فِى صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِى لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ، لاَ يَبْقَيَنَّ فِى الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلاَّ سُدَّ إِلاَّ بَابَ أَبِى بَكْرٍ»[1].

كانت هذه الخطبة قبل أن يموت النبىُّ ﷺ بخمس، وهذا يدفعنا إلى محاولة الوقوف على حقيقة هذه الأيام الأخيرة من حياته ﷺ. فنقول وباللَّه التوفيق: خرج رسول اللَّه ﷺ فى السنة العاشرة من الهجرة للحج، وفى هذه الحجة استشعرت النفوسُ قُربَ أجله ﷺ، وذلك لما نزل عليه فيها من

---

(١) متفق عليه: خ (٣٦٥٤/ ١٢/ ٧) وهذا لفظه، م (٢٣٨٢/ ١٨٥٤/ ٤)، ت (٣٧٤٠/ ٣٧٠/ ٥).

القرآن الكريم، فقد نزل عليه ﷺ بعرفة قولُ اللَّه تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] فلما تلاها ﷺ على أصحابه بكى عمرُ رضى اللَّه عنه، فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان[١].

وقد أشار ﷺ إلى هذا الذى فهمه عمرُ فقال وقد وقف عند جمرة العقبة: «خذُوا عنِّى مناسككُم فلعلِّى لاَ أحجّ بعدَ حجّتى هذه»[٢]. وفى أوسط أيام التشريق نزلت عليه ﷺ سورة النصر، فنعى نفسه إلى فاطمة ابنته:

عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما قال: لما نزلت «النصر» دعا النبى ﷺ فاطمة فقالت: «نُعِيَتْ إلىّ نفسى». فبكت.

فقال: «لا تبكى فإنك أوّلُ أهلِى لاحقٌ بى» فضحكت. فرآها بعض أزواج النبى ﷺ فقلن: يا فاطمة! رأيناك بكيت ثم ضحكت؟ قالت: إنه أخبرنى أنه نُعيت إليه نفسه فبكيت، فقال لى: لا تبكى فإنك أوّل أهلى لاحقٌ بى فضحكت[٣].

وعن ابن عباس رضى اللَّه عنهما قال: «كان عمرُ يُدْخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وَجَدَ فى نفسه، فقال: لم يُدْخِلُ هذا معنا ولنا أبناءُ مثلُه؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعانى ذات يوم فأدخلنى معهم، وما رأيت أنه أدخلنى معهم إلاّ ليُريهم. فقال: ما تقولون فى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] ـ السورة ـ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد اللَّه

---

(١) ابن جرير (٦/٨٠) وذكر أن القائل له «ما يبكيك؟» هو رسول الله ﷺ.

(٢) صحيح: م (١٢٩٧/٩٤٣/٢)، د (١٩٥٤/٤٤٥، ٤٤٦/٥)، نس (٥/٢٧٠).

(٣) ذكره ابن كثير (٤/٥٦١) وعزاه للبيهقى.

ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لى: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول اللَّه ﷺ أعلم له.

قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول»[١].

وهكذا استشعرت النفوس قرب أجله ﷺ فى حجة الوداع. ثم رجع ﷺ إلى المدينة فى ذى الحجة فأقام بها بقيته والمحرم وصفراً، وبعث بعثاً إلى الشام وأمّر عليهم أسامة بن زيد رضى اللَّه عنه.

فبينا الناس على ذلك ابتدى ﷺ بشكوه الذى قُبض فيه، لما أراده اللَّه له من رحمته وكرامته فى ليالٍ بقين من صفر، أوْ أوّل شهر ربيع الأول.

وكان أول ما ابتدئ به ﷺ صداع شديد يجده فى رأسه، كما جاء عن عائشة رضى اللَّه عنها قالت: «رجع رسول اللَّه ﷺ ذات يوم من جنازة من البقيع وأنا أجد صداعاً، وأنا أقول: وارأساه!! فقال ﷺ: «**بل أنا يا عائشة وارأساه**». فقال ﷺ: «**وما ضرّك لو متِّ قبلى فغسلتك وكفنتك وصلّيتُ عليك ودفنتُك!**» قلت: لكأنى بك واللَّه لو فعلت ذلك فرجعت إلى بيتى فعرّست فيه ببعض نسائك! فتبسم ﷺ، ثم بدئ فى وجعه الذى مات فيه[٢].

---

(١) صحيح: خ (٤٩٧٠/ ٧٣٤ ، ٨/٧٣٥) وهذا لفظه، ت (٣٤٢٠/ ١٢٠/ ٥) مختصراً.
(٢) حسن: رواه: قط (١١/ ٧٤/ ٢)، جه (١٤٦٥/ ٤٧٠/ ١).

وكان ﷺ يدور على نسائه، كلما أتى واحدة قال: «**أين أنا غداً؟**» - يريد عائشة - حتى اشتد عليه وجعه، وغلبه على نفسه وهو فى بيت ميمونة. فبينما هو كذلك لدّوه، فجعل يشير إليهم **أن لا تلدّونى**. فقالوا: كراهية المريض للدواء. فلما أفاق قال: «**ألم أنهكم أن تلدّونى؟**» قالوا: قلنا كراهية المريض للدواء. فقال: «**لا يبقَى فى البيتِ أحدٌ إلا لُدّ، إلا عمى العباس فإنه لم يشهدكم**»[(١)].

ثم استأذن ﷺ نساءه أن يمرض فى بيت عائشة فأذنّ له. فخرج بين رجلين من أهل بيته حتى دخل بيت عائشة.

وكان ﷺ يقول: «**يا عائشةُ ما أزالُ أجد ألمَ الطعامِ الذى أكلتُ بخيبرَ، فهذا أوانُ وجدتُ انقطاعَ أبهرِى من ذلك السُّم**»[(٢)].

وكان ﷺ يخرج للصلاة فلما غلبه الوجع قال: «**مرُوا أبا بكرٍ فليُصلّ بالناسِ**». فقالت عائشة: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يُسمع الناس من البكاء، فمرْ عمر فليصلّ بالناس. فقال ﷺ:

«**مرُوا أبا بكرٍ فليصلّ بالناسِ**». فقلت لحفصة: قولى له: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يُسمع الناس من البكاء، فمرْ عمر فليصلّ بالناس. ففعلت حفصة. فقال ﷺ: «**مَهْ! إنكنَّ لأنتنَّ صواحبُ يوسفَ. مُروا أبا بكرٍ فليصلّ بالناسِ**». فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً[(٣)].

---

(١) متفق عليه: خ (٤٤٥٨/١٤٧/٨)، م (٢٢١٣/١٧٣٣/٤)، واللدود هو أن يصب الدواء فى أحد جانبى فم المريض.

(٢) صحيح: خ (٤٤٢٨/١٣١/٨) تعلقاً. والأبهر: عرق مستبطن الصلب، والقلب متصل به، فإذا انقطع مات صاحبه.

(٣) متفق عليه: خ (٦٧٩/١٦٤/٢)، م (٤١٨ - ٩٥ -/٣١٣، ٣١٤/١)، ت (٣٧٥٤/٢٧٥، ٢٧٦/٥).

قالت عائشة: لـقد عاودت رسول اللَّه ﷺ فى ذلك، وما حـملنى على معـاودته إلا أنى خشيت أن يتشـاءم الناس بأبى بكر، وإلا أنى علمت أن لن يقوم مقامه أحدٌ إلا تشـاءم الناس به، فأحببت أن يعدل ذلك رسول اللَّه ﷺ عن أبى بكر إلى غيره[(١)].

فكان أبو بكر رضى اللَّه عنه يصلى بالناس فى حياته ﷺ.

ثـم إنـه ﷺ وجد من نفسـه خفّة، فخرج يهـادى بين رَجُلَيْن، ورجلاه تخطّان فى الأرض من الوجع. فأراد أبو بـكر أن يتأخر فأومـأ إليه النبى ﷺ أن مكانك. ثم أُتى به حتى جـلس إلى جنبه، فكان ﷺ يصلّى، وأبـو بكر يصلّى بصلاته، والناس يصلون بصلاة أبى بكر[(٢)].

ويوم الخميس اجتـمعوا عنده ﷺ وقد اشتدّ به وجـعه، فقال: «**ائتُـونى أكتبْ لكم كتـاباً لا تضلّوا بعدَهُ**» فتنازعوا، ومـا ينبغى عند نبىّ تنازع، وقالوا: ما شأنه؟ أهجر؟ استفهموه! فقال ﷺ: «**دعُونى فالذى أنا فيه خيرٌ**»[(٣)].

ثم أراد ﷺ أن يخرج للخطبة، فقال لأهله: **أهرِيقُوا علىّ من سبع قِربٍ لم تحلّ أوكيتها لعلّى أعهدُ إلى الناسِ**».

قالت عائشـة: فأجلسناه فى مخضب لحفصـة، ثم طفقنا نصبّ عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا بيده: أن قد فعلتنّ.

قالت: ثم خرج إلى الناس فصلّى بهم وخطبهم[(٤)].

---

(١) صحيح: خ تعليقاً (٤٤٤٥/ ١٤٠/٨)، م (٤١٨ - ٩٣ - ٣١٣/ ١).
(٢) متفق عليه: خ (٦٦٤/ ١٥١ ، ١٥٢/ ٢)، م (٤١٨/ ٣١١ - ٣١٤/ ١).
(٣) متفق عليه: خ (٤٤٣١/ ١٣٢/ ٨)، م (١٦٣٧/ ١٢٥٧ ، ١٢٥٨/ ٣).
(٤) صحيح: خ (٤٤٤٢/ ١٤١/ ٨).

عن أبى سعيد الخدرى رضى اللَّه عنه قال: خطب رسول اللَّه ﷺ الناس وقال: «**إنّ اللَّه خيّرَ عبداً بين الدنيا وبين ما عندَهُ، فاختارَ ذلك العبدُ ما عند اللَّه**». قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول اللَّه ﷺ عن عبدٍ خيّر، فكان رسول اللَّه ﷺ هو المخيّر، وكان أبو بكر أعلمنا. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إنّ أمنّ الناسِ علىّ فى صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غيرَ ربى لاتخذتُ أبا بكر، ولكن أخوّة الإسلام ومودّته، لا يبقين فى المسجدِ بابٌ إلا سُدّ، إلا بابَ أبى بكر**»[١].

وعن جندب بن عبد اللَّه رضى اللَّه عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ قبل أن يموت بخمسٍ وهو يقول: «**إنى أبرأُ إلى اللَّه أن يكون لى خليلٌ منكُم، وإنّ اللَّهَ قد اتخذَنى خليلاً كما اتخذَ إبراهيم خليلاً، ولو كنتُ متخذاً من أمتى خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ألا وإنّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذونَ قبورَ أنبيائهم وصالحيهم مساجدَ، ألا فلا تتخذُوا القبورَ مساجدَ، إنى أنهاكُم عن ذلكَ**»[٢].

ثم انقطع ﷺ عن أصحابه بقية يوم الخميس، والجمعة، والسبت، والأحد، وبينما هم فى صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكر يصلى بالناس لم يفجأهم إلا ورسول اللَّه ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم وهم صفوف فى الصلاة ثم ابتسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظنّ أن رسول اللَّه ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة.

قال أنس: وهمّ المسلمون أن يفتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول اللَّه ﷺ، فأشار إليهم بيده أن **أتموا صلاتكم**، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر، ثم مات ﷺ

---

(١) سبق.

(٢) صحيح: م (٥٣٢/ ٣٧٧ و٣٧٨/ ١).

ضحى ذلك اليوم الاثنين[١].

وقد وجـد ﷺ من الموت شدّة حتى قالت عـائشة رضى اللَّه عنها: لا أكره شدّة الموت لأحدٍ أبداً بعد ما رأيت النبى ﷺ[٢]. .

وعن ابن مسعود رضى اللَّه عنه قال: دخلت على رسول اللَّه ﷺ وهو يوعك فقلت يا رسول اللَّـه، إنك توعك، وعكاً شديداً. قال: «**أجـلْ، إنى أوعكُ كمـا يُوعك رجلانِ منكُم**». قلت: ذلك أن لك أجـرين؟ قال: «**أجـلْ ذلك كذلكَ مَا من مسلمٍ يصـيبُه أذى شوكةٍ فما فـوقَها إلا كفرَّ اللَّهُ بها سيئاتِه كما تحطّ الشجرةُ ورقَها**»[٣].

وعن أنس رضى اللَّه عنه قال: لما ثقل ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمـة رضى اللَّه عنها: واكرب أبتاه! قـال لها: «**لا كــربَ على أبيكِ بعــدَ اليومِ**»[٤].

وعن عائشة وابن عباس رضى اللَّه عـنهما قالا: لما نزل برسول اللَّه ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتمّ كشفها عن وجهه ويقول: «**لعـنَ اللَّهُ اليهودَ والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**».

قالت عائشة: لولا ذلك لأبرز قبره، خشى أن يتخذ مسجداً[٥].

وعنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يقول وهو صحيح: «**إنه لنْ يُقبضَ نبىّ حتى يرى مـقعدَه من الجنةِ ثُم يخـيرُ**». قالت: فلما نزل به ورأسـه على فخذى

---

(١) متفق عليه: خ (٤٤٤٨/١٤٣/٨)، م (٤١٩/٣١٥/١)، نس (٧/٤).

(٢) صحيح: خ (٤٤٤٦/ ١٤٠/٨)، نس (٦و٧/٤).

(٣) متفق عليه: خ (٥٦٤٨/١١١/ ١٠)، م (٢٥٧١/١٩٩١/٤).

(٤) صحيح: خ (٤٤٦٢/١٤٩/٨).

(٥) متفق عليه: خ (٤٤٤٣ و٤٤٤/ ١٤٠/٨)، م (٥٢٩/٣٧٦/١)، نس (٤٠ و٤١/٢).

غشى عليه ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف ثم قال: «**اللهمَّ الرفيقَ الأعلى**». فقلت: إذاً لا يختارنا [١].

وكانت تقول: «إن من نعم اللَّه علىَّ أن رسول اللَّه ﷺ تُوفى فى بيتى ويومى وبين سحرى ونحرى، وأن اللَّه جمع بين ريقى وريقه عند موته. دخل علىَّ عبد الرحمن وبيده سواك وأنا مسندة رسول اللَّه ﷺ فرأيته ينظر إليه وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فتناوله فاشتد عليه، فقلت: أُلَيِّنه لك؟ فأشار برأسه أن نعم. فلينته فأمرَّه، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «**لاَ إلهَ إلاَّ اللَّهُ، إنَّ للمَوتِ سَكَرَاتٍ**». ثم نصب يده فجعل يقول: «**فى الرَّفيق الأعْلَى**» حتى قُبض فمالت يده»[٢].

عن أنس رضى اللَّه عنه قال: «لما مات رسول اللَّه ﷺ قالت فاطمة: يا أبتاه! أجاب ربًّا دعاه. يا أبتاه! جنة الفردوس مأواه. يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه»[٣].

فلما مات ﷺ وضعت عائشة رأسه على وسادة وسجّته ببردة.

فاستأذن عمر والمغيرة فأذنت لهما وضربت الحجاب.

فنظر عمر إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: واغشياه! ما أشد غشى رسول اللَّه ﷺ، ثم قاما، فلما دنوا من الباب قال المغيرة: يا عمر! مات رسول اللَّه ﷺ. فقال عمر: كذبت! بل أنت رجل تحوسك فتنة. إن رسول اللَّه ﷺ لا يموت

---

(١) متفق عليه: خ (٤٤٦٣/ ٨/١٥٠)، م (٢٤٤٤ - ٨٧ -/ ٤/١٨٩٤).

(٢) صحيح: خ (٤٤٩/ ٨/١٤٤).

(٣) صحيح: خ (٤٤٦٢/ ٨/١٤٩)، نس (٤/١٣) بنحوه.

حتـى يفنى اللَّه المنافقـين. فخـرجا على الناس، وقـام عمـر يخطب الناس ويتـوعد من قـال مات بالقـتل والقطع، ويقول: واللَّه مـا مات رسـول اللَّه ﷺ، وليبعثنه اللَّه فليقطعنّ أيدى رجال وأرجلهم(١).

فلمـا اختلفوا فـى موته ﷺ ذهب سالم بن عـبيد إلى الـصدّيق بمنزله وأخبره. وكان الصدّيق حين صلّى الفجر ورأى رسول اللَّه ﷺ بخير انصرف إلى منزله. فجاء رضى اللَّه عنه فكشف عن رسول اللَّه ﷺ فقبّله فقال: بأبى أنت وأمى، طبت حيًّا وميتاً، والذى نفسى بيده لا يذيقك اللَّه الموتتين أبداً. ثم خرج وعمـر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فـأبى عمر أن يجلس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس. فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحـمد اللَّه وأثنى عليه، وقـال: ألا من كان يعبـد محمـداً فإن محمـداً قد مات، ومن كان يعبد اللَّه فـإن اللَّه حىّ لا يموت. قال تعالى: **﴿إِنَّكَ مَـيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾** [الزمر: ٣٠]. وقال: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾** [آل عمران: ١٤٤].

فنشج الناس يبكون، وقـال عمـر: واللَّه مـا هو إلا أن سمـعت أبا بكر تلاها فـعـرفت أنه الحق، فـعقـرت حـتى مـا تقلّنى رجـلاى، وهويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول اللَّه ﷺ قد مات(٢).

واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سـقيفة بنى ساعدة فقالوا: منّا أمير ومنكم أمير. فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فذهب عمر يتكلم

(١) البداية والنهاية (٥/٢٤١)، سيرة ابن هشام (٤/٣٠٥).

(٢) صحيح: خ (١٢٤١ ، ١٢٤٢/٣/١١٣)، البداية والنهاية (٥/٢٤٢).

فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: واللَّه ما أردت بذلك إلا أنى قد هيأت كلاماً قد أعجبنى خشيت أن لا يبلغه أبو بكر. ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس فقال فى كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حباب بن المنذر: لا واللَّه لا تفعل، منّا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: لا، ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب داراً، وأعربهم حسباً، فبايعوا عمراً أو أبا عبيدة. فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبّنا إلى رسول اللَّه ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، وذلك يوم الاثنين الذى تُوفى فيه رسول اللَّه ﷺ.

فلما كان الغد اجتمع الناس فى المسجد، فصعد عمر المنبر فتكلم وأبو بكر صامت فقال عمر: كنت أرجو أن يعيش رسول اللَّه ﷺ حتى يدبرنا، فإن يك محمدٌ قد مات فإن اللَّه قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به، هدى اللَّه به محمداً ﷺ وإن أبا بكر صاحب رسول اللَّه ﷺ، وثانى اثنين، وإنه أولى المسلمين بأموركم، فقدموا فبايعوه. ثم نزل عمر وقال لأبى بكر: اصعد، فلم يزل به حتى صعد المنبر، فبايعه عامة الناس بعد بيعة السقيفة.

ثم تكلم أبو بكر: فحمد اللَّه وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

أما بعد: أيها الناس، إنى قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقوّمونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوىّ عندى حتى أزيح علّته إن شاء اللَّه، والقوى منكم ضعيف عندى حتى آخذ الحقّ منه إن شاء اللَّه.

لا يدع قوم الجهاد فى سبيل اللَّه إلا ضربهم اللَّه بالذل، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم اللَّه بالبلاء. أطيعونى ما أطعت اللَّه ورسوله، فإذا

عصـيت اللَّه ورسوله فـلا طاعة لى عليكم. قـوموا إلى صلاتكـم يرحمكم اللَّه»(١).

وهكذا انشـغل أصحاب رسـول اللَّه ﷺ بقـية يـوم الإثنين وبعض يوم الثلاثـاء عن تجهيـز النبى ﷺ ببيـعة الصدّيق، فلمـا تمهدت وتوطدت وتمت شرعوا بعد ذلك فى تجهيزه ﷺ، معتدّين فى كل ما أشكل عليهم بأبى بكر رضى اللَّه عنه.

فلما أرادوا غسله ﷺ قالوا: ما ندرى أنجرّد رسول اللَّه ﷺ من ثيابه كما نجردّ موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلمـا اختلفوا ألقى اللَّه عليهم النوم حتى مـا منهم أحدٌ إلا وذقنه فى صـدره، ثم كلّمـهم مكلّم من ناحـية البـيت لا يدرون من هو:

«**أن غسلوا رسول اللَّه ﷺ وعليه ثيابه**». فقاموا إلى رسول اللَّه ﷺ فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فـوق القميص، فيدلكون بالقميص دون أيديهم. فكانت عائشة رضى اللَّه عنها تقول: «لو استـقبلت من أمرى ما استدبرت ما غسّل رسول اللَّه ﷺ إلا نساؤه»(٢).

وعن علىّ رضى اللَّه عنه: «أنه لما غـسّل رسول اللَّه ﷺ ذهب يلتـمس منه ما يُلتمس من الميت فلم يجد شيئاً، فقال: بأبى الطيب! طبت حيّا وطبت ميتاً»(٣).

فلما فرغـوا من غسله ﷺ كفنوه فى ثلاثة أثواب بيض سـحولية، ليس

---

(١) انظر «البداية والنهاية» (٢٤٤ - ٥/٢٤٨).
(٢) صحيح: د (٣١٢٥/٤١٣ - ٨/٤١٥)، جه (١٤٦٤/ ١/٤٧٠).
(٣) صحيح: جه (١٤٦٧/ ١/٤٧١).

فيها قميص ولا عمامة. كما قالت عائشة رضى اللَّه عنها[١].

ثم أخذوا فى الصلاة عليه ﷺ فرادى، لم يؤمهم أحد، دخل الرجال ثم النساء ثم الصبيان.

فلما أرادوا دفنه ﷺ اختلفوا أين يدفنونه؟ فقال أبو بكر رضى اللَّه عنه: سمعت من رسول اللَّه ﷺ شيئاً ما نسيته، قال:

«مَا قَبَضَ اللهُ نبيًّا إلاَّ فِى الموضعِ الَّذِى يُحبُّ أَنْ يدفَنَ فيهِ، فدفَنُوهُ فِى موضعِ فِراشِهِ»[٢].

وكان بالمدينة رجلٌ يُلحد، وآخر يضرح. فقالوا: نستخير ربنا ونبعث إليهما، فأيهما سبق تركناه. فسبق صاحب اللحد، فلحدوا للنبى ﷺ.

قالت عائشة رضى اللَّه عنها: ما علمنا بدفن النبى ﷺ حتى سمعنا صوت المساحى فى جوف ليلة الأربعاء[٣]. فلما فرغوا من دفنه قالت فاطمة رضى اللَّه عنها: يا أنس! أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول اللَّه ﷺ التراب!![٤]

وعن أم سلمة رضى اللَّه عنها قالت: بينما نحن مجتمعون نبكى لم ننم، ورسول اللَّه ﷺ فى بيوتنا، ونحن نتسلى برؤيته على السرير، إذ سمعنا صوت الكرارين فى السحر، فصحنا وصاح أهل المسجد، فارتجت المدينة

---

(١) متفق عليه: خ(١٢٦/ ١٣٥/ ٣)، م (٩٤١/ ٦٤٩/ ٢)، ت (١٠٠١/ ٢٣٣/ ٢)، د (٣١٣٥/ ٢٤٥ و٢٤٦/ ٨)، جه (١٤٦٩/ ٤٧٢/ ١)، نس (٣٥/ ٤).

(٢) حسن: ت (١٠٢٣/ ٢٤٢/ ٢).

(٣) صحيح: أ (٥٤٩/ ٢٥٦/ ٢١).

(٤) هو جزء من حديث أنس: «لما نقل رسول الله ﷺ قالت فاطمة: واكرب أبتاه...» وقد سبق تخريجه.

صيحة واحدة، وأذن بلال بالفـجر، فلما ذكر رسول اللَّه ﷺ بكى وانتـحب فزادنا حزناً[١].

فيـا لها من مصـيبة ما أصـيب المسلمون بمثلها قط. يا لـها من مصيـبة أظلمت لها المدينة، وتنكرت بعدها القلوب.

عن أنس رضى اللَّه عنه قـال: لما كان اليـوم الذى دخل فيـه رسول اللَّه ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء، وما نفضنا أيدينا عن التراب وإنا لفى دفنه حتى أنكرت قلوبنا[٢].

فإنا للَّه وإنا إليـه راجعون، اللهم أدخلنا مدخل نبـينا، وأوردنا حوضه، واحشرنا معه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وعزاؤنا فيه ﷺ قـوله: «**إذَا أرادَ اللهُ رحمةَ أمة مِنْ عِبادِهِ قـبضَ نبيها قبلَها، فجَعَلَه لَها فَرطًا وسَلفًا بينَ يَدَيها**»[٣].

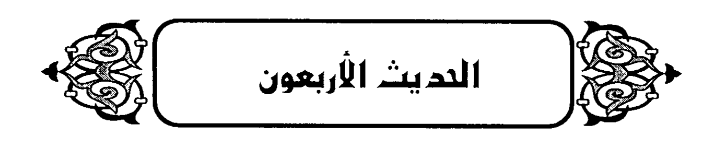
عن عائشـة رضى اللَّه عنها قالت: مـا ترك رسول اللَّه ﷺ ديـنـاراً ولا درهماً، ولا شاة ولا بعيراً ولا أوصى بشىء[٤]. بل لقد مات ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعاً من شعير أخذها لأهله[٥].

فاللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

---

(١) صحيح:
(٢) صحيح: ت (٣٦٩٧/٢٤٩/٥)، جه (١٦٣١/٥٢٢/١).
(٣) صحيح: م (٢٢٨٨/١٧٩١ و١٧٩٢/٤).
(٤) صحيح: م (١٦٣٥/١٢٥٦/٣)، د (٢٨٤٦/٦٤/٨)، جه (٢٦٩٥/ ٩٠٠/٢)، نس (٢٤٠/٦).
(٥) صحيح: خ (٤٤٦٧/١٥١/٨).



الحديث الأربعون

عَنْ مُعَاذ بن جَبَلٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامه لا إِلَهَ إِلاَّ الله دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولما كان اللَّه بالمؤمنين رحيماً فقد وصّاهم بالحرص على الإسلام والموت عليه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ولما كان الموتُ ليس له سن معلوم، ولا زمنٌ معلوم، ولا مرضٌ معلوم، وإنما يأتى بغتة، لزم المسلم كى يموت مسلماً أن يحيى مسلماً، ويعيش مسلماً، ويحرص على إسلامه فى شبابه حتى يشبّ عليه ويموت عليه، فقد جرت سنّةُ اللَّه سبحانه أن من شبّ على شىء شاب عليه، ومن شاب على

(١) حسن: د (٣١٠٠/ ٣٨٥/ ٨).

شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه[١].

وقد جعل الشارع الحكيم علامات بينات يستدل بها على حسن الخاتمة ـ كتبها اللَّه تعالى لنا بفضله ومنه ـ فأيّما امرئ مات بإحداها كانت بشارة له، ويا لها من بشارة.

الأولى: نطقه بالشهادة عند الموت، لحديث معاذٍ رضى اللَّه عنه: قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِر كَلامِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**»[٢].

فلهذه الكلمة الطيبة عند الموت تأثير عظيم فى تكفير السيئات ومحو الخطايا، لأنها فى مثل هذه الساعة تخرج من القلب وقد خرجت منه الدنيا كلها، وشارف القدوم على ربّه، وخمدت نيران شهواته، وامتلأ من الآخرة فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، وصار مشغولاً بما هو فيه، واجتمع همّه على من أيقن بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجه وجهه إليه، وأقبل بقلبه وروحه عليه، فاستسلم ظاهراً وباطناً، واستوى سرّه وعلانيته، فقال: لا إله إلا اللَّه مخلصاً من قلبه، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه وهو يسمع[٣]: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

ولذا أمر النبيّ ﷺ بتلقين الميت هذه الشهادة رجاء أن تكون خاتمة

---

(١) لقوله ﷺ: «يُبعث كل عبد على ما مات عليه» رواه: م (٢٨٧٨/ ٢٢٠٦/ ٤).

(٢) الفوائد لابن القيم (ص ٥٥ و٥٦).

(٣) صحيح: م (٩١٦/ ٦٣١/ ٢)، ت (٩٨٣/ ٢٢٥/ ٢)، د (٣١٠١/ ٣٨٦/ ٨)، جه (١٤٤٥/ ٤٦٤/ ١)، نس (٥/ ٤).

عمله، فقال ﷺ: «لقنوا موتاكم لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ» والمراد بالموتى المحتضرون، سمّوا بالموتى باعتبار ما يئول إليه أمرهم عمّا قريب. والمراد بالتلقين أن يقول أحد المحتضرين للميت: قل لا إله إلا اللَّه، فإذا قالها سكت عنه، فإذا تكلم بغيرها أعاد أمره بها، حتى تكون هى آخر ما يتكلم به. ولا يشرع عند الاحتضار غير هذا التلقين، ولا يشرع قراءة يس ولا غيرها من القرآن، فلم يصح فى ذلك حديث.

كما لا يشرع التلقين بعد الدفن، فإنه لم يصح فيه حديث، وهو أمر محدث، يُفوِّت على الميّت ما ينفعه من الدعاء الذى أمر به النبىّ ﷺ، حيث كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، وقال: «استغفرُوا لأخيكُم وسَلُوا اللهَ لَهُ التثبيتَ فإنَّه الآنَ يُسْألُ»[(١)].

الثانية: الموت برشح الجبين، لقوله ﷺ: «المؤمنُ يموتُ بعرقِ الجبينِ»[(٢)].

الثالثة: الموت ليلة الجمعة أو نهارها، لقوله ﷺ: «ما مِن مسلمٍ يموتُ يومَ الجمعةِ أو ليلةَ الجمعةِ إلا وقاهُ اللَّهُ فتنةَ القبرِ»[(٣)].

الرابعة: الاستشهاد فى ساحة القتال، لقوله تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

وقال النبىّ ﷺ: «للشهيدِ عندَ اللَّهِ ستّ خصالٍ: يغفرُ له فى أولِ دفعةٍ من

---

(١) صحيح: د (٣٢٠٥/٤١، ٤٢/٩).

(٢) صحيح: ت (٩٨٧/٢٢٧/٢)، جه (١٤٥٢/٤٦٧/١)، نس (٦/٤).

(٣) حسن صحيح: ت (١٠٨٠/٢٦٨/٢).

دمه، ويَرى مقعدَه من الجنة، ويُجار من عذابِ القبر، ويأمنُ الفـزعَ الأكبرَ، ويُحَلّى حليةَ الإيمانِ، ويزوّجُ من الحورِ العينِ، ويشفعُ فى سبعين إنساناً من أقاربه»[١].

ومن رحمة اللَّه وفضله على هذه الأمـة أنه يكتب هذه الشهادة لمن تمنّاها بصدق قال ﷺ: «مَن سألَ اللَّهَ الشهادةَ بصدقٍ بلّغهُ اللَّهُ منازلَ الشهداءِ وإن ماتَ على فراشهِ»[٢].

الخامسة: الموت غازياً فى سبيل اللَّه، لقوله ﷺ: «من قُتل فى سبيل اللَّه فهو شهيدٌ، ومن ماتَ فى سبيلِ اللَّه فهو شهيدٌ»[٣].

السادسة: الموت بالطاعون، لقوله ﷺ: «الطاعونُ شهادةُ كلِّ مسلمٍ»[٤].

وعن عائشة رضى اللَّه عنهـا «أنها سألت رسول اللَّه ﷺ عن الطاعون، فأخـبرها أنه «كان عذاب يبعثُه اللَّهُ على من يشاءُ، فجعلهُ اللَّه رحـمةً للمؤمنين، فليسَ من عبـدٍ يقعُ فى الطاعون فـيمكثُ فى بلده صابراً يـعلمُ أنه لن يصيبَـه إلا ما كتبهُ اللَّه له إلا كانَ له مثلُ أجرِ الشهيدِ»[٥].

السـابعـة: الموت بداء البطن، لقـــوله ﷺ: «ومنْ مـاتَ فى البطنِ فهـو شهيدٌ»[٦]، وقال ﷺ: «من يقتلُه بطنُه فلن يعذَّب فى قبره»[٧].

---

(١) صحـيح: ت (١٧١٢/١٠٦/٣)، جه (٢٧٩٩/٩٣٥/٢) ويلاحظ أن الخصـال المذكورة سبع، مع أنه قال «للشهيد عند الله ست».

(٢) صـحـيح: م (١٩٠٩/١٥١٧/٣)، د (١٥٠٦/٣٨٣/٤)، ت (١٧٠٥/١٠٣/٣)، جـه (٢٧٩٧/٩٣٥/٢)، نس (٣٦ و٣٧/٦).

(٣) صحيح: مسلم (١٩١٥/١٥٢١/٣).

(٤) متفق عليه: خ (٥٧٣٢/ ١٨٠/ ١٠)، م (١٩١٦/ ١٥٢٢/ ٣).

(٥) صحيح: خ (٥٧٣٤/ ١٩٢/ ١٠).

(٦) هذا جزء من الحديث رقم (٤).

(٧) صحيح: نس (٩٨/٤)، ت (١٠٧٠/ ٢٦٣، ٢٦٤/ ٢).

الثامنة والتاسعة: الموت بالغرق والهدم، لقوله ﷺ: «**الشهداءُ خمسةٌ: المطعونُ، والمبطونُ، والغرقُ، وصاحبُ الهدمِ، والشهيدُ فى سبيلِ اللَّه**»(١).

العاشرة: موت المرأة فى نفاسها بسبب ولدها، لقوله ﷺ: «**والمرأةُ تموتُ بجمع شهيدةٌ**»(٢).

الحادية عشرة والثانية عشرة: الموت بالحرق وذات الجنب، لقوله ﷺ: «**والحرقُ شهيدٌ، وصاحبُ ذاتِ الجنبِ شهيدٌ**»(٣).

الثالثة عشرة: الموت بداء السّلّ، لقوله ﷺ: «**والسُّلُّ شهادةٌ**»(٤).

الرابعة عشرة: الموت فى سبيل الدفاع عن المال المراد غصبه:

عن مخارق رضى اللَّه عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبىّ ﷺ فقال: الرجلُ يأتينى فيريد مالى قال: «**ذكّرهُ باللَّه**». قال: فإن لم يذكر؟ قال: «**فاستعنْ عليه مَن حولك مِن المسلمينَ**». قال: فإن لم يكن حولى أحدٌ من المسلمين؟ قال: «**فاستعن عليه السلطان**». قال: فإن نأى السلطان عنى وعجل علىّ؟ قال: «**قاتلْ دونَ مالكَ حتى تكونَ من شهداءِ الآخرةِ أو تمنعَ مالكَ**»(٥).

الخامسة عشرة والسادسة عشرة: الموت فى سبيل الدفاع عن الدين والنفس، لقوله ﷺ: «**من قُتل دونَ مالهِ فهو شهيدٌ، ومن قُتل دونَ أهلهِ فهو**

(١) متفق عليه رواه: خ (٦/٤٢/٢٨٢٩)، م (٣/١٥٢١/١٩١٤)، ت (٢/٢٦٣/١٠٦٩).

(٢) صحيح: د (٣٠٩٥/٣٧٦ - ٨/٣٧٨)، جه (٢/٩٣٧/٢٨٠٣)، نس (١٣ ، ٤/١٤).

(٣) جزء من الحديث رقم (٢).

(٤) قال فى «مجمع الزوائد» (٢/٣٠٢ «رواه الطبرانى فى الأوسط»، وفيه مندل بن على، وفيه كلام كثير وقد وثق» قلت: وله شاهد فى «المجمع» (٥/٣٠٤) من حديث عبد الملك بن هارون ابن عنترة عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ الحديث.

(٥) صحيح: نس (١١٣ ، ٧/١١٤).

شهيدٌ، ومَن قُتل دون دينه فهو شهيدٌ، ومن قُتل دون دمه فهو شهيدٌ»(١).

السابعة عشرة: الموت مرابطاً في سبيل اللَّه، لقوله ﷺ:

«رباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامه، وإن ماتَ جرى عليه عملُه الذى كان يعملُه، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتّان»(٢).

الثامنة عشر: الموت على عملٍ صالح، لقوله ﷺ: «من قالَ لا إله إلا اللَّهُ ابتغاءَ وجهِ اللَّه خُتم له بها دخلَ الجنةَ، ومن صام يوماً ابتغاءَ وجهِ اللَّه خُتم له به دخلَ الجنةَ، ومن تصدّق بصدقةٍ ابتغاء وجهِ اللَّه خُتم له بها دخلَ الجنةَ»(٣).

هذه هى علامات حسن الخاتمة، فما هى الوسيلة إليها؟

الجواب: إن تقوى اللَّه هى الوسيلة إلى حسن الخاتمة، والتقوى هى القيام بالواجبات وترك المحرمات، فمن سرّه أن تحسن خاتمته فليتق اللَّه بفعل كلّ ما به أمر، وترك كل ما عنه نهى وزجر، ومن أعظم ما أمر اللَّه به بعد التوحيد الصلاة، فالمحافظة على الصلاة فى الجماعة من أسباب حسن الخاتمة، ولذا قال ابن مسعود رضى اللَّه عنه: «من سرّه أن يلقى اللَّه غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهنّ، فإن اللَّه شرع لنبيكم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلّى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنّة نبيكم، ولو تركتم سنّة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يُؤتى به يُهادى بين

(١) صحيح: (٧/١١٦) وهذا لفظه، د (٤٧٤٦/١٢١ و١٢٢/١٣)، ت (١٤٤٣/٤٣٦/٢) دون الجملة الأخيرة.

(٢) صحيح: م (١٩١٣/ ١٥٢٠/٣)، نس (٦/٣٩).

(٣) صحيح: رواه: أ (١٧/٤٢/٧).

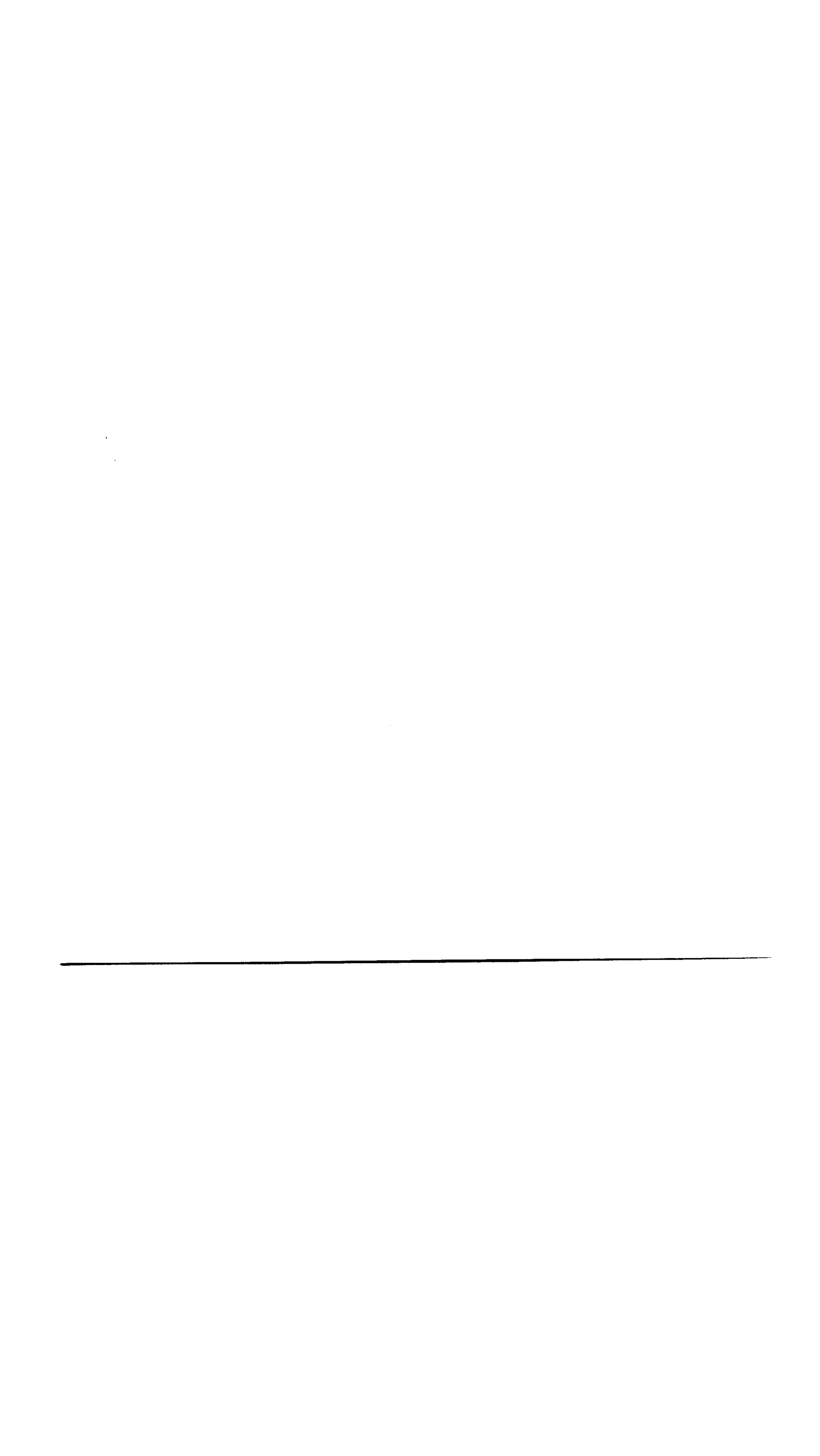
الرجلين حتى يقام فى الصف»[١] والحذر كلّ الحذر من المعاصى ما ظهر منها وما بطن، فإن الإصرار عليها قد يؤدى إلى سوء الخاتمة والعياذ بالله.

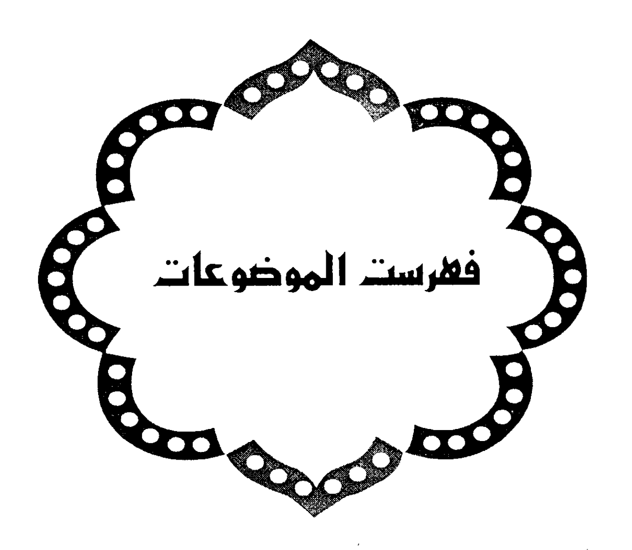
فتوبوا إلى ربكم توبة نصوحا:

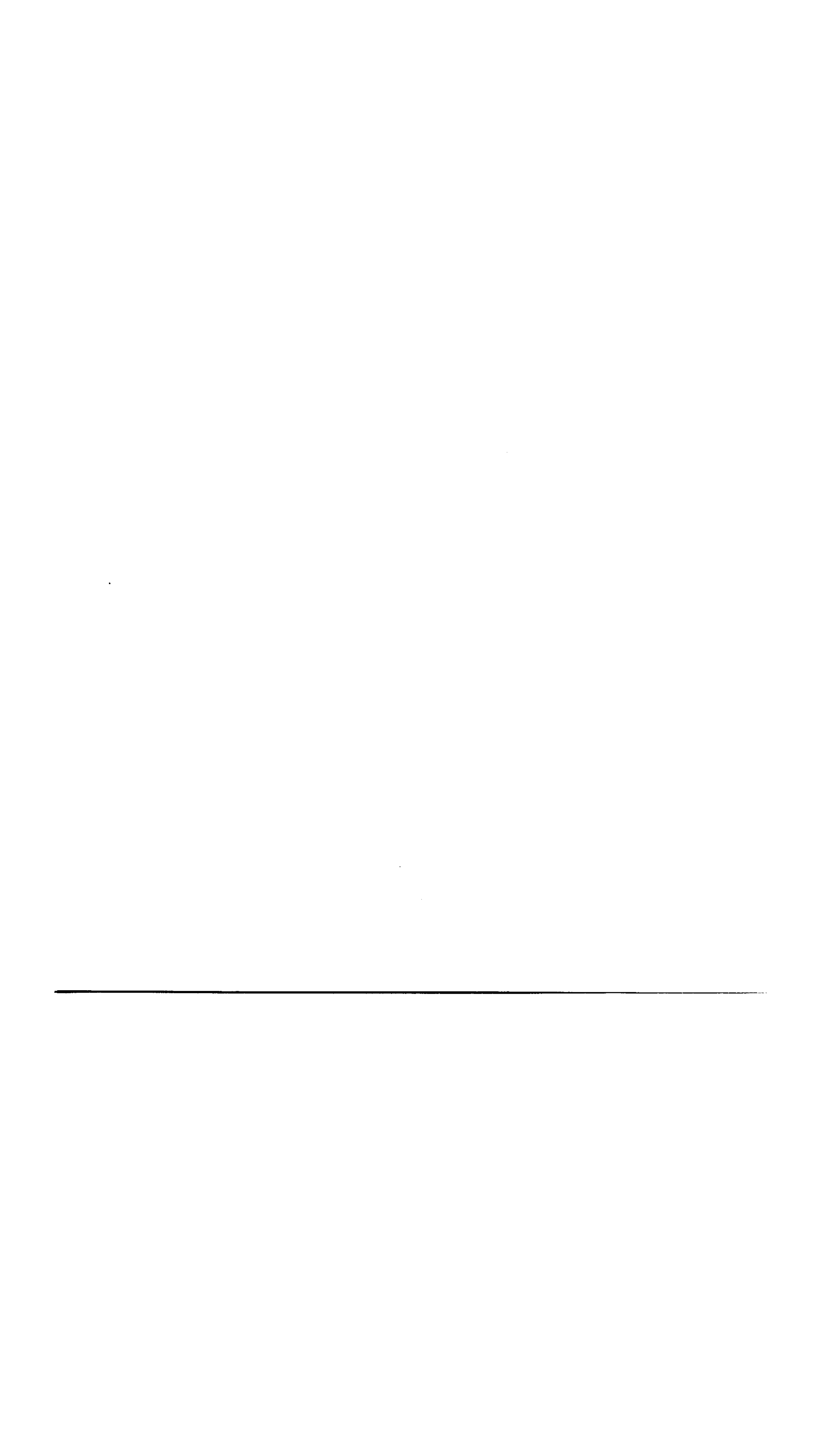
﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٩].

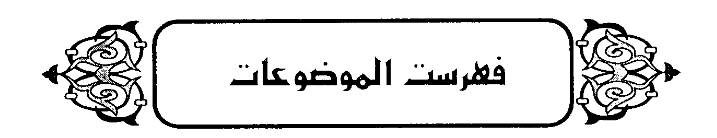
* * *

(١) صحيح: رواه: أ (١٧/٤٢/٧).




فهرست الموضوعات





فهرست الموضوعات